موقف الإمام النانوتوي من القضايا الخلافية بين السنّة والشيعة

إعداد:
محمّد نوشاد النّوري القاسمي

يصدرها
مجمع حجة الإسلام
الجامعة الإسلامية دار العلوم وقف ديوبند الهند

موقف الإمام النانوتوي من القضايا الخلافية بين السنة والشيعة: دراسة علمية

موقف الإمام النانوتوي من القضايا الخلافية
بين السنة والشيعة: دراسة علمية

إعداد:
محمد نوشاد النوري القاسمي

مجمع حجة الإسلام

الجامعة الإسلامية دار العلوم وقف ديوبند الهند
www.dud.edu.in

موقف الإمام النانوتوي من القضايا الخلافية بين السنة والشيعة: دراسة علمية

تاليف: محمد نوشاد النوري القاسمي

الطبعة الأولى: ١٤٤١هـ/ ٢٠٢٠م

الرقم الدولي:٩٧٨-٩٣-٨٤٧٧٥-١٤-٨

مجمع حجة الإسلام، الجامعة الإسلامية دارالعلوم وقف ديوبند

ISBN NO. 978-93-84775-14-8

Hujjat al-Islam Academy
Aljamia al-Islamia Darululoom Waqf Deoband
Eidgah road, P.O 247554, Deoband,
Distt: Saharanpur, U.P. INDIA
Tel: +91-1336-222352, Mob: +91-9897076726
Email: hujjatulislamacademy2013@gmail.com
hujjatulislamacademy@dud.edu.in
Website: http://www.dud.edu.in

مقدمة

محمد سفيان القاسمي[1]

الحمد لله رب العالمين والصلاة على سيدنا ونبينا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد!

فمنذ قرن ونصف ظل العلماء الأمناء، والمؤرخون البصراء يشهدون بأن الإمام حجة الإسلام محمد قاسم النانوتوي مؤسس الجامعة الإسلامية دار العلوم ديوبند لم يكن رجلًا؛ بل كان أمةً بأسرها، أنجز ما تنوء به العصبة، وقام بما تعجز عنه المجامع والأكاديميات، شهدوا وبكل صدقٍ وأمانةٍ بأنه عبقريٌّ من عباقرة هذه الأمة، تتفجرُ ينابيع العلم والحكمة من بين جوانحه، وتطورت بفضله ومساعيه المشكورة مسيراتُ إقامةِ الدين وبناءِ الإنسانية المثالية، والمعاركِ التحريرية للبلاد، وقوافلِ العلوم والفنون والجبهاتِ الدفاعية للإسلام، والجمعِ بين العقل والنقل، والمادة والروح، وشرحِ الأفكار الإسلامية بأسلوبٍ علميٍّ سائغٍ يفند الشبهات ويرسِّخ الحقائق في الأذهان.

فقد أنشأ حركة المدارس الإسلامية لتكون سدًّا منيعًا على الانهيار الديني والاجتماعي والأخلاقي، الذي عاد نصيبَ المسلمين جرّاء الأوضاع السياسية

(١) رئيس الجامعة الإسلامية دار العلوم وقف ديوبند، الهند.

في الهند بعد الاحتلال، ثم أَسَّس فعلاً الجامعة الإسلامية دار العلوم ديوبند لتكون معقلاً إسلاميًا عظيمًا، يتحصَّن به المسلمون ويأمنون على عقائدهم وأفكارهم وحضارتهم، ومركزًا إسلاميًّا كبيرًا، يدافع عن الإسلام بأقصى ما يمكن وبسعة صدر واعتدال فكر، ويعمل على توحيد الصفوف الإسلامية، وإنشاء حركات إصلاحية وتجديدية، تنفخ في الأمة الإسلامية روح الإيمان والعزيمة والتفاني في سبيل الله.

هذه هي الأهداف النبيلة، التي سرت روحُها في وجود الإمام النانوتوي، وجعلتْه يعيش همومها، ويسهَر على تحقيقها ليل نهار، وكان العمق في العلوم والسعة في الفكر من أهم ما يميز الإمام النانوتوي رحمه الله، وهما يتمثلان في كل عمل من أعماله، سواء يتعلق بالإصلاح أم بالدفاع عن الدين، أو يتعلق بالحياة الفردية أم بالحياة الاجتماعية، وهذه ميزة فريدة للإمام، يعترف بها القاصي والداني منذ قرن ونصف.

وكتابه "هدية الشيعة" الذي ألفه الإمام في إصلاح الشيعة خير دليل على منهجه في المسائل الخلافية، فالقارئ يلمس في ثنايا صفحاته لوعته القلبية في الإصلاح وابتعاده عن الأسلوب الجارح المليئ بالافتراءات والأكاذيب؛ بل اسم الكتاب (هدية الشيعة) بدوره شاهد قوي على منهج الإمام الإصلاحي الدعوي الحكيم، فالكتاب وَضَعَه الإمامُ للردِّ على معتقدات الشيعة ودلائلهم، وإثبات حقِّيَّة عقائد أهل السنة والجماعة بأسلوبٍ قويٍّ؛ ولكن عنوان الكتاب هو أول ما يصافحه القارئ، ويجذبه، فالإمام في تسمية الكتاب راعى أسلوب الحب والمودة دون أسلوب البغض والقطيعة، ثم إنه في صلب الكتاب لا يرمي إلى تفضيل عقائد أهل السنة والجماعة على عقائد الشيعة فحسب؛ بل يرمي إلى

إصلاح الشيعة، وعودتهم إلى الحق والصواب، ومن ثم يتفنَّن في أسلوب البيان، فتارةً يستدل بآيةٍ قرآنيةٍ، وتارةً بكلام إمامٍ من أئمة أهل البيت، وتارة بكتابٍ موثوقٍ به من كتب الشيعة، وتارة بقصةٍ من قصص علمائهم، ويُثْبِتُ تناقضاتِهم الفكرية، ويُبَرْهِنُ على أن مثل هذه العقائد لايقبلها عقلٌ سليمٌ ودينٌ قويمٌ، إن كلا من علم التصوف وعلم النفس يؤكد على أهمية هذا المنهج، فكتاب هدية الشيعة جاء نبراسًا منيرًا للدعاة والمصلحين على ضرورة اختيار المنهج الإصلاحي التربوي في تناول المسائل الخلافية.

وبما أن الغرض الأصيل من الكتاب هو إصلاح حال الشيعة، فأول ما يميز الكتاب ويدركه الناظر بسهولة هو لوعةُ الإمام وحُرْقَتُه القلبية بجانب أسلوبٍ محبَّب، فهو يكتب المباحثَ وقلبُه يتفطَّر كَمَدًا على أن ما الذي يمنع إخواننا الشيعة عن قبول هذا الحق الأبلج؟ وما الذي يدفعهم إلى التورط في الباطل؟ فكلُّ حرف من حروف الكتاب يشِفُّ عن وجعه ولوعته، وحرصه الشديد على نقل الحق الواضح المبين إلى عقول إخواننا الشيعة، فمع تعمقه وعلوِّه في العلوم والفنون قد تنزَّل في كلامه إلى حدٍّ أنه يكتب المسائل الخلافية بأسلوبٍ سهلٍ، يفهمه المثقفون والجمهور على حدٍّ سواءٍ، ويبدو كأن المعانيَ ملهمةٌ من الله في قلب الإمام، ويتنقل من كلامٍ إلى كلامٍ، لا عاطفةَ التعلي ولا فخرَ، كلامٌ كلُّه نصحٌ ومودةٌ وتواضعٌ وكشفٌ عن الحقائق، ثم هو كلامٌ يفيض حبًّا واحترامًا للصحابة وأهل البيت رضي الله عنهم، ولا ينقطع خيط الاعتدال في خِضَمِّ العواطف الدينية والانطلاق القلمي؛ بل يترك أثرا طيبا في نفس القارئ، ويعطيه من الاعتدال في الفكر ما يحتاج إليه.

وأرى من المناسب هنا أن أنقل نصًّا من بداية كتاب هدية الشيعة، يوضح الأسلوب الكتابي لدى الإمام، حيث يقول: "على القراء أنهم إن رأوا في الكلام كلمة لاتتلاءم مع عظمة الأنبياء والمرسلين أو أصحاب سيد المرسلين أو أهل البيت وأعوذ بالله من ذلك فأرجو أن يعذروني في ذلك، فإنها جاءت –إن جاءت– إفحامًا للشيعة، فوَبالُها عليهم،(وهذا من قبيل "نقل الكفر ليس بكفر")، والله يشهد بأني بريء كلَّ البراءة وألفَ مرة من مثل هذه العقائد التي تَمَسُّ كرامة الأنبياء والمرسلين أو أصحاب سيد المرسلين أو أهل البيت، بل أعتبر حبهم سببًا للنجاة و السعادة، و الرجاء من كل عالم بصير أن يعذِرَني وفق الأصول الدينية قبل الاعتذار والندم".

وهناك وجهة نظرٍ أخرى، إن رأينا كتاب الإمام من خلالها وجدناه يسري فيه منهجُه الدعوي الحكيم، الذي يتميز بالإصلاح دون الإخلال، وحلِّ المعضلات دون التعقيد، وبالحكمة دون التهوُّر، وبالتأَنِّي دون الاستعجال، والكتاب بمحتواه ومغزاه خير شاهد على ذلك.

وصدق الشيخ المحدث بدر عالم الميرتهي عند ماقال: "يقول الإمام الغزالي: قد يكون تعصب أهل الحق هو الآخر سببا لضلالة الناس في العهد الماضي، فإنهم نظروا إلى الجماعة المنحرفة نظرةَ ازدراءٍ وتحقيرٍ، فتَشَدَّد الجهلاءُ في أعمالهم مكابرةً وعنادًا، ومع مرور الأيام أصبح عنادُهم الموقَّت عقائدَهم الثابتة، فمثلا قد حدثتْ مبالغاتٌ كثيرةٌ في مسألة حدوث كلام الله وقدمه حتى بلغ الأمر إلى أن بعض الناس اعتبروا الصوت الخارج من الحلقوم قديما، يا ليت مثل هذه المناظرات والمناقشات لم تحدث، فإنها لو كان الأمر كذلك لم يَتَفَوَّهْ مجنونٌ

بمثل هذه الكلمات الباطلة، التي عادتْ عقائدَ في الأزمان اللاحقة". (الميرتهي، بدر عالم، ترجمان السنة، ج١، ص٦٩).

وعلى هذا القياس إذا ألقينا نظرةً على أحداث التاريخ وجدنا أن الاختلاف بين السنة والشيعة في بداية الأمر لم يكن بهذا النوع من الشدة والجفاء، فَبِغَضِّ النظرِ عن أهداف المفسدين لـمَّا أثار ابن السبا والسبئيون المسائلَ الخلافية فيما بين الجمهور، واستغلُّوها في صالحهم، واستعملوا في ذلك السُّذَّج من المسلمين ظهرت نتائجُه مدمِّرةً، وذلك بوجود فرقةٍ، تختلف عن رأي جمهور الصحابة، ومازالت فجوةُ الخلاف تشتدُّ وتتوسَّعُ، هذا جانبٌ سلبيٌّ، ومن إيجابيات هذا الخلاف ما فصَّله العلامة بدر عالم الميرتهي في كتابه ترجمان السنة: "وقد نقل الإمام البخاري في صحيحه في باب الاعتصام حديثَ "لاتزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين"، ثم عقد عنوانًا آخر ونقل فيه قولَه تعالى: أو يلبسكم شيعا، أي أن الله قادرٌ على أن يجعلكم أحزابًا، يقول الحافظ ابن حجر العسقلاني: إن المناسبة بين البابين أن الحديث الأول يخبر بأن الاختلاف سيحدث في الزمن القادم في الأمة؛ حتى لاتبقى على الحق إلا طائفةٌ من الطوائف الإسلامية الكثيرة، والبابُ الثاني يأتي بتوجيهٍ جديدٍ للاختلاف، فإن النبي صلى الله عليه وسلم خُيِّر بين أنواع العذاب لأمته، فاختار النبي صلى الله عليه وسلم الافتراقَ والانتشارَ، فإن الافتراق لايكون سببًا لاستئصال الأمة بكاملها، فعلم أن الافتراق والتشتت نوعٌ من العذاب، ودليل على أن صاحبه على الباطل. (نفس المصدر، ج١، ص٧٢).

الحاصل أن منهج الاعتدال والتأدب مع المخالفين، سواء كانوا أفرادا، أو جماعات مختلفة الاتجاهات أو فِرَقًا مختلفةَ العقائد هو المنهج الذي يؤثِّر ويأتي بنتائجَ مرجوَّةٍ، ومن هنا نرى الإمام النانوتوي رحمه الله في كتابه هدية الشيعة يجتازُ بعضَ المراحل الفكرية الصعبة بمنهجه الاستدلالي الرزين ومزاجه المعتدل وخُلُقِه الكريم، فمن أهم خصائص الكتاب أنه يرُدُّ على الأفكار الباطلة بأسلوبٍ علميٍ قويٍ ولكنه مصحوب بوقار ورزانة، وعاطفة النصح والهداية، لكي يَسْهُلَ رجوعُ المخالفين إلى الصراط المستقيم.

والكتاب الذي بين يدي القارئ ليس ترجمةً عربيةً لكتاب هدية الشيعة؛ بل هو دراسةٌ علميةٌ لموقف الإمام النانوتوي رحمه الله من الشيعة من خلال كتبه ورسائله، بما فيها هدية الشيعة والأجوبة الأربعين، وفي هذه الكتب والرسائل يقول الباحث المعاصر الكبير الشيخ نور الحسن راشد الكاندهلوي: "إن تحقيقات هذا الكتاب تجمع يبن إفادات الشاه ولي الله الدهلوي رحمه الله وبين تحقيقات العلماء الذين استفادوا من مدرسة الشاه ولي الله الدهلوي وهناك تحقيقات علمية قيمة زادها الإمام النانوتوي في كتابه هدية الشيعة؛ ولكن المؤسف أنه لم يتم نشر هذه المباحث كما كان حقها"، وهنا ينقل الشيخ كلام الشيخ المحدث ظفر أحمد التهانوي رحمه الله صاحب إعلاء السنن فيقول: إنه بعد دراسة كتاب هدية الشيعة للإمام النانوتوي رحمه الله وما تحدَّث فيه عن طبقات كتب الحديث وأصول النقد لايسعني إلا أن أقول: إنه لم يفهم أحدٌ ما وضعه الشاه ولي الله الدهلوي في كتابه حجة الله البالغة من أصول النقد وقواعد التطبيق فهمًا أحسنَ مما فهمه الإمام النانوتوي رحمه الله، فكان الإمام النانوتوي

يقول وبكل ثقة: إني أستطيع إثبات كل قول من أقوال الإمام الأعظم أبي حنيفة رحمه الله بالأحاديث الصحيحة؛ ولكن لستُ مسؤولا عن تخريجات الفقهاء، والمستفيدون من دروس الإمام النانوتوي يشهدون بأنه كان يشرح أقوال الإمام الأعظم أبي حنيفة رحمه الله شرحًا يجعلها توافق الأحاديث النبوية، ولا يجعل الأحاديث توافق أقوال أبي حنيفة ففيه سوء أدب؛ بل يجعل أقوال الإمام الأعظم أبي حنيفة موافقةً للأحاديث النبوية" (الكاندهلوي: نور الحسن راشد، قاسم العلوم الإمام محمد قاسم النانوتوي أحواله وآثاره، ص٦٣٣).

وعلى كلٍّ فهو موضوع طويل متشعب الأطراف، مما لاتسعه هذه السطور القليلة، والحاصل أن كثيرا من الأوساط العلمية كانت تطالب بوضع دراسة علمية مبسوطة حول هذا الموضوع، فجاءت ولله الحمد بشكلٍ، أرجو أن تكون إضافةً قيمةً في الذخائر العلمية للمكتبة الإسلامية.

ومن المبادئ المقررة المتفق عليها أن التعريف بشخصية ومعرفة أفكارها وخدماتها يحتاج أساسا إلى استعراض كل ما يتصل به من ظروفٍ عاشها وأسرةٍ وُلد وترعرع فيها وقريةٍ سكنها ومؤسسةٍ علميةٍ تعلَّم فيها، فإن هذه الأمور لها يَدٌ لاتُنْسى في تكوين الأفكار وبناء الشخصيات، والشيءُ السارُّ أن الباحث العزيز محمد نوشاد النوري القاسمي قد تيسَّر له الاطلاع على هذه الأمور، فبإيعازٍ من الدكتور محمد شكيب القاسمي مدير مجمع حجة الإسلام النشيط ونائب رئيس الجامعة الإسلامية دار العلوم وقف ديوبند قد أنجز هذه العلميةَ الأستاذ الشاب الفاضل محمد نوشاد النوري القاسمي، وبذل فيها جهودًا جبارةً، حتى أخرجها على أحسنِ وجهٍ كما كان حق الموضوع، فقد أودع الكتابَ

مباحث شريفة لازمة، مما يعطي القارئَ بإيجازٍ فكرةً شاملةً عن الموضوع، وهذه زينةُ الدراسة العلمية، وهذا يدل على أن الله سبحانه رزق الأخ العزيز قسطًا وافرًا من العلم والبصيرة العلمية، وبشأن هذين الشابَّين أذكر ماقاله المفكر الإسلامي الكبير الشيخ أبو الحسن علي الندوي رحمه الله مدير ندوة العلماء سابقا، وهو "أنه في عصر الانحطاط الفكري هذا إن حظِيتْ مؤسسةٌ بعضوٍ نشيطٍ أمينٍ مخلصٍ، رحبِ الصدر، واسعِ الفكر فأرى أنه دليل على أن رحمة الله قد مدَّت ظلالَهَا على هذه المؤسسة"، وأقول: إن إنجازات مجمع حجة الإسلام في سنواته الست الماضية في مجالات البحث والتحقيق والتعليم والتربية والإدارة والبناء حجةٌ بينةٌ على صدق القول المذكور.

وأسأل اللهَ سبحانه أن يبارك في هذين الشابين وأعضاء المجمع الآخرين، ويزيدهم علمًا وعملًا، ويجعل هذا العمل مباركًا ينال الإعجابَ والتقديرَ والقبولَ في الأوساط العلمية. آمين يا رب العالمين.

تصدير

بقلم الدكتور محمد شكيب القاسمي[1]

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وأصحابه وجميع من اهتدوا بهديهم واقتفوا آثارهم إلى يوم الدين، وبعد!

فيُسعدني أن أقدم إلى قراء العربية في الهند وخارجها ثمرةً علميةً جديدةً من ثمار مجمع حجة الإسلام، ألا وهو كتاب "موقف الإمام النانوتوي من القضايا الخلافية بين السنة والشيعة: دراسة علمية".

إن هذا الكتاب يدرس موقف الإمام النانوتوي من الشيعة، ومنهجه في إصلاحها والرد على عقائدها، وسوف يقدر هذا الجهد حق قدره من يطلع على أوضاع تلك الحقبة التاريخية في الهند، التي عاشها الإمام النانوتوي رحمه الله وتجاوب معها، وواجه تحدياتها، وعمل فيها على تثبيت الصبغة الإسلامية في المجتمع الإسلامي فكرا وعملا.

فلا يخفى على البصراء والعلماء أن حجة الإسلام الإمام محمد قاسم النانوتوي كان من أفذاذ العلماء والمصلحين في التاريخ الإسلامي، ومن عمالیق الفكر والإصلاح والتجديد، فقد وقف حياته على الدفاع عن الدين الإسلامي، وتصدى لجميع الأفكار والحركات الهدامة التي تستهدف الكيان الإسلامي في الهند لاسيما بعد الاحتلال البريطاني للهند عام١٨٥٧م، فلم يكن جانب هام من

(١) مدير مجمع حجة الإسلام ونائب رئيس الجامعة الإسلامية دار العلوم وقف ديوبند، الهند.

جوانب الحياة الإسلامية من الفكر والتعليم والإصلاح والرد على كل من الحركة التنصيرية و الحركة الآرية والحركة الشيعية إلا وقد أبلى فيه الإمام بلاء حسنا، وترك بصمات غائرة على صفحات التاريخ، لاتبلى ولاتُمحىَ على مر الدهور.

والشيعة الإمامية وماسواها من الفرق الشيعية على ما تحويه من عقائد صريحة التعارض مع العقائد الإسلامية وجهالاتها وخزعبلاتها التي ليست من الدين الإسلامي في شيء كانت قد امتدت جذورها وتغلغلت آثارها في أحشاء المجتمع الإسلامي، وكان كثير من المسلمين السنة يمارسون آنذاك أعمالا وتقاليد شيعية، في غفلة عما تحمله من أضرار، فإصلاح المجتمع الإسلامي الذي أخذ الإمام على نفسه دعاه إلى تركيز العناية على هذا الجانب؛ لا لعاطفة الرد والإفحام؛ بل بعاطفة النصح والإرشاد، فقد ألف عددا من الكتب بأسلوب سهل محبَّب، يتناول الدين الشيعي بنقد وتمحيص، ويثبت ابتعاد هذا الدين عن الدين الإسلامي المنزل على رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم، ومعارضته لكل مقياس عقلي ومنطقي.

وكانت جهود الإمام في هذا الجانب مازالت مغمورة ومطمورة في بطون كتب الإمام والكتب التي ألفت حول سيرته ومآثره، وكانت الحاجة ماسة إلى دراسة علمية لهذه الجهود وما تتسم به من سمات وما تتميز به من خصائص، وما تتمتع به من قيمة علمية كبيرة، فأشكر لله سبحانه على أنه وفق الباحث الضليع في مجمع حجة الإسلام الأستاذ محمد نوشاد النوري القاسمي ليقوم بهذا العبء، وبذل فيه جهودا مشكورة؛ حتى أكمله على أحسن وجه وأتم حال.

فهذا الكتاب يتناول باختصار مسيرة الإمام النانوتوي العلمية والإصلاحية والتجديدية، ويبحث منهج الإمام في شرح الفكر الإسلامي ونقد الأفكار الباطلة وأسلوبه في التعامل مع الديانات الأخرى والفرق الإسلامية المنحرفة، ثم يركز العناية على الشيعة نشأتها وعقائدها وخطرها في الهند، وتصدي الإمام لها، وإثبات مكرها وخزعبلاتها وكونها بعيدة عن النقل والعقل في أسلوب علمي رصين.

وإني إذ أكتب هذه السطور أهنئ الأستاذ محمد نوشاد النوري القاسمي، وأثق بأن الأوساط العلمية في الهند وخارجها سوف ترحب بهذا الجهد المبارك، ونسأل الله سبحانه أن يتقبله وينفع به ويجعله خالصا لوجهه الكريم، ويوفق مجمع حجة الإسلام وباحثيه للسير المتواصل على درب البحث والتحقيق والغوص في بحار التراث العلمي لأكابرنا، واستخراج ما يزخر به التراث من درر ومرجان، وماذلك على الله بعزيز.

بين يدي الكتاب

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد!

فهذا جهد متواضع، يرمي إلى إبراز الجهود العلمية والإصلاحية التي بذلها الإمام حجة الإسلام محمد قاسم النانوتوي رحمه الله في إصلاح إخواننا الشيعة ليهتدوا ويرجعوا إلى الصواب.

إن الاختلاف السني – الشيعي ممتد الجذور في التاريخ الإسلامي، وقد كان هذا الاختلاف سببًا لنزاعات وصراعات كثيرة، مما عمَّق الخلاف ووسَّع الفجوة؛ ولكن الحكومات الإسلامية في غالب الأحوال استطاعت السيطرة على الوضع، وحاولت بناء مجتمع إسلامي على أسُس الحب والوئام، فكانوا يتعايشون معا، وفي ظل أخوَّة إسلامية مثالية مع ما بين الجماعتين من فرق هائل في العقائد والاتجاهات الفكرية، وهذا ضروري بالنسبة إلى الحياة الاجتماعية؛ ولكنه انعكس سلبيا على تقاليد وأعراف المسلمين السنة، فالمجتمع السني تأثر كثيرا بتقاليد ورسوم الشيعة؛ بل غرق من مفرق الرأس إلى أخمص القدم في لُوْثات التقاليد الشيعية من مجالس العزاء والمآتم وتقديس القبور والسجود لها وإقامة مهرجانات المآتم في العاشوراء، وغفلةٍ عن الفرائض والواجبات الإسلامية وفساد في العقيدة والأعمال وما إليها من الأمور التي لاصلة لها بالإسلام.

ولاشك أن الشيعة تُقَدِّمُ صورةً للدين الإسلامي، غريبةً كل الغرابة، غريبةً على الإسلام نفسه، غريبةً على الكتاب والسنة، غريبةً في العقائد والأعمال

والأخلاق، غريبةً في السلوك والتقاليد والأعراف، وهي صورةٌ مشوَّهةٌ لاتَمُتُّ إلى الإسلام بصلة؛ بل هي حرب على الإسلام وأبنائه، ومن هنا تأتي خطورة هذا الأمر، فذوبان المسلم السني في المجتمع الشيعي وممارسته للأعمال والمنكرات التي تؤمن بها الشيعة مما يجُرُّ وبالًا على المسلم السني في عقيدته ودينه، فكان لزامًا أن تُبذل جهودٌ مخلصة للتصدي لهذا الخطر العظيم، تهدف إلى إبراز الحق والتمييز بين الصحيح والفاسد، وقد بُذلت جهود عظيمة في هذه السبيل على مدار التاريخ الإسلامي، مما يصعب حصره.

ومن أعظم الجهود في مجال إصلاح الشيعة ما قام به الإمام محمد قاسم النانوتوي مؤسس الجامعة الإسلامية دار العلوم ديوبند ورائد الحركة التعلمية في شبه القارة الهندية، رحمه الله، فكان الإمام مطلعا على أحوال العباد والبلاد، والمداخل التي تنفذ منها الأفكار الهدامة، فدافع عن الإسلام الصحيح كل المدافعة، وقَلَّ من يعلم أن مجال إصلاح الشيعة وتفنيد مزاعمها الباطلة قد أخذ قسطاً كبيرًا من عناية الإمام، فقد أَلَّف في هذا الباب عددًا من الكتب القيمة، وكتابُه "هدية الشيعة" أضخم كتب الإمام على الإطلاق، وهو بمثابة موسوعة علمية، تحوي من الدلائل والبراهين ما من شأنه أن يقنع الجاحد ويُطَمْئِنَ المؤمن، ثم يتفنن الإمام في عرض الدلائلِ من برهانٍ إلى جدلٍ إلى خطابٍ؛ ولكن بعاطفة النصح والإخلاص، غاية ما يريده أن يصغي إلى كلامه إخواننا الشيعة، ثم يعيدوا النظر فيما يتبنونه من عقائد، ويختارونه من أعمال.

ولم يكتفِ الإمام بالكتابة؛ بل قام بزيارات وأجرى حوارات مع علماء الشيعة، وبيَّن لهم مواضع الزلل ومواطن الخلل في عقائدهم.

ثم لم يقف عند هذا الحد أيضا؛ بل قام فعلا بإصلاح العقائد والأعمال والأخلاق والقضاء على الممارسات الشيعية، التي كانت لها جولة وصولة في المجتمع السني آنذاك، فبفضل جهوده العلمية والعملية قد تطهَّر المجتمع السني مما لصق به من غبار البدع و المنكرات، وظل منهجه العلمي والعلمي خير نبراس، يهتدي به السائرون على درب الإصلاح والتربية والتجديد.

وكانت جهود الإمام في هذا الباب لجديرة بأن تُنقل إلى اللغات العالمية؛ وعلى رأسها اللغة العربية الحبيبة، التي هي لغة الإسلام والمسلمين، ولغة الترابط والتفاهم بين أبناء الإسلام في كل مكان، ومن هذا المنظور قد اتخذ الدكتور محمد شكيب القاسمي مدير مجمع حجة الإسلام النشيط قرارا حاسما، يتمثل في وضع كتاب باللغة العربية، يقوم باستعراض الجهود العظيمة التي بذلها الإمام في إصلاح الشيعة، ليتجلى بذلك دوره في هذا المجال، ويسترشد به العاملون المخلصون في هذا المجال، وقد أسند إليَّ هذا الأمر العظيم، ولاشك أنه لشرف عظيم؛ ولكنه في نفس الوقت مسؤولية عظيمة أيضا، فكان الموضوع أجلَّ من أن يقوم به رجلٌ مثلي، فبدأته باسم الله وتوفيقه؛ فإنه فاتحُ كل مشكلة ومذلِّل كل عقبة، حتى جاء هذا اليوم وأنا أقدم عصارة مجهودي منذ سنتين، فأحمد الله أولًا وآخرا، والذي بنعمته تتم الصالحات.

جاء الكتاب مشتملا على ثلاثة أبواب كالآتي:

١- الباب الأول: الإمام النانوتوي: عصره وحياته

٢- الباب الثاني: الشيعة نشأتها وعقائدها

٣- الباب الثالث: منهج الإمام في الرد على الشيعة

ولا يسعني إذن إلا أن أشكر أولا للشيخ الجليل محمد سفيان القاسمي حفظه الله ورعاه رئيس الجامعة الإسلامية دار العلوم وقف ديوبند على أنه قد كتب مقدمة قوية جدا، سلطت ضوءا كافيا على الموضوع ومنهج الإمام في الدفاع عن الدين وميزات هذا الكتاب؛ مما رفع قدر الكتاب وكاتبه، فجزاه الله خير الجزاء.

وأرفع كلمات الشكر والتقدير إلى الدكتور محمد شكيب القاسمي حفظه الله، الذي بفضل جهوده وإشرافه الدقيق يتطور المسير البحثي لمجمع حجة الإسلام، فإليه يرجع الفضل في جميع ما يقوم به المجمع من أعمال ترجمة أو تحقيق أو نشاطات تعليم وتدريب ومحاضرات أو إصدار مجلات في عديد من اللغات، تقبل الله منه هذه الجهود، وليس هذا الكتاب إلا ثمرة من ثمار عنايته؛ فقد زودني بكل ما أحتاج إليه في إعداد الكتاب من رأي ونصح ومصادر ووسائل وجوعلمي هادئ، وقد تفضل بكتابة كلمة قيمة، أبرزت أهمية الكتاب في العصر الحاضر، فجزاه الله خير الجزاء.

فها هي بضاعة علمية متواضعة، إن أصبت فيها فمن الله وحده، وأحمده على ذلك، وإن أخطأت فمني ومن الشيطان، وأعوذ بالله منه، وحسبي سلامة النية وحسن القصد، والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل، وإياه أسأل أن يجعله خالصا لوجهه الكريم، ويتقبله بفضله ورحمته، ويوفقني لما يحبه ويرضاه؛ فهو خير مأمول وأكرم مسؤول.

محمد نوشاد النوري القاسمي
باحث في قسم اللغة العربية بجامعة دلهي
ومساعد تحرير مجلة وحدة الأمة العربية المحكمة.
٢٥ /٠٦/ ٢٠٢٠م

الباب الأول

الإمام النانوتوي : عصره وحياته

الفصل الأول:

عصر الإمام النانوتوي رحمه الله

قد اتفق العقلاء على أهمية العصر والزمان وما يحدث فيه من أحداث وتقلبات وتأثيرها في عقلية الإنسان الذي يعاصره ويسايره، فلها أثر كبير في تشكيل العقليات وتوجيه النفوس، وكل محاولة كتابية عن شخص من الأشخاص بغض النظر عن الأحداث والتقلبات التي عاشها وتجاوب معها سترجع بفشل وإخفاق، ولاتأخذ قيمتها العلمية والفنية.

وصدق المفكر الإسلامي الكبير سيد أبو الحسن علي الحسيني الندوي: "وينبغي -ونحن في هذه الدراسة- ألا نغفل حقيقة ذات شأن، وهي أن العصر الذي يولد فيه الإنسان، والعالم الذي يعاصره، والمجتمع الإنساني الذي يعيش فيه، هو كالنهر الجاري، تتصل كل موجة فيه بالموجة الأخرى، و تتسق معها، فلايمكن لأجل ذلك أن يبقى بلد- مهما كان نائيا يعيش في عزلة عن سائر العالم- غير متأثر بالأحداث الخطيرة والثورات العظيمة والقوى المتحاربة والحركات المؤثرة القوية التي تجري في بلدان العالم الأخرى، لاسيما إذا كان مركز هذه الأحداث والوقائع والثورات والتطورات بلدا يشاركه في العقيدة والمذهب والمشرب، ويجاوره في المكان، ولذلك فلايجوز للمؤرخ البصير في هذه الدراسة التاريخية أن يقتصر على الهند فحسب، لاسيما البلدان المسلمة المجاورة، التي كانت بينها وبين الهند أواصر علمية ودينية وحضارية، وكانت تصل إليها لفحاتها الشديدة اللاذعة، ونفحاتها الرخية الناعمة على بعد الدار وطول المسافة"(١)

---

(١) الندوي، أبو الحسن علي، رجال الفكر والدعوة في الإسلام (دمشق: دار ابن كثير، ط٣، ١٤٢٨ه/ ٢٠٠٧م)، ج٢، ص٣٨٥-٣٨٦.

إن العصر الذي ولد فيه الإمام محمد قاسم النانوتوي رحمه الله هو من أخطر وأشد العصور التاريخية في الهند لاسيما بالنسبة إلى الإسلام والمسلمين في الهند؛ حيث كانت الحكومة الإسلامية القائمة منذ ثمانية قرون تلفظ نفسها الأخير، وتشرف على الانهيار، وكانت قوة الاستعمار البريطاني منشغلة ببسط نفوذها وإحكام سيطرتها على طول البلاد وعرضها؛ فشكَّلت حملاته الثقافية والدينية والاقتصادية والدينية خطراً شديدا على الكيان الإسلامي في الهند، فتعرض الدين والاقتصاد والحضارة الإسلامية والنفوس والأموال والأعراض لخطر داهم وظلم قائم.

الهند في القرن الثالث عشر الهجري:

وقبل أن نخوض في الباب الأول، لبيان ما يحتويه الباب من ولادة الإمام وطفولته وتعليمه، ينبغي لنا أن نلقي نظرةً عابرة على الأوضاع والظروف التي عاشها الإمام محمد قاسم النانوتوي رحمه الله، وقد بسط الكتاب والمؤرخون الكلام في أوضاع الهند السياسية والدينية في القرن الثالث عشر الهجري، وخلاصة ما جاء في كتب التاريخ ما يلي:

كانت الهند في القرن الثالث عشر للهجرة، قد وصلت إلى الحضيض بالانحطاط السياسي، والديني والخلقي، وقد تفرقت عصا المغول، وكانت هيبة المسلمين السياسية قد خرجت عن القلوب، ولم يكن لهم قائد يؤلف شملهم، ويوحِّد صفوفهم، فعمَّت الفتن والاضطرابات، وتوالت عليهم المحن التي كانت تضعفهم وتزيد وهنهم، وتؤلب عليهم أعداءهم.

ودخلت عادات قبيحة كثيرة في حضارتهم وثقافتهم، وكانو يتباهون ويعتزون بها، فكان شرب الخمر عادياً بسيطاً، لا يأنف منه المسلمون، وعمت الملاهي ونوادي الطرب والغناء والرقص، واصطبغ الناس من الأغنياء ورجال الطبقة المتوسطة حتى الفقراء بهذه الصبغة، وأصبحوا عُرضةً للفساد الخلقي، وعم الشرك والبدع في المسلمين فاتخذوا لهم شريعة خاصة لتقديس القبور والموتى، وحلَّ المشايخ ورجال الدين في قلوبهم محل كهنة النصارى واليهود، وبلغ تقديسهم لهم مبلغ تقديس المشركين العرب لأربابهم، ودخلت طقوس وعادات للهنادك والشيعية في حياة أهل السنة، وصارت جزءاً لا يتجزأ منها، وأصبحت السنة والشريعة درساً منسياً، وانصرف الناس عن الشعائر الإسلامية، وكاد العمل بالقرآن والحديث يبطل، وتضاءل الاهتمام والعناية بهما، وكره الناس زواج الأرامل وإشراك البنات في الإرث[1].

فالاقتباس الذي قدمناه لاستعراض أوضاع الهند الدينية والسياسية اتضحت منها الظروف التي كان يواجهها المسلمون، فالأوضاع كانت تقتضي إلى أن تقوم شخصية عظيمة، تستطيع أن تقاوم التحديات المتنوعة وتقود الأمة الإسلامية قيادة دينية فكرية، وتعيد ثقة الجيل المسلم بدينه وإيمانه، وكانت الحياة تتعطش إلى شخص أو جماعة تحوِّلها إلى المجرى الصحيح، وتستغل الثروة الدينية، والكفاءات العلمية استغلالاً صحيحاً، ونافعاً مثمراً، ويحيي روح الزوايا وعلم المدارس، وحرارة الأولى ونور الآخرة، ويعممها في سائر أنحاء البلاد، والذي

(١) انظر: المصدر السابق؛ والندوي، أبو الحسن، إذا هبت ريح الإيمان، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١٠، ١٩٨٥م)، ص٢٦-٣٠.

يضم في حضنه مثل الزوايا، ونماذج المدارس المتنقلة، فيكون على متن الفرس عالماً، وفي المحاريب مجاهداً يلهب جذوة الإيمان من جديد، ويعيد الحرارة إلى القلوب الفاترة مرة أخرى، وينفخ الروح في الجسد الميت، ويحيي الحرص على نيل علم الدين، والحمية الدينية من أدنى الأرض إلى أقصاها، ويصرف السليقة الطبيعية، والكفاءة الموهوبة للمسلمين إلى الاتجاه السليم ببصيرته وتشخيصه الصميم، فلا يستهين بشيء ولو كان مهيناً، وكل من يتصف بهذه الصفات السامية يُعَدُّ إماماً في "المعجم الإسلامي"، واحتل هذه المرتبة السامية في رجال منتصف القرن الثالث عشر بين مشاهير العلماء وكبار القادة حجة الإسلام الإمام محمد قاسم النانوتوي رحمه الله، الذي تشتمل هذه المقالة على نبذة من أحواله ومآثره القيمة لا سيما في مجال الرد على الشيعة الإمامية.

المبحث الأول: الوضع الاقتصادي:

إن الاستعمار الأجنبي لا ينشد الصلاح، ولا يروم الإصلاح، وإنما يرمي امتصاص الخيرات واستغلال الثروات في صالح الاستعمار وأهدافه، والاستعمار البريطاني خير نموذج للاستعمار الغاشم، الذي يعيث في الأرض فسادًا، فيزهق الأرواح، ويسلب الأملاك، ويصادر الأوقاف، ويغصب الأعراض، ويقضي على العلم ومدارسه، ويحصر الدينَ في نطاق ضيق كالقفص لاسيما الدين الإسلامي الذي من طبيعته التحرك والانطلاق والتحليق في سماء الآفاق.

وقد اجتمع المؤرخون على أن الاحتلال البريطاني سلب الناس أموالهم وأملاكهم، وتركهم فقراء عالة على غيرهم، يتكففون الناس، فتبدلت الأرض غير الأرض، وضاقت الأرض برُحبها وسعتها على المسلمين في الهند، فعاد

أمراء الأمس أفقر أفراد المجتمع، وشرفاءُ الأمس صاروا أراذلَ الناس، لم يبق لهم مصدر مالي، يقوي ظهرهم، ويشد أزرهم، فقام الاحتلال بنهب الثروات والمحصولات الزراعية، وتصرَّف فيها تصرفا عشوائيا، على حساب مصالح الشعب والدولة، يقول السير سيد أحمد خان – وهو معاصر الإمام النانوتوي رحمه الله ومن أشد الموالين للاحتلال: "لا يمكن لي أن أقدر مدى الغضب والقلق الذي يجيش في قلوب الشعب الهندي تجاه الاحتلال البريطاني، وكم يؤلمه -الشعب- أن كثيرا من الإقطاعات والعَرَصَات التي يملكها الناس منذ قرون سلبها الاحتلال بأدنى حيلة وأضعف حجة، فالشعب يرى أن الحكومة بدل أن تقف بجانب الشعب وتهتم بتطوير الجانب الاقتصادي قبضت على ممتلكاتنا وأموالنا التي ورثناها أبا عن جد، أو أَقْطَعَنَاها مَنْ سَبَقَ من السلاطين والأمراء، فأي خير نتوقع من هذه الحكومة الغاشمة"(١).

وقال أيضا: "لاتوجد في الهند قرية، لم تتأثر بالوضع المالي المتردي، فإن بيع المزايدات قد اشتمل من الفوضى والتصرفات العمياء على قدر كبير، مما قلب الاقتصاد الوطني ظهرا لبطن"(٢)

ويضيف قائلا: "إن صناعات أهل الحرفة والصناعة، والتجارة الوطنية قد لقيت كسادا عجيبا، وذلك بسبب رواج المصنوعات البريطانية وانتشار التجارة الأجنبية، فلم يبق حتى لصُنَّاع الإبرة والكبريت أهميةٌ في المجتمع الهندي، أما النُسَّاج والحياكون فقد ماتت حِرَفُهُمْ حتف أنفها"(٣)

---

(١) سير سيد أحمد خان، أسباب بغاوت هند(الهند: مطبع مفيد عام، ١٩٠٣م)، ص٢٦.

(٢) المصدر السابق، ص٢٨.

(٣) المصدر السابق، ص٣٦.

ويقول العالم المؤرخ الكبير الشيخ سيد محمد ميان الدهلوي: "الواقع أن ثورة١٨٥٧م لم تكن حركة في جسد الحكومة الزائلة؛ بل هي حركة انتحارية أمام أمة ذات غلبة وإقطاعات ونفوذ، وصدق الشاعرالأردي إذ قال ما معناه: "نحن متَّهمون بإبداء رأي وكلمة، ولا يجري ذكرهم، ولو قتلوا".

"هذا البحث طويل النفس، فكل جزء فيه يحمل قصة مؤلمة: انهيار الرواتب، وزيادة الضرائب، وبيع المزايدات بأسلوب ظالم، ورواج المعاملات الربوية، كل هذه الأمور تحمل في طيها كثيرا من قصص الألم والعجب"[1].

يكتب السير سيد أحمد خان بكل حماسة وغيرة: "الحاصل أن الدولة انهارت تماما، فعاد الأثرياء الكبار يبحثون عن بُلْغة ومُضغة، تقوم بها ظهورهم، ويشتد أزرهم"[2]

وقال المؤرخ الكبير شيخ محمد إكرام نقلا عن كتاب "Our Indian Musalmans" لصاحبه الدكتور هنتر:

"إذا أراد سياسي إحداث خوف وذعر في العامة فحسبه بيان ما حلَّ بالمسلمين في بنغال من كوارث وفظائع، فكانوا في زمان يسكنون القصور الفاخرة، ويملكون الخدم والخيول والمراكب الفارهة، وعادوا يموتون هم وأزواجهم وذرياتهم جوعا، لا يجدون عملا مِهَنِيًّا يشتغلون به، يسكنون المنازل المتهدمة، في حال تدعو إلى الأسى والترحم، ويتورطون يوميا في أوحال الديون والقروض، فكانوا يتحملون قوارص الكلم من قبل الدائنين، ويسددون

(١) سيد محمد ميان، علماء هند كا شاندار ماضي،(باكستان: جمعية ببليكيشنز، ط٦، ٢٠١٠م) ج٤، ص٢٧.

(٢) سيرسيد أحمد خان، أسباب بغاوت هند، ص٣٦.

الديون ببيع ما تبقّى لهم من منازل ومزارع، وكأنَّ هؤلاء المسلمين الأعزاء إلى فناء قريب وموت وشيك"[١].

يقول الباندت "جواهر لال نهرو" كبير زعماء الهند وأول رئيس الوزراء في الهند المستقلة في كتابه "اكتشاف الهند"[٢] وهو يتحدث عن الوضع الاقتصادي المتردي في عهد الاحتلال البريطاني: "حلت المجاعة بكل هولها وبشاعتها وكارثيَّتها التي تعجز الكلمات عن وصفها، كان الآلاف من الرجال والنساء والأطفال يموتون كل يوم في مالابار وبيجابور وأوريسا وخصوصا في مقاطعة البنغال الخصبة نتيجة نقص المواد الغذائية، كانوا يسقطون جثثا هامدة أمام قصور كالكوتا، وكانت جثثهم ممددة في الأكواخ الطينية لمئات القرى البنغالية ومنتشرة فوق طرق وحقول سائر أرياف المقاطعة، كان الناس يموتون في كل أرجاء العالم، ويقتل بعضهم بعضا في المعارك، وتلك ميتة سريعة، وغالبا ميتة شجاعة، ميتة من أجل قضية، نهاية مفاجئة لحياةٍ، عجزنا عن صوغها أو التحكم بها، لقد كان الموت هو سيد الموقف في كل مكان، أما هنا فلم يكن للموت أي غرض، أي منطق، أية ضرورة، إنه نتاج عجز الإنسان وقساوته الفظة، إنه من صنع الإنسان، إنه وحش رهيب زاحف ببطء، وما من عائق يعترض سبيله، الحياة تذوى وتنطفئ في الموت، والموت يحدق بعيون ذابلة في وجوه ذاوية فيها الحياة تتسكع مترنحة للحظات موجزة، وهكذا لم يكن ذكر الموت يعد من الأمور الصحيحة أو المناسبة...وأخيرا تم إعطاء شيء، تم تقديم

(١) شيخ محمد إكرام، موج كوثر،(باكستان: اداره ثقافت اسلامية لاهور، ط٢٢، ٢٠٠٣م) ص٧٥.

(٢) وهو ترجمة عربية لكتابه : The Discovery Of India.

بعض الغوث، ولكن مليونا ومليونين وثلاثة ملايين كانوا قد ماتوا، ما من أحد يعرف عدد الذين ماتوا جوعا، او ماتوا بسبب المرض خلال تلك الأشهر المثقلة بالرعب"[1]

المبحث الثاني: الوضع السياسي:

أما الوضع السياسي فحدث عن البحر ولا حرج، فقد كان المسلمون فقدوا حكمهم الممتد منذ ثمانية قرون، وبفقد هذه الحكومة فقدوا عزهم ومجدهم وشوكتهم؛ بل حُرِمُوا خصائص الحياة العزيزة، ومميزات أمة حية، صار أمرهم بيد حكومة أجنبية، تنصب العداء السافر للإسلام والمسلمين، ولا ترقب فيهم إلًّا ولا ذمة، وتضرب على كل وتر حساس في قلب الأمة الإسلامية، وتقضي على كل حيوية ونشاط، ومقومات الحياة الإسلامية، فماذا أكتب بشأن الوضع السياسي؟ والسياسة كلها قد انقلبت ظهرا لبطن، وتبدلت أرض الهند غير الأرض، فاكفهرَّ الجو، وساد الظلم والجور وعمَّ الذعر والفوضى والاضطراب، وسجَّل المؤرخون في هذا الصدد ما يتندّى به الجبين، وأقتبس من كلامهم السطور التالية:

يقول السير سيد أحمد خان في وضع العدل والإنصاف في ذلك العصر: "إضافةً إلى ماسبق من أنواع الظلم والجور فإن المسلمين سُدَّت على وجوههم أبوابُ المحاكم، وهذا أمر لايُحتمل"[2].

(١) جواهر لال نهرو، اكتشاف الهند، ترجمة: فاضل جكتر،(دمشق، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، ط١، ٢٠١١م)، ج١، ص١٤-١٥.

(٢) سير سيد، أسباب بغاوت هند، ص٤٠.

واستمع إلى الدكتور هنتر، وهو يتحدث عن التعصب وضيق النظر والظلم المتفاقم في ذلك الوقت: "يمكن مشاهدة الحظ العاثر للمسلمين في الدوائر الحكومية، التي لايمارس فيها الناس ضيق النظر والتعصب في غالب الأحوال، ففي سنة ١٨٦٩م آل أمر المسلمين إلى مايلي:

- لم يكن مسلم فيما بين ٣٦مهندسا مساعدا، بينما كان منهم ١٤هندوسيا.
- أما المرشحون فكان أربعة هندوس، وإنجليزيان، ولم يكن مسلم.
- أما المهندسون والمشرفون فكان فيهم ٢٤ هندوسيا ومسلم واحد.
- أما رؤساء الدوائر فمن الهندوس ٦٣، ومسلمان.
- وأقسام الحساب تشتمل على ٥٠ هندوسيا، وليس فيها مسلم.

هذا بالنسبة إلى الوظائف الحكومية، أما فهرست المحامين في المحكمة العليا فهو أمر مؤلم حقا، وكانت هذه الوظائف قبل هذا بيد المسلمين وحدهم، فكان المسلمون حتى عام ١٨٥١م في حالة اقتصادية حسنة؛ ولكن يدخل الآن رجال جدد، وتغير أمر الامتحانات، وقد حاز ٢٣٩هندوسيا ومسلم واحد رخصة المحاماة في الفترة بين ١٨٥٢م – ١٨٦٨م..."(١)

ويضيف الدكتور هنتر، وهو يشكو إحدى الصحف الصادرة عن كلكته: "وصار الأمر إلى أن الحكومة تعلن في دستورها فصل المسلمين عن الوظائف الحكومية، فقد صرح مفوض الشرطة منذ أيام بأن هذه الوظائف لا يليق بها إلا الهندوس"(٢)

(١) شيخ محمد إكرام، موج كوثر، ص٧٦.
(٢) المصدر السابق.

ولا شك أنه بعد الاستيلاء على الهند كلها استولى على الإنجليز غرور الحكم ونشوة السلطة، فأطلقوا الرصاصات على أهل البلد الذي احتلوه ونهبوه وغصبوه، فقام أحرار القوم يمنعونهم من السلب والنهب والاغتصاب، مطالبين إياهم بالعودة إلى جزرهم، وترك البلاد لأصحابها الشرعيين؛ ولكن الإنجليز بالغوا في إهانتهم وإذلالهم، حتى قال الشيخ عبد المنعم النمر :

"ويلاحظ أنهم بعد أن تمكنوا في الهند وفرضوا سيطرتهم عليها، وأخذوا في تنظيم شؤونها بقوانين يصدرونها، كان هدفهم تنظيم سيطرتهم ونهبهم، وإفقار أهل الهند وإذلالهم، وتحويل البلاد إلى بقرة حلوب لأهل بريطانيا لا لأهل الهنود، فالهنود في نظرهم أراذل متأخرون، لايصلحون لعمل، إلا أن يكون تافهًا وحقيرًا، وهم لا يعاشَرون، ولا يختلط بهم"[1].

المبحث الثالث : الوضع الديني والاجتماعي :

وليست حالة المسلمين الدينية والاجتماعية أقل ترديا وتدهورا من الحالات الأخرى، يقول السير سيد أحمد في هذا الصدد: "أَوَ لَا تعلم حكومتنا أن كل عزيز هندي كريم تقشعر جلوده وترتعد فرائصه خوفا من الحكام على النفوس والأعراض؟ وهل عاد خافيا أن موظفا شريفا يتلو المرسوم على أميره الإنجليزي، ويتحدث إليه باسطا يديه كالمستغفر، وقلبه يبكي وينتحب إزاء عبوس وجه الأمير وغلظة قلبه، وحدة مزاجه، وصور الشتائم والإهانات،

(١) النمر، عبد المنعم، تاريخ الإسلام في الهند،(القاهرة: دار المعهد الجديد للطباعة، ط١، ١٩٥٩م) ص٤٥٦.

متحسرا على حظه السيئ، ومتمنيا لو وجد لقمة عيش في غير هذا المستنقع، فجمعُ الأعشاب خير من هذه الوظيفة التي تنال من العزة والضمير والمشاعر.

فكل رعية في الهند تشكو سوء صنائع الحكومة، وقيامها بإهانة الشعب والنيل من كرامته ودوس عزه، فأكرمُ رجل هندي لا يحمل من العز والشرف ما يحظى به أحقر رجل إنجليزي"[1]

إن من دأب الاستعمار الحديث الذي غزا البلاد العربية والإسلامية أنه ما من بلد استولى عليه، وأحكم سيطرته فيه إلا وهو يريد أن يسلخ الشعوب المغلوبة على أمرها من دينها وثقافتها، ويكرِّه إليها ما نشأت عليه من مبادئ ومعتقدات، ويصوغها في بوتقة جديدة، لاتتلاءم وطبيعتها وثقافتها.

وكان الاستعمار الإنجليزي أشد الاستعمار وطأة، وأكثره مؤامرة وخبثا، وأحقده على الإسلام والمسلمين، فقد جاء الاستعمار البريطاني في الهند بأفكار غريبة، ونشرها بقوة بين الشعوب الهندية، مما زلزل الكيان الديني والخلقي والاجتماعي، وقد سجَّل التاريخ في هذا الصدد ما تقشعرُّ لهوله الأبدان، وأذكر منها بعض الأقوال من الكُتَّاب الغرب ليتضح الحق لذي عينين، وذلك بالتالي:

كتب "مستر ميكلم لوينس" أحد القضاة الإنجليز في مدراس في كتابه "السياسة الهندية": "نحن أذللنا الذوات من أهل الهند، ومسخنا قانون وراثتهم، وغيَّرنا قواعد الأعياد وعقود النكاح، وما عظَّمنا شعائر مذاهبهم، بل كنا نضحك منهم، ونجعل شعائرهم سخرية، وأخذنا أوقاف المساجد، وزورنا في الدفاتر،

(١) سير سيد أحمد خان، أسباب بغاوت هند، ص٤٢.

وأخذنا جميع ولاياتهم، وخربنا جميع البلاد بالسلب والنهب والقتل، وآذيناهم وفرضنا عليهم الضرائب الباهظة، وجعلنا أعزة أهل الهند أذلة يتيهون في الأرض"(١)

ويقول اللورد ميكالي في رسالته إلى الحاكم العام "لورد هستنجر" بصدد القوانين التي سَنُّوها في الهند:

"إننا نجبرهم على القَسَمَ حتى في صغائر الأمور، ولم يكونوا متعودين ذلك، وشرفاؤهم يعدون القسم شكا في شرفهم، وهذا عار عليهم، وفضلا عن ذلك فإنهم يعدون الحجاب أهم شيء، فلو دخل أحد بيتهم ورأى السيدات فإنه عار لا يغسل إلا بالدم، ومع ذلك فإن أهل بنغال وأوريسة وبهار كانوا أهدافا لهذه الغلطات، وقد اجتمع حول الإنجليز جماعة هم أسوأ أهل الهند من الحلافين الكذابين النهابين، في الوقت الذي قبضنا فيه على الشرفاء وملأنا بهم السجون، ثم دخلت الجنود الإنجليزية والموظفون بيوتهم، يفعلون بنسائهم ما يريدون، مع أننا رأينا الأشراف يقتلون على أبواب بيوتهم دفاعا عن حرماتهم، وأنهم لم يجزعوا من السلب والنهب الذي وقع من المراهتا مثلما جزعوا من فعل الإنجليز وهتكهم للأعراض"(٢)

وبسبب الممارسات الاستعمارية البشعة حدث انحطاط كبير في الدين والخلق والسلوك، وتغيَّر أهل الهند كثيرا، ونشأت منهم أجيال مخدَّرة بأفيون الاستعمار وتعاليمه الجديدة الوقحة، وصدق الشيخ عبد المنعم النمر عند ماقال: "وقد لاحظ المؤرخون أن أخلاق الهنود تغيرت وانحطَّت كثيرا نتيجة لعمل الشركة الإنجليزية في الهند، فإن أعمال الموظفين والجنود الإنجليز ومن التفَّ

(١) مستر ميكلم لوينس، السياسة الهندية، ص٧٦. نقلا عن كتاب تاريخ الإسلام في الهند، ص٣٨٣.
(٢) عبد المنعم النمر، تاريخ الإسلام في الهند، ص٣٨٣.

حولهم من أراذل الناس كانت ذات أثر سيئ في أخلاق الشعب، ثم كان الفقر الذي أصاب الكثرة من أهل الهند ذا أثر كذلك في تحويل أخلاقهم الحسنة إلى أخلاق وعادات سيئة، فبينما كانوا يحرصون على الصدق والأمانة حتى ليقول "جنرال سليمان" الذي وُكِّل إليه حفظ الأمن: "إنني رأيت كثيرا من قطاع الطرق يحرصون على الصدق ولو كان فيه هلاكهم، إذا بهم يتحولون في أخلاقهم إلى الكذب والسرقة والغش والخديعة، بحيث أصبح ذلك مظهرا عاما للناس، وذلك أثر لما ذكرته من قبل من أخلاق الموظفين الإنجليز ومن التف حولهم من أراذل الناس، ثم من الفقر الذي يضطر الناس إلى ارتكاب ذلك"(١)

المبحث الرابع: الوضع التعليمي:

ولقد صدق الأستاذ أنور الجندي رحمه الله في كتابه الإسلام والاستعمار عند ما كتب:

"ولقد ارتبط الاستعمار منذ اليوم الأول بقوتين أساسيتين، هما التبشير والاستشراق، وكان الهدف هو دعم الوجود الاستعماري بخلق عقلية موالية للغرب، منحرفة عن أصالة الإسلام الذي يعطيها دائما القدرة على المقاومة والجهاد والمواجهة.

"وقد عملت هذه القوى الفكرية على السيطرة على التعليم والثقافة والصحافة من أجل تزييف المفهوم الإسلامي وتخليصه وحجب أبعاده الحقيقية، يتصور أن الإسلام دين عبادة، ومن ثم فرض الاستعمار النظم السياسية والاقتصادية والقانونية الغربية على البلاد الإسلامية، ونحا منهجها الأصيل

(١) المصدر السابق، ص٣٨٤.

المستمد من القرآن الكريم، فرض عليها القانون الوضعي بدلا من الشريعة الإسلامية، وفرض عليه المصرف الربوي بدلا من نظام الاقتصاد الإسلامي وفرض عليها النظام الديمقراطي الليبرالي بديلا عن نظامها الشوري.

"ولقد كان حرص الاستعمار على أن يوقف نمو الإسلام ونمو اللغة العربية ويعارض القوة القادرة على مقاومته والحيلولة دون وحدة أجزاء هذه الأمة باعتبارها خطرا عليه والعمل الدائب على تمزيق الجبهات بالانقسام السياسي والعنصري والطائفي والقبلي وإدامة هذه الفرق حتى لا يلتقي المسلمون على وحدة جامعة.

"وكان أخطر ما حرص الاستعمار على تقليص نفوذ الإسلام فيه أفريقيا وجنوب شرق آسيا، وكانت للاستعمار الفرنسي والإنجليزي(في العالم العربي)، والإنجليزي في الهند، والهولندي في بلاد الملايو خطط أساسية عامة وأساليب مختلفة متنوعة.

"وكان الاستعمار البريطاني من أشد أنواع الاستعمار قسوة على الإسلام، وقد ركَّز الاستعمار على البلاد العربية أساسا بوصفها بلاد العربية والإسلام وعلى مصر خاصة بوصفها قلب العالم العربي، وقد بدأت خطط الاستعمار بالتجارة والاستيلاء على الموانئ والبواغير، ثم التغلغل في داخل البلاد والاستعانة بالأقليات في سبيل ضرب التجمعات الإسلامية والسيطرة على مراكز الحكم والتوجيه برجال، لهم ولاء للاستعمار عن طريق الدين أو عن طريق الفكر.

"ولقد كانت دعوى الاستعمار الغربي في احتلال العالم الإسلامي هي دعوى التمدين ونقل الشعوب المتنافرة إلى مجال الحرية، والواقع أن الدول

الاستعمارية لم تفد إلى العالم الإسلامي لتمدنه، بل لتستنزفه ولتستعبد أهله، ولقد كانت نظرة الاستعمار إلى العالم الإسلامي هي نظرتهم إلى عناصر أقل درجة من الجنس الأبيض حامل الحضارة، وكان يرى أن الشعوب الملونة ليست أهلا للحرية ولا للرفاهية.

"ولقد استطاعت الدول الاستعمارية بعد سيطرتها العسكرية على البلاد الإسلامية كلها أن تسيطر على مقدراتها الاقتصادية وكيانها السياسي، وأن تستدرجها في مجال القروض والمعونات وإقامة القواعد العسكرية وإثارة الاضطرابات الداخلية لإضعافها واستدامة سيطرتها عليها وتقلد بعض الدول الاستعمارية أفواجا من أهلها إلى البلاد المستعمرة، حيث طردوا الوطني صاحب الأرض وسيطروا عليها وجعلوا ذلك وسيلة لزعزعة المجتمعات وتغليب الأقليات الأجنبية على أصحاب الأرض الأصليين، وأنشأ الاستعمار أجيالا جديدة تدين له بالولاء، وتؤمن بعظمته وسلطانه، وتدعو قومها إلى التبعية واعتبار الاتجاه نحو الغرب، ونحو اللون الغربي المعين(فرنسيا كان أم انجيزيا) هو الأسلوب الوحيد للتقدم.

"يقول الفريد كاتثول سميث: "إن الغرب يوجِّه كل أسلحته الحربية العلمية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية إلى العالم الإسلامي بفرض إذلاله وتحقيره وإشعاره بالضآلة والخنوع، ولقد جرت محاولات استعمارية متصلة على مدى التاريخ لدعم النفوذ الأجنبي في العالم الإسلامي، منها تلك الخطة التي أعدها كامبل لبرمان الزعيم البريطاني الذي قام بتشكيل من بعض علماء التاريخ ورجال القانون والسياسة وطرح عليها القضية التالية:

"هل يمكن الحصول على أسباب أو وسائل تحول دون سقوط الاستعمار الأوربي وانهياره أو تؤخر مصيره المظلم بعد أن بلغ الآن الذروة وبعد أن أصبحت أوربا قارة قديمة استنفدت مواردها، وشاخت معاملها بينما العالم الآخر لا يزال في شبابه يتطلع إلى مزيد من العلم والتقدم.

"ولقد كانت خلاصة رأي العلماء هي: إيجاد عنصر غريب في المنطقة القائمة بين أفريقيا وآسيا، من شأنه أن يحول دون وحدة هذه المنطقة، ذلك أن أخوف ما يخافه الاستعمار هو انبعاث هذه الأمة عن الطريق الطبيعي لها وهو الوحدة الإسلامية.

"ولذلك شجعت الدول الاستعمارية القوى الغازية على السيطرة وفتحت الطريق أمام الصهيونية العالمية للسيطرة على فلسطين وأتاحت لها الفرصة بإعلان وعد بلفور.

"لذلك فإنها أفسحت المجال للغزو الثقافي الماركسي والغربي والصهيوني على السواء، حتى تقع البلاد الإسلامية في بلبلة فكرية وصراع اجتماعي يحول بينها وبين القدرة على مقاومة الاستعمار او التحرر من نفوذه"[1].

ولقد كان الأستاذ أنور الجندي صادقا في هذا التحليل، فالاستعمار الإنجليزي في الهند وظف كل الوسائل في تجفيف منابع العلم والثقافة، وتخريج شعبٍ يتوغل في الجهل والأمية، ويتخبط في تقاليد وأعراف، يرفضها العقل والثقافة، نعم، قد أقام الاحتلال مدارس، لاتخدم إلا مصالحه، فقد خرَّجت رجالا، كانوا أبواق الاحتلال، ووقود الفتنة والنزاع الداخلي، والسطور القادمة تكشف النقاب عن وجه الاحتلال الماكر.

(١) أنور الجندي، الإسلام والاستعمار(القاهرة: دار الأنصار،) ص ٥-٩.

المبحث الخامس: الخطر الداهم على الكيان الديني والثقافي:

إن أكبر ما كان المسلمون يواجهون في عصر الاستعمار الإنجليزي في الهند هو الخطر الشديد على الكيان الديني والثقافي، والمُثُلِ الاجتماعية الإسلامية السامية، فيقول السير سيدأحمد خان:

"مما لا مرية فيه أن كل إنسان - مثقف وأمي، عزيز وحقير - يعرف معرفة جيدة أن حكومتنا توَدُّ التدخل في التقاليد الدينية، وتجبر الأمم كلها على اعتناق الدين المسيحي وتقاليد بلادها(بريطانيا) بلا تفريق بين المسلمين والهندوس، وكان الجميع يعرفون أن الحكومة لاتُصْدر الأمرَ بتبديل الدين بشكل علني، وإنما تتخذ له مخططاتٍ خفية، تتمثل في القضاء على اللغة العربية واللغة السنسكريتية، وترك الناس جهلاء بدينهم، والدولة تتخبط في فقر وإفلاس، ونشر كتب الدين المسيحي، ومسائله وإيفاد المبشرين، وإطماع الناس في الوظائف الحكومية، فهي طرق تنتهي إلى انتشار الدين المسيحي...ومن عادات الوعظ في الهند أن الناس يجتمعون في معابدهم أو المنازل المخصَّصة للوعظ، فيشارك فيها من يشاء، وكان المبشرون والقسيسون اتخذوا منهجا جديدا غير هذا المنهج، فكانوا يذهبون إلى معابد الهندوس ومساجد المسلمين، ويعظون الناس في المعارض والمواسم، ولا يمنعهم أحد خوفا من الحكام، ومالوا في بعض المديريات إلى أن المبشرين لا يكتفون بذكر المعلومات المستفادة من الإنجيل؛ بل يجرؤون على هتك أعراض من خالفهم في الدين لا سيما المسلمين والنيل من الشخصيات الإسلامية والمراكز الإسلامية؛ مما يقرع أسماع السامعين ويقض مضاجعهم، وإذا تم تنفيذ مشروع إقامة الكتاتيب في الأرياف

والقرى عَلِمَ الجميع أنها حملة مخططة لتنصير الهنود، وكان إذا دخل وزير أو نائب المفتش قرية وتحدث أهل القرية عن ورود القسيس الأسود ظن الجميع أن الكتاتيب مدارس نصرانية، وحضر هؤلاء لإكمال الحملة التنصيرية...

"وفيما كانت هذه المساوئ تنشأ في قلوب الناس أرسل القسيس المدعو اي. ايدمند رسالة من مدينة كلكتا عاصمة الهند آنذاك إلى الشعب الهندي بصفة عامة والموظفين الرسميين بصفة خاصة، جاء فيها:

"قامت في الهند وحدة عجيبة، فاتحدت وسائل المواصلات، فاتحدت الأخبار عن طريق وسائل المواصلات الحديثة والبرقيات المتطورة، واتحد الذهاب والإياب بوسائل الحمل والنقل، فاشتدت حاجة إلى وحدة دينية، فيتأكد عليكم الانضمام إلى الدين المسيحي".

"وعن صدق أقول: إن الناس بعد ما اطلعوا على الرسالة الرسمية خافوا كثيرا على دينهم، حتى شخصت أبصارهم، وضاقت الأرض عليهم بما رحبت، وتأكدوا من أن الهند سيؤول أمرها قريبا إلى مصير مخيف، ويضطر الموظفون الرسميون أولا والشعب الهندي ثانيًا إلى اعتناق الدين المسيحي، وكانوا يعرفون جيدا أن الرسالة رسمية، والحكومة تخطط لذلك"[1]

الوضع الخطير والذعر المتفاقم:

فكان الناس بعد شهادة السيد أحمد البريلوي الشهيد(١٧٨٦م-١٨٣١م) والشاه اسماعيل الشهيد(١٧٧٩م- ١٨٣١م)[2] ورفقائهما في معركة

(١) سير سيد أحمد خان، أسباب بغاوت هند، ص ١٧-٢٣.

(٢) كانا من أعظم المصلحين والثائرين على الاحتلال الإنجليزي، كتب الله لهما الشهادة في معركة بالاكوت، وأكمل مسيرتهما خلفاؤُهما الأبطال، حتى نالت الهند حريتها، وكلُّ حركة

بالاكوت يعيشون حالة خطيرة من الذعر والقلق، والدولةُ كلها تتفجر رعبا وفزعا، والناس يرون الموت يرقص على رؤوسهم، وأعواد المشانق تنتظر نوبتهم، والزنزانات تتأهب لاستضافتهم، والتعذيب الذي لا يطاق هو نصيب كل نسمة هندية.

وصدق المؤرخ الشهير السيد محمد ميان الدهلوي عند ما قال: "لا يجوز القول بأن الناس غفلوا عن الإنجليز؛ ولكن مما يجوز أن أقول: إن الناس غفلوا عن نفوسهم ومستقبلهم؛ مما أدى إلى أنهم بعدما عرفوا الإنجليز ومخططاتهم الخطيرة لم يقوموا أو لم يستطيعوا القيام بما يجب عليهم من مسؤوليات، فإن الإعجاب بالنفس وغرور القوة وسطوة الحكومة –وهي من أعقد الأمراض النفسية التي إذا أصابت قوما أتت على مجدها وعظمتها، وشكلت سرطانا للحياة القومية، وعملت في نشر الفوضى والاضطراب- جعلت أرباب الحل والعقد تعمى أبصارهم، وتَصَمُّ أسماعهم وتختلُّ عقولهم، فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (سورة الحج: ٤٦).

والعجيب من أمر الإنسان أنه كلما اشتغل بعبادة نفسه غفل عن مصيره، إن مراكز الإعجاب بالنفس والأغراض التي أقيمت في ولاية دكن وبنغالة وأوده كانت تمتاز بأن أمراءها رغم إدراكهم لما يُكادُ لهم من مؤامرات ودسائس كانوا مضطرين إلى عدم الاستجابة لنداء الضمير وإخماد نار المشاعر، فإن الأغراض المادية التي عُجِنَتْ بها طينتُهم وأعمدةُ قصورهم كانت تقتضي موت

إصلاحية قامت بعدهما فهي في الواقع سلسلة مباركة من مسيرتهما وأثرٌ طيب لمحنتهما، جزاهما الله خير الجزاء، للتوسع انظر: الندوي، أبو الحسن، إذا هبت ريح الإيمان.

الضمائر وجمود المشاعر، وإلا فلم يعد لهذه القصور من حياة وبقاء، كما قال الشاعر الأسعدي: أتحمل وجعا ممضا يسري في كل شريان لئلا تزهق روحي، فلا أستطيع أن أكون متظلما إذا ظُلمتُ(١)

المبحث السادس: دور العلماء في هذه الظروف الحالكة:

ففي هذه الظروف الخطيرة والأوضاع المتأزمة للغاية كان علماء الإسلام الغيارى على الدين والحضارة والأخلاق الإسلامية هم الذين انتبهوا لهذه الفتنة العمياء وآثارها السيئة على الدين والدولة، فشحذوا غرار العزيمة، وشمروا عن ساق الجد، ولم يبالوا بشدة العواصف وقوة الطوفان؛ بل جاهدوا في سبيل استقلال الدولة والحفاظ على الدين، وجالدوا الاحتلال العاصي الطاغي، ونازلوه في ميدان المعارك، غير هيابين ولا وجلين، وغير مكترثين بأنفس ما يبذلونه في هذه السبيل.

وكان الإمام النانوتوي -رحمه الله- من علماء الصف الأول في هذا المجال؛ بل سبق الكثيرين من معاصريه وأقرانه في مجالات الدفاع عن الدين، فكان رجلا فذًّا، معدوم الكفؤ والنظير، وكان السير سيد أحمد مؤسس جامعة علي كراه الإسلامية زميله في الدرس، إلا أنه كان بين وجهات نظرهما ومنهجهما في الدفاع عن الدين والنهوض بالأمة الإسلامية في مجالات الدين والعلم ومواجهة التحديات المستجدة بون بعيد وفرق شاسع؛ لكنه كان السيد أحمد خان ينظر إلى الشيخ محمد قاسم النانوتوي رحمه الله نظرة احترام وتقدير ، فقد

(١) محمد ميان الدهلوي، علماء هند كا شاندار ماضي (الماضي المجيد لعلماء الهند)، ج٤، ص٥٥.

كتب في مجلته "تهذيب الأخلاق" إثر وفاة الإمام النانوتوي رحمه الله، وما أصدقه من كاتب:

"قد بكى الزمان كثيرا من الرجال، وسيبكي في الدهور القادمة، إلا أن البكاء على رجل لا يخلُفُه ولا يسُدُّ فراغَه أحدٌ أمرٌ مؤسف للغاية، ومثير للقلق الكثير...وكان الناس يظنون أنه لن يخلف أحدٌ الشيخَ محمد إسحاق الدهلوي في باهر فضائله وأنبل خصائله؛ ولكن الشيخ محمد قاسم أثبت بورعه وصلاحه وتقواه أن الله تعالى خلق بفضل تثقيف وتربية هذا الولي[الشيخ مملوك علي] رجلا يشابه الشيخ محمد إسحاق، بل يفضله في بعض النواحي.

فالناس كلهم يعترفون بأن الشيخ محمد قاسم كان رجلا فذا في الدنيا، فكانت مكانته العلمية في هذا العصر ربما تقل عن نطاق معلومات الشاه عبد العزيز الدهلوي رحمه الله؛ ولكن كانت تفوقه في سائر النواحي، أما ورعه وتقواه وزهده في الدنيا إن كانت لا تفوق الشيخ محمد إسحاق، فلم تكن أقل منه في كل حال(١).

يقول الشيخ عبد المنعم النمر وهو يتحدث عن مشاركة العلماء في المعارك الثورية:

"عند ما قامت الثورة شارك العلماء فيها مشاركة فعالة في كل ناحية، وحملوا السيف والبندقية مع إخوانهم، ولكن هناك موقعة يستحق أن نفرد لها مكانا خاصا، وهذه هي الموقعة التي دارت رحاها في هذه المدن التابعة لمديرية مظفرنغر شمال ميرت بين العلماء والإنجليز.

(١) محمد إكرام، موج كوثر، ص٣٩٧- ٣٩٨.

"وخلاصة هذه الثورة الباسلة أنها عندما قامت الثورة في دلهي كان تلامذة شاه ولي الله وأتباع السيد أحمد الشهيد المسترشدين بطريقته يفكرون في القيام بعمل إيجابي، وأتباع السيد أحمد الشهيد لم يكفوا عن الحرب والجهاد منذ استُشْهِدَ، فلا عجب أن ينتهزوا هذه الثورة العارمة ويخوضوا في غمارها.

"اجتمع من هؤلاء العلماء الصوفيين الكبار الحافظ ضامن والحاج إمداد الله ومولانا محمد قاسم النانوتوي ومولانا رشيد أحمد الكنكوهي وغيرهم، وكانوا محل اعتقاد من العامة، فتجمع المجاهدون حولهم من كل ناحية، وأتوا بأسلحتهم، وكانت كلها من الطراز القديم حتى البنادق، وكانوا يُعنون بالتدريب من قبل.

"بدأوا ثورتهم في تهانه بهون حيث استولوا عليها وعلى ماحولها، وأقاموا الحكم الإسلامي، وأخرجوا منها الحكام الانجليز، فلما وصلت هذه الأنباء إلى الإنجليز تحركوا من سهارنفور ومعهم مدافعهم، متجهين إلى بلدة شاملي، فقبض العلماء على أسلحتهم بحيلة عجيبة، واستولوا على بلدة شاملي بعد معركة حامية بينهم وبين الانجليز، استُشهد فيها الحافظ ضامن الشهيد، وبرغم استشهاده كان العلماء الثوار يواصلون كفاحهم ويطاردون الانجليز بالعصي والحجارة؛ ولكن بعد فترة جاءت الأخبار المؤسفة من دلهي، وحينها خمدت روح الحماس في المجاهدين، فلم يعد مفر أمامهم من إلقاء السلاح، والنجاة من أيدي أعدائهم الذين أخذوا يطاردونهم لينتقموا منهم، فهاجر مولانا الحاج إمداد الله إلى مكة، وقُبض على الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي، واختفى الإمام محمد قاسم النانوتوي حتى صدر قانون العفو العام فسلم من السجن، وهؤلاء

العلماء هم الذين اشتركوا في تأسيس الجامعة الإسلامية دار العلوم ديوبند، التي صارت أكبر معقل ديني وأعظم قلعة إسلامية منيعة في آسيا.(١)

وسيأتي ذكر جهود العلماء لاسيما الإمام محمد قاسم النانوتوي ضد الاستعمار في أحد الأبواب القادمة، وبذلك ثبت أن عصر الإمام محمد قاسم النانوتوي كان عصرا حافلا بالشدة والمشاكل، وقد بلغ تدهور الأوضاع الدينية والتعليمية والاقتصادية والسياسية غايته، وكان المسلمون غلبهم اليأس والقنوط، واستحكم فيهم الإحباط النفسي، وكادوا أن يستسلموا للوضع، ويصيروا إلى ما لا يُحْمَد عُقباه، وأوشكت البلاد الهندية أن تتحول إلى مستعمرات إنجليزية، لايتنفس فيها إلا من يتبعون الإنجليز دينا وفكرا وثقافة، وتكون أخبار المسلمين ذكرى وعبرة لولا أن من الله عليهم بالعلماء الغيارى والثوار الأحرار، الذين تماسكوا أمام الطوفان، وأحكموا التدبير للبقاء العزيز في الوطن، وقدموا نفوسهم نذورا رخيصة وبذلوا أقصى ما يمكن للحفاظ على الإسلام والمسلمين في الهند، حتى عادت إلى المسلمين روح جديدة، واطمأنت نفوسهم، وسكنت قلوبهم.

فلايمكن الإدراك التام لخدمات وعبقرية الإمام محمد قاسم النانوتوي رحمه الله إلا بعد الاطلاع المباشر على العصر الذي عاشه وتكيف معه، فأرجو أن السطور السابقة أفادت خطورة الوضع وشدة التحديات وأنواع البلايا والرزايا التي أحاطت بالدولة الهندية والأمة المسلمة في الهند عندما وُلد الإمام محمد قاسم النانوتوي رحمه الله.

(١) النمر، عبد المنعم، تاريخ الإسلام في الهند، ص٤٤٠-٤٤٣.

الفصل الثاني:

ترجمة الإمام محمد قاسم النانوتوي رحمه الله

لم تمض على معركة بالاكوت سنتان، والتي قادها الإمام أحمد بن عرفان الشهيد (١٧٨٦م- ١٨٣١م) والشاه اسماعيل الشهيد(١٧٧٩م- ١٨٣١م) وزملاؤهما بروح متوثبة وهاجة، وخرَّ الكثير من المجاهدين المغوارين شهداء في سبيل الله، بمن فيهم الإمامان الجليلان السيد أحمد بن عرفان الشهيد والشاه إسماعيل الشهيد، حتى خيَّم الحزن والذعر على الفلك الهندي، وهزت الأوضاع الخطيرة المسلمين هزة شديدة، فكانوا يخافون على نفوسهم وأعراضهم وأموالهم، ولا يدرون ماذا ياتي به الغد؟ فكانوا يبكون دماءًا لا دموعًا، وعاد الغيارى المخلصون منهم يفكرون في سبل الإبقاء على الكيان الإسلامي والمحافظة على القيم الإسلامية، فإن كل المؤشرات كانت تؤكد على أن الاحتلال الاستعماري جاء نذير دمار، ومُؤْذِنَ شر وفساد، وأن أمر المسلمين إلى ضياع، والآثار الإسلامية إلى زوال وفناء؛ ولكن القدر الإلهي كان بالمرصاد، كأن الهاتف الغيبي صاح بأعلى صوتٍ، بلغ كل قلب وقرع كل مسمع: لاتحزنوا أيها المسلمون! فإن كانت الفتن والمحن قد أحاطت بكم فلا داعي لليأس والقنوط، فإن دماء الشهداء القانية لا تضيع سُدى؛ بل تأتي بنتائج خصبة وعواقب سارَّة، وإن هذه التضحيات المبعثَرة في أرجاء الهند كلها ستهُزُّ الوجدان، وتملأ القلوب حرارةً، وتحوِّلها شعلةً وهاجةً، وتبعث فيها عزيمة تدُكُّ الجبال، وتعصِفُ بمكائد الأعداء، وتؤلف طائفةً صالحةً من المجاهدين المقدامين الأبطال، الذين يتفاونون في سبيل الدين والدولة، ويَفِدُوْنَ بهما أرواحهم ومُهَجَهُم.

وقد تجسَّد هذا النداء واقعًا ماثلًا للعيان، إذ وُلد في قرية نانوتة في ضواحي مدينة سهارنفور ابنٌ أغرُّ في بيت كريم اشتهر في العلم والأدب، وهو الإمام محمد قاسم النانوتوي رحمه الله، وكانت ملامح وجهه تشير إلى أنه سيكون له شأن كبير، وسيبرز حجةَ الله في الأرض، وقاسم العلوم والمعارف، وسيكون أمةً وحده في نشر العلوم الإسلامية ومحو الأمية والجهالة والبدع والمنكرات، وستكون حياته كلها ثورةً في عالم السياسة، ثورةً في عالم الدراسة، ثورةً في عالم الإصلاح والتجديد.

ولادة الإمام تعني طلوع فجر جديد:

كان الإمام النانوتوي شخصية فذة وعبقرياً لا يُشق له غبار، فقد ولد في عصر يسود فيه الهندَ الاضطرابُ والفوضى -كما سبق-، وكان المسلمون بصفة خاصة مشلولي الأعضاء، مغلولي الأيادي، فقد سُلب ملكهم المجيد الممتد لثمانية قرون، وكانت شركة الهند الشرقية الإنجليزية أفسدت الهند، وطغت في البلاد، فسامت أهلَها وسكانها الأصلاء سوء العذاب.

ومن الناحية الأخرى فقد انطلقت الحركات المعادية للاسلام بخطى حثيثة لتبتلع الأمة الإسلامية الضعيفة كلقمةٍ سائغة، وتُضِلَّها عن طريقها، وتقنصها في ماء عكر.

فكانت حملات هذه الجهات المعادية للإسلام دقيقة التنظيم، شديدة المؤامرات، متينة الأسلوب، متمثلة في الحركات النصرانية والهندوسية.

ففي هذه الظروف الخطيرة والأوضاع السوداء الحالكة التي أشرتُ إليها في السطور السابقة كان الإمام النانوتوي على رأس العلماء الثوار الأحرار، الذين

صمدوا أمام التحديات، وثبتوا أمام المخاوف والمخاطر ثبوتَ الجبال الراسيات، فوقف بجانب المسلمين المغلوبين على أمرهم، وحَمَى عقائدهم وثقافتهم من الضياع، وزرع في قلوبهم الثقة بالنفس والاعتداد بالذات، وفتح جبهة قوية للدفاع عن الإسلام والذود عن ذماره، وتصدى لكل المؤامرات والدسائس التي تستهدف الكيان الإسلامي، موظِّفًا كل المؤهلات والاستعدادات في سبيل خدمة الدين الحنيف، وقضى على الحركات الهدَّامة، وحالَ دون تنفيذ نواياها الخبيثة، واستطاع بفضل الله تعالى وبما حباه من علم عميق وهمة قوية وذكاء نادر إلى ورع وتقى وسذاجة وأخلاق فاضلة أن يغير مجرى التاريخ، ويجعل مجهودات الأعداء الحاقدين على الإسلام تبوء بفشل ذريع وإخفاق سريع، فقد قام الإمام وحده بجهود شاملة لا يستطيع أن تقوم بها إلا عصبة قوية وطائفة كبيرة، حيث قام بإصلاح ماسرى في المجتمع الإسلامي من بدع ومنكرات ومحدثات في الدين، وأعطى بعلمه وعمله ومكارم أخلاقه صورةً صادقةً للإسلام الصحيح، وأقام دارالعلوم ديوبند أكبرَ جامعة إسلامية لتكون منارة العلم والهدى، تهدي الضال، وترشد الحيران، وتعلِّم الجاهل، وتنشئ الأجيال وتصنع منها الأبطال.

فمثل هذه الشخصيات العظيمة لا يطرأ عليها زوال، ولا يُنكر لها دورها البارز في خدمة الإسلام والمسلمين؛ بل يحفظ لها التاريخ مآثرها الغر ويفتخر بها.

وطنه:

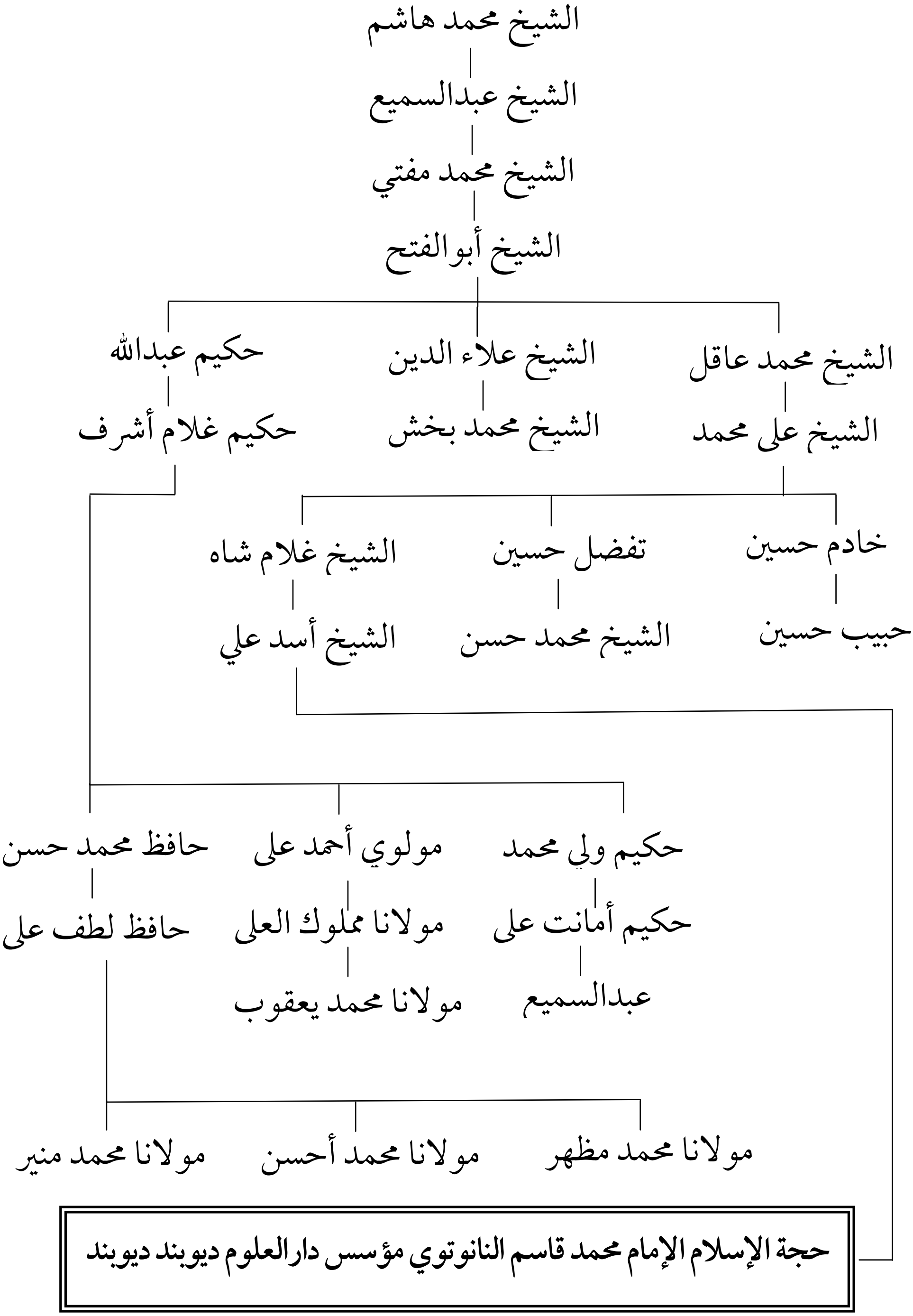
كان وطن الإمام هي قرية نانوته، التي تقع بالجانب الشمالي لدهلي عاصمة الهند على بعد نحو ١٥٠ كيلومترا، ويقع في غربها قرية كنكوه على بعد ١٨

كيلومترا، وفي جنوبها مدينة سهارنفور على بعد ٣٢ كيلو مترا، وفي شرقها مدينة ديوبند على بعد ٢٤كيلومترا.

فقرية نانوتة قرية صغيرة، إلا أنها كانت قرية عامرة بالعلم والفضل والرشد والصلاح، فكانت يسكنها كبار العلماء ويتردد إليها مشاهير العلماء والفضلاء، فقد وردها الإمام المجاهد أحمد بن عرفان الشهيد(١٧٨٦م-١٨٣١م) في جولاته الإصلاحية والتجديدية، التي شملت مدن وقرى ولاية يوبي وماجاورها من المدن والأرياف، أما الإمام الحاج إمداد الله المهاجر إلى مكة فكان وطنه الأصيل هي قرية تهانه بهون إلا أنه كان يرد كثيراً قرية نانوته، وذلك لما له فيها من قرابة قريبة وأقارب وأعزة. فكانت أخته قد تم زواجها في قرية نانوته.

فهذه العوامل كلها أثرت في جوالقرية وحوَّلتها إلى قرية ذات رشد وصلاح وعزيمة وكفاح.

إن أسرة الإمام أسرة علمية كريمة، ينتهي نسبها إلى سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه خليفة رسول الله- صلى الله عليه وسلم- وصاحبه في الغار، بواسطة ٤٤ واسطة، فهو صديقي النسب، وقد كان جده الأسبق الوارد في الهند هو الشيخ العلامة محمد هاشم الذي هاجر من بلخ إلى الهند في عهد الملك المغولي السلطان شاه جهان(١٥٩٢م- ١٦٦٦م) وتوطَّن قصبة نانوتة بمدينة سهارنفور. ومن الممكن أن نذكر مشجرة الإمام النانوتوي، وهي كما يأتي.


الشيخ محمد هاشم
الشيخ عبدالسميع
الشيخ محمد مفتي
الشيخ أبوالفتح
الشيخ محمد عاقل
الشيخ علاء الدين
حكيم عبدالله
الشيخ على محمد
الشيخ محمد بخش
حكيم غلام أشرف
خادم حسين
تفضل حسين
الشيخ غلام شاه
حبيب حسين
الشيخ محمد حسن
الشيخ أسد علي
حكيم ولي محمد
مولوي أحمد على
حافظ محمد حسن
حكيم أمانت على
مولانا مملوك العلى
حافظ لطف على
عبدالسميع
مولانا محمد يعقوب
مولانا محمد مظهر
مولانا محمد أحسن
مولانا محمد منير
حجة الإسلام الإمام محمد قاسم النانوتوي مؤسس دارالعلوم ديوبند ديوبند

المبحث الأول: ولادته وأسرته:

ففي هذه القرية العريقة ولد الإمام النانوتوي فى سلخ شهر شعبان أو رمضان المبارك عام ١٢٤٨هـ الموافق عام ١٨٣٣م، ـ، وكان اسمه التاريخي "خورشيد حسن".

وكان بيته -كما قلت- بيت علم وأدب، وبيت دين وخلق مستقيم، فكان أبوه الشيخ أسد علي الصديقي ينحدر من سلالة الشيخ العلامة محمد هاشم، الذي هو الجد الأول للأسرة الصديقية في قرية نانوتة.

ولم يكن أبوه عالماً دينياً، إلا أنه تثقَّف بعض العلوم الرائجة آنذاك، فكانت اللغة الفارسية هي اللغة الرسمية في الهند، ولها رواج وشيوع في الديار وكان منتهي دراسة اللغة الفارسية هو دراسة كتاب "شاهنامه" للفردوسي. (وهي الإلياذة الإسلامية باللغة الفارسية)، وقد درس أبوه شاهنامه؛ ممايدل على أنه كان مثقفا إلى مرحلة البكالوريوس"[1]

وقد فضّل الشيخ "أسد علي" الزراعة على الوظائف الحكومية، واتخذها وسيلة للمعاش.

وجاء في الكتب التاريخية أن الشيخ أسد علي أيضا سافر إلى دلهي لطلب العلم، إلا أنه لم توجد تفاصيل حياته العلمية[2]، وقد ذكر الشيخ مناظر أحسن الكيلاني(١٨٩٢م- ١٩٥٦م) أنه كانت له عقارات في قرية نانوته، يقوم بزرعها، ويستعين بها على كفالة الأسرة، وكان جد الإمام الشيخ غلام شاه، وكان له ثقافة

(١) الكيلاني، سيد مناظر أحسن، سوانح قاسمي، (الهند: مكتبة دار العلوم ديوبند، د.ط، د.ت)، ج١، ص١٢١.

(٢) أسير أدروي، الإمام محمد قاسم النانوتوي حياته ومآثره، (الهند: أكاديمية شيخ الهند، د.ت، د.ط)، ص٤١.

رسمية قليلة، إلا أنه اشتهر بزهده وورعه وتقواه، وكان معروفا كذلك بتأويل الأحلام[1].

أما أم الامام فهي بنت المحامي الشهير الشيخ وجيه الدين(المتوفى عام ١٢٦٠هـ)، اسمها "بي بي حبيبة"، وكانت امرأة صالحة، اشتهر أمرها بالإنفاق على الفقراء والمساكين وتربية الأبناء، وكان أبوها من أثرياء مدينة ديوبند، وقد اتخذ المحاماة مهنة، ويقول الشعر باللغة الفارسية، مع إلمام باللغة العربية، وكان محاميا خبيرا بأسرار القانون، شهيرًا بصدقه ووفاء وعده وحسن أخلاقه. ومن ثم كان يحتل عظمة في قلوب الناس[2]

الدراسة البدائية:

وقد تلقى الإمام الدراسة البدائية في قريته نانوته، ثم أكمل حفظ القرآن الكريم في مدة قصيرة وهي مدة سنة ونصف.

كما أنه اهتم كثيرًا بتحسين الخط، فكان كاتبًا جميل الكتابة، رشيق الرسم، وقد بذّ أقرانه في هذا الجانب.

وروده في ديوبند:

إن الإمام تلقى الدراسة البدائية للغة الفارسية في وطنه "نانوته" ولما بلغ التاسعة من عمره أُرسل إلى مدينة ديوبند، فمكث في بيت الشيخ كرامت حسين، الذي كان من أقاربه ومن كبار أثرياء ديوبند، وصار فيما بعد ختنًا للإمام النانوتوي،

(١) محمد أويس الصديقي النانوتوي، الإمام الأكبر محمد قاسم النانوتوي وجهوده في إعلاء كلمة الله(الهند: أكاديمية الإمام محمد قاسم النانوتوي، سهارنفور، ط١، ٢٠١١م)، ص٨١.

(٢) أسير أدروي، الإمام محمد قاسم النانوتوي حياته ومآثره، ص٤٢؛ عبارات اكابر، ص ١١٢

وكان بيته قصراً رائعًا، يسمى في ذلك الوقت بمحلة "ديوان"، وفي جانب من جوانب قصره كان الشيخ محمد مهتاب علي(المتوفى عام١٢٩٣هـ) يجلس للتدريس، ويتتلمذ عليه أطفال القرية وناشئوها، فانضم الإمام النانوتوي إلى هذا الموكب الثقافي المتواضع، وقرأ على الشيخ مهتاب علي كتبا عديدة؛ بما فيها ميزان الصرف، والمنشعب وما إليها.

وكانت المقررات الدراسية للغة الفارسية آنذاك تحتوي على أعوام وسنين؛ لكن الإمام أكملها بسرعة فائقة، ففرح الأستاذ بذكائه النادر، فكان يصفه أستاذه "معز العلم" مزاحًا(١).

إلي مدينة سهارنفور:

كان الإمام قد درس في ديوبند كتب الصف العربي الأول، ثم قرر أهلُ بيته إرساله إلى جده في مدينة سهارنفور، فرحل إليها وقرأ هناك على الأستاذ محمد نواز السهارنفوري "هداية النحو" وما إليها من الكتب العربية والفارسية الكثيرة. وقد مكث هناك عامًا واحدًا. وفي هذه المرحلة توفي جده لأمه، فعاد إلى قرية نانوته، وكان إذ ذاك ابن الثانية عشرة من عمره(٢).

الكلية العربية بدلهي:

وفي بداية عام ١٢٦٠هـ اصطحب الشيخ مملوك علي النانوتوي الإمامَ النانوتويَ إلى دلهي، وألحقه عام١٨٤٤م بالكلية العربية بدلهي مع ابنه الشيخ المحدث

(١) محمد أسعد التهانوي، مولانا محمد قاسم نانوتوي كي ديني وعلمي خدمات تحقيقي مطالعة (باكستان: قسم القرآن والسنة جامعة كراتشي، ٢٠٠٥م)، ص٣٢

(٢) الكيلاني، مناظر أحسن، سوانح قاسمي، ج١، ص٢٠٦

محمد يعقوب النانوتوي، وكانت هذه الكلية تسمى في البداية مدرسة الأمير غازي الدين خان، فهو الذي يتكفل بجميع نفقاتها، وكانت واقعة بالبوابة الأجميرية بدهلي. ولما استولت شركة الهند الشرقية على البلاد الهندية فغيرت اسمها إلى الكلية الدهلية(١) في عام ١٨٢٥م، وتملكت عليها.

وكانت هذه المدرسة تتضمن أقسامًا مستقلة للغة العربية واللغة الإنجليزية. وكان قسم اللغة العربية ينظم تدريس العلوم الاسلامية. فكان أثرياء المسلمين يحرصون على إلحاق أبنائهم بهذه المدرسة للدراسات الإسلامية العليا.

فقد تخرج في هذه الكلية كل من الإمام محمد قاسم النانوتوي والإمام رشيد أحمد الكنكوهي والسير سيد أحمد خان ومن إليهم من مشاهير الهند.

شهرة الإمام في أيام التحصيل:

إن الإمام قد رُزِق حظًا وافرًا من الذكاء والفراسة والكياسة، وقد ظهرت ملامح ذكائه في هذه الكلية؛ حيث جرى ذكر ذكائه وفراسته؛ حتى في مجالس الأساتذة.

يقول الشيخ محمد يعقوب علي النانوتوي رحمه الله في كتابه عن الإمام: "وحضرة الشيخ منذ نعومة أظفاره ذكي مفرط الذكاء، عالي الهمة، ماضي العزيمة وصارمها، جلد صبور، مقدام، نشيط، يفوق زملاءه في الكتاب، أسبقهم حفظًا للقرآن، وأجودهم خطا، وله شغف عجيب بإنشاد الأبيات، أنشأ بعض الألعاب ووضع بعض القصص، ونسخ عدة كتب"(٢)

---

(١) الكاندهلوي، نور الحسن راشد، قاسم العلوم حضرة مولانا محمد قاسم نانوتوي احوال وآثار باقيات ومتعلقات،(الهند: مكتبة نور، كاندهله، ط١، ٢٠٠٠م)ص١٨٢.

(٢) محمد يعقوب النانوتوي، سوانح عمري(الإمام محمد قاسم النانوتوي كما رأيته)، ترجمة: عارف جميل القاسمي، (الهند: أكاديمية شيخ الهند الجامعة الإسلامية دار العلوم ديوبند، ط١، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م)ص٤٨، بتغيير بسيط.

وقد سرد الشيخ مولانا محمد يعقوب النانوتوي رحمه الله في كتابه عددًا من القصص الرائعة عن الإمام، التي تدل على ما حبا الله هذا الإمامَ الجليل من ذكاء وفطنة وكياسة، وعاطفة قوية لتحصيل العلم، والصبر على شدائده، فأذكر بعضها هناك باختصار، وذاك بالتالي:

يقول الشيخ: "وظل حضرة الشيخ طالبا فائقا على زملائه، وكانوا يجتمعون –في تلك الأيام– في مسجد الشيخ "نوازش علي" بجوار بيتنا، فيتباحثون، ويتذاكرون، ويتناقشون، ولما جاء نوبة حضرة الشيخ بزَّهم، وعزهم في الخطاب، وظل يغلبهم في كل ما يجري من مباحثات ومحادثات علمية، ومن الطريف أن أحدنا إذا رأى نفسه ينهزم استنصره أو تقدم هو إليه يشد أزره، ثم مضى في دراسته لا يلوي على شيء، ولا يشق غباره أحد، درس أصعب الكتب في العلوم العقلية أمثال "مير زاهد" و"قاضي مبارك" "وشمس بازغة"، وضبطها ضبطا يشبه ضبط حافظٍ للقرآن الكريم، وأحيانا يقرأ عباراتها ويمر عليها مر الكرام دون حاجة إلى ترجمته، وذات يوم سأل الطلبةُ الشيخ مملوك علي النانوتوي: هذا الطالب محمد قاسم النانوتوي هل يفقه ما يتلوه من نصوص الكتب؟ فإنه لايترجم النصوص إلى اللغة الأم، ولا يقف وقفة تأمل؛ مما يجعلنا لانكاد نفقه شيئا من النصوص وما فيها من معان، فأجاب الأستاذ عن هذه الشكوى قائلا: لايمكن لطالب أن يمر مر السحاب أمامي بدون تفقه تام للنصوص[1].

ومن ذكائه النادر أنه أتقن العلم الرياضي في مدة يسيرة، مما بعث أساتذته على الحيرة والعجب، يقول الشيخ محمد يعقوب النانوتوي: وألحق والدي حضرة الإمام بالمدرسة العربية الرسمية، وقال لمدرس العلم الرياضي: لا

(١) المصدر السابق، ص٥٤.

يهمك من شأن الطالب فإليَّ تعليمه وإعداده، وقال لحضرة الإمام: عليك بالأقليدس وقواعد الحساب، تمرن عليها أياما حتى تضبطها، فلم تمض أيام حتى ذاع أن حضرة الشيخ قد أنهى مقالات يسيرة، وانتهي من الحساب، وذلك مما بعث الناس على العجب البالغ، فسأله الطلاب، ولم يكن حضرة الشيخ خالي الوطاب صفر اليدين، فرد عليهم ردا بليغا، نمَّ عن مقدرته في الفن"(١)

وذكر الشيخ محمد يعقوب النانوتوي رحمه الله قصة أخرى رائعة، تدل على ذكاءه وقوة ذاكرته، يقول الشيخ: وقدَّم إليه الشيخ الكاتب ذكاء الله بأسئلة بلغت من الصعوبة بمكان، أصدرها بعض الأساتذة الجدد، فرد عليها حضرة الشيخ ردا كافيا زاد من صيته، وهذا شأنه في الحساب"(٢)

إكمال دراسة العلوم المتداولة:

وقد تلقَّى الإمام النانوتوي من الشيخ مملوك علي النانوتوي دراسة العلوم المتداولة كلها؛ بيد أنه استفاد في بعض الكتب من أساتذة دلهي وعلمائها الآخرين؛ بمن فيهم الشيخ المفتي صدر الدين آزردة،(١٧٨٩-١٨٦٨م) الذي هو من أجلِّ تلامذة العلامة الشاه عبد العزيز رحمه الله ومن المنتسبين إلى أسرته العلمية والمشيدين بجهودها الإصلاحية والتجديدية في الهند.

انفصاله من الكلية العربية:

كان الإمام النانوتوي رحمه الله قد قرأ على الشيخ مملوك علي النانوتوي كتب العلوم الفنون في بيته؛ ولكن مازال منضمًا إلى الكلية بشكل رسمي؛ إلا أنه لم يشارك في الامتحان الأخير (final Exam)؛ مما أثار حيرة الجميع فإن الجميع

(١) المصدر السابق، ص٥٤.

(٢) المصدر السابق، ص٥٤-٥٥.

يعلمون أنه سيحتل المركز الأول؛ ولكن الإمام النانوتوي رحمه الله كان يقول: قد وقاني الله فضيحة الحصول على شهادة الكلية التي يديرها الاحتلال الإنجليزي".

يقول الشيخ محمد يعقوب النانوتوي: "وأظلَّت أيام الامتحان في المدرسة، فغاب عنها، ولم يحضر الامتحان، وانفصل عن المدرسة نهائيا، فأسف على ذلك المسؤولون عن المدرسة بمن فيهم رئيس هيئة التدريس، فقد كان يتولى منصب مدرس المرتبة الأولى أحد الإنجليز آنذاك"[١]

دراسة الحديث النبوي الشريف:

بعد ما أتم الإمام دراسة العلوم المتداولة ذهب هو وزميله الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي إلى الإمام المحدث الشاه عبد الغني المجددي(١٨٢٠م- ١٨٧٩م) ابن الشيخ أبي سعيد المجددي، وتلقى منه علم الحديث روايةً ودرايةً، وقرأ عليه الصحاح الست الا سنن أبي داؤد، أما سنن أبي داؤد فقد قرأها على الشيخ المحدث أحمد علي السهارنفوري تلميذ الإمام المحدث الشاه محمد إسحاق الدهلوي رحمهم الله[٢].

فإسناد الإمام يرتفع عن طريق الشاه عبد الغني المجددي وعن طريق المحدث أحمد علي السهارنفوري، أما الإسناد الأول فهو يروي عن الشاه عبد الغني المجددي وهو عن والده الشاه أبي سعيد المجددي الدهلوي عن الشاه محمد إسحاق المحدث الدهلوي عن الشاه عبد العزيز المحدث الدهلوي عن الشاه ولي الله الدهلوي، وإسناده معروف.

---

(١) المصدر السابق، ص٥٥.

(٢) سر سيد أحمد خان، آثار الصناديد(الهند: اردو اكاديمي دلهي، د.ط، ٢٠١١م) ص ١٧

أما الإسناد الثاني فهو يروي عن الشيخ المحدث أحمد علي السهارنفوري عن الشاه محمد إسحاق الدهلوي عن الشاه عبد العزيز الدهلوي عن الشاه ولي الله الدهلوي.

التزكية والإحسان:

كان الإمام النانوتوي عالماً ربانيا، وكان له اهتمام بالغ بالجانب الروحي منذ الحداثة، فاتصل بالشيخ العالم الرباني الحاج إمداد الله المهاجر المكي واستفاد منه في التحلي بالأخلاق الفاضلة ومراقبة الله تعالى في كل حال.

قد بايع الإمامُ الشيخَ الحاج إمداد الله واستفاد منه روحيا بشكل رسمي بعد تخرجه في الدراسة إلا أن الإمام النانوتوي والشيخ محمد يعقوب النانوتوي كانا يعرفان الشيخ إمداد الله ويأنسان به، وكان الشيخ أيضا يرفق ويلطف بهما، فكانت خؤولة الشيخ إمداد الله في أسرة الإمام النانوتوي، كما أن زواج أخت الشيخ إمداد الله قد انعقد مع رجل من رجال نانوته، وهذه العلاقة تدفع الشيخ إمداد الله إلى لقاءات وزيارات متكررة لبلدة نانوتة.

يقول الشيخ محمد يعقوب في كتابه حول الإمام: "قد تعلَّمتُ أنا والإمام النانوتوي صناعة تجليد الكتب من الشيخ إمداد الله في زمن الطفولة، فكنا نقوم بتجليد كتبنا بأيدينا، ثم مازالت علاقتنا بالإمام تتزايد حتى تمت علاقة روحية بيننا ثم استفدنا منه في التزكية والإحسان، وبلغنا غايته"[1].

أما المكانة الروحية التي حظي بها الإمام فحسبك ماكتبه الشيخ إمداد الله بدوره عن الإمام النانوتوي والإمام الكنكوهي في كتابه "ضياء القلوب"، حيث

---

(١) النانوتوي، محمد يعقوب، سوانح عمري (الإمام كمارأيته)، ص٤٩.

كتب الشيخ: "من يحب هذا الفقير ويسترشد به فعليه بحب المولوي رشيد أحمد الكنكوهي والمولوي محمد قاسم النانوتوي الذين جمعا الكمالات الظاهرية والباطنية، ويقومان مقامي؛ بل عليه أن يعتبرهما فوقي؛ فإن الأمر قد انعكس في الظاهر؛ حيث صارا تلميذين وأنا أستاذهما؛ ولكن الواقع على عكس ذلك، فيجب اغتنام صحبتهما ووجودهما؛ فإنهما من الأفذاذ الذين لايجود الزمان بأمثالهم إلا نادرا. كما يجب أن يتشرف بخدمتهما، ويتتلمذ عليهما في باب التزكية والإحسان، الذي كتبتُه في هذه الرسالة؛ فإن من قام بهذا أرجو أن يتقبله الله في الصالحين ويزيده في العمر والعلم، ويوفقه لتحصيل الكمالات العلمية والروحانية ويبلغه أعلى مراتب التقوى والسلوك، ويجعل العالم بنوره منوَّرا، ويجعل فيضه مستمرا"(١).

إن النظر في حياة الإمام يؤكد على أن الإنجازات العلمية والعملية والمآثر التجديدية والإصلاحية التي قدَّمها الإمام للدين والدولة نابعةٌ من إخلاصه وورعه وتقواه وتوكله على الله سبحانه وإنابته إليه وعاطفة خدمته للإسلام والمسلمين، التي كانت تجيش في صدره.

وما كانت الصفات العظيمة لتنشأ وتتمكن في نفسه لولا أن اتصل بالشيخ إمداد الله واستفاد منه، حيث جمع بين عبادة الرب وخدمة الخلق، وبين الجهود الإقدامية والإصلاحية، وقَبِلَ تحدياتٍ داخلية وخارجية، وصار علما شامخا لايُشَقُّ له غبار.

وإن المصادر التي تتحدث عن سيرة الإمام النانوتوي رحمه الله لاتذكر بالضبط أنه متى اتصل الإمام بالشيخ إمداد الله، ودخل في حلقة مسترشديه؛ ولكن صرَّح الشيخ إمداد الله في عددٍ من رسائله بأن الإمام النانوتوي قد نال

(١) نفيس الحسيني، الإمام النانوتوي كما يراه معاصروه [باللغة الأردية]،(لاهور: أكاديمية السيد أحمد الشهيد، ط١، ٢٠٠٣م) ص٥.

حظًّا وافرًا من الروحانية، وبلغ فيه مبلغا عظيما، لايُشَقُّ له غبار، ولا شك أن اتصال الإمام بالحاج إمداد الله المهاجر المكي جاء بخير كثير، وأحدث في نفسه ثورة عظيمة، حتى استطاع أن يمثل الدين الاسلامي بعمله قبل قوله، وبأدبه قبل علمه، ويكون نبراسا يُحتذى به لدى الأجيال المتلاحقة.

المبحث الثاني: البحث عن الوظيفة: مسار جديد من حياة الإمام:

في عام ١٢٦٥هـ الموافق ١٨٤٠م تخرَّج الإمام في الحديث على الشيخ الشاه عبد الغني المجددي الدهلوي، في حين كان عمره ١٧ عاما، فعاد إلى وطنه نانوتوته، وكانت تشغله فكرة المعاش.

إن أباه الشيخ أسد علي كان فلَّاحا بسيطا، يشتغل بالزراعة، ويودُّ أن يشتغل ابنه بوظيفة جيدة، تُدِرُّ له الخير وتحسِّن حالته الاقتصادية، إلا أن الإمام لا يريد لنفسه الاشتغال بوظيفةٍ، حيث صارت السذاجة طبيعته، والزهد في الدنيا ديدنه، فإن شيخه الحاج إمداد الله صنع منه رجلًا جديدًا، وصاغه في بوتقة الزهد والقناعة، وفتح بصيرته، حتى عاد يفكر للأمة وفي الأمة، وسَمَتْ نفسُه عن فكرة المعدة والبطن.

والسبب الرئيس أن الشيخ قد ارتقى في التصوف إلى حد جعله ينفِر من فكرة الوظيفة، وغيَّر حياته كل التغيير، فكان لايفكر في الطعام والشراب، ولا في الملبس والمسكن، وكان أبوه حائرًا، يغلبه الاضطراب والقلق على ما سيؤول إليه أمر ابنه الوحيد، فكان يرجو أن ابنه إذا عمل موظفا في مؤسسة انقلبت حياته من الشقاء إلى السعادة، ومن الضيق إلى السعة؛ حتى جاء الشيخ أسد علي والدُ الإمام إلى الشيخ الحاج إمداد الله المهاجر إلى مكة، وقال له: "أخي! إنه وحيد أولادي، وقد علقتُ به آمالا واسعة، وكنت أرجو أنه يكسب لي من المال ما يدفع فقري، ولا

أدري ماذا صنعتَ به حتى عاد لايرغب في وظيفة ومهنة، فتنفَّس الشيخ الصعداء، وضحك ضحكةً خفيفةً ثم قال: إنه سيكون له شأن، يجعل هؤلاء الموظفين الذين يتقاضون من الرواتب مئاتٍ ومئاتٍ يسعدون بخدمته، وسيحصد من الشهرة ما يستطير به ذكره ويعلو شأنه في كل مكان، ومالك تشكو الفقر وعدم رغبته في الوظيفة؟ فسيؤتيه الله بدون الوظيفة ما يفوق به هؤلاء الموظفين"[1].

وظل الإمام غارقًا في التفكير فيما يجري في الساحة الهندية من أنواع المؤامرات والمكائد والدسائس، وجاريًا على عادته في ترك الوظيفة، حتى زوَّجه أبوه لتدفعه مؤونة الزوجية إلى الانخراط في سلك الوظيفة، ولكنه بقي على عادته.

يقول الشيخ محمد يعقوب النانوتوي في هذا الشأن: "وعقد له والده النكاح ظنا منه أنه -كسائر أترابه- سيتولى خدمة من الخدمات، تدر عليه مالًا يعيش به، وينفقه عند ما تحيط به الهموم، فانقضت مدة مدية، ولم يصدق أمله فيه، فأصابه اليأس، وأقلقه كثيرا أن يراه خاملا لايكسب عيشا، بينما يرى أبناء إخوته قد تلقوا الدراسات ونالوا وظائف مرموقة، يسيل لها اللعاب، وتدر عليهم المئات(من الروبيات) والخمسينات(من الروبيات)، فينعمون بعيش رغيد، ويتقلبون في النعماء، فعيل صبره، وشكا ذلك إلي الحاج إمداد الله"[2]

وقد مر سابقًا ماذا قاله الحاج إمداد الله، وقد تحقق ما تنبأ به الشيخ الحاج، حيث بلغ الإمام في حياته من الشهرة والفضل والسعة ما لم ينله أترابه ومعاصروه، يقول الشيخ محمد يعقوب: وقد وسع الله على حضرة الشيخ، وأبوه "أسد علي"

(١) محمد يعقوب النانوتوي، سوانح عمري(سوانح الإمام): تعريب: محمد عارف جميل، ص٦٣.

(٢) محمد يعقوب النانوتوي، سوانح عمري، ص٦٣.

حي يُرزق، فقرَّ عينا، وطاب نفسا، ولقي ربه راضيا به وبولده، ورأى بأم عينيه صدق التنبؤات التي تنبأ بها الشيخ إمداد الله، فالرجل أدرى بأصحابه، وإنما يعرف ذا الفضل ذووه"(١).

وفي هذه الأيام بلغ الإمامَ أن أستاذه الشيخ المحدث أحمد علي السهارنفوري قد رجع إلى الهند، بعد ما قرأ على الشيخ الشاه محمد إسحاق الدهلوي الصحاح الست قراءةً شاملة، وأجازه الشاه بجميع أسانيده، وقد أقام الشيخ في دهلي دارًا للنشر والطباعة، هادفًا إلى نشر كتب الحديث في الديار الهندية بعد تعليقاتٍ وجيزةٍ نافعةٍ، حيث ماكانت كتب الحديث تُطبع في الهند آنذاك، وكان الشيخ المحدث محمد أحمد علي السهارنفوري قد قرأ الصحاح الست بعد نسخها بخطه.

فرحل الإمام النانوتوي إلى أستاذه الشيخ المحدث محمد أحمد علي السهارنفوري، واشتغل الإمام في مطبعته مصححًا للمطبوعات والإصدارات.

التعليق على صحيح البخاري: مأثرة عظيمة خالدة في التاريخ:

ولما أراد الشيخ محمد أحمد علي طباعة صحيح البخاري رأى أن يقوم بتعليق عليه يُسَهِّلُ الاستفادةَ من الصحيح، فكتب تعليقًا قيمًا على صحيح البخاري، هو في الواقع عصارة عشرات الكتب وشروح البخاري، حتى بلغ الجزء الخامس والعشرين، ثم تراكمت عليه أشغال كثيرة حالت دون إكمال التعليق، فأسند هذه العملية الجليلة إلى الإمام النانوتوي، فأكمل التعليق على الأجزاء الخمسة الأخيرة، سيرًا على منهج أستاذه في التعليق والبيان.

(١) المصدر نفسه، ص٦٣-٦٤.

عند ما بدأ الإمام التعليق على صحيح البخاري لم يجاوز عمره العقد الثاني، فأنكر بعض العلماء تفويض مثل هذه العملية الجليلة إلي شاب غض الإهاب، فأقنعهم الشيخ المحدث أحمد علي قائلا: لستُ بالذي يجهل قيمة الرجال، وخطورة العمل؛ حتى أفوِّضه إلى رجل لايحسنه، فأكمل الإمامُ هذه العملية على أحسن وجه وأتم حال.

يقول الشيخ محمد يعقوب النانوتوي في هذا الصدد: "وفي هذه الأيام فوض إليه الشيخ أحمد علي السهارنفوري تعليق وتحقيق الأجزاء المتبقية- الخمسة أو الستة- لصحيح البخاري، فقام به حضرة الشيخ خير قيام، يسر القراء، ويبعث على الإعجاب به، والتقدير له، وأنى لأحد أن يعمل عمله، وخفي على أناسٍ مقدرتُه العلمية، فأفضوا مخاوفهم إلى الشيخ أحمد علي قائلين له: ما بالك جعلت هذا العمل الجليل إلى رجل شاب قليل المراس؟ فرد عليهم الشيخ أحمد علي قائلا: لست بهذه المثابة من السفاهة، فآتي أمرا دون بصيرة منه، وأراهم تعليقات أعدها حضرة الشيخ، فإن تلك المواضيع من صحيح البخاري تعد أصعبها وأدقها، وخاصة تائِيدِ مذهب الأحناف، الأمر الذي تقيد به الشيخ أحمد علي، حين بدأ تعليقاته هذه على الصحيح، وقد تعقب الإمام البخاري مذهب الأحناف بتعقبات يشق الرد عليها كما لا يخفى، فمن شاء فليراجع هذه التعليقات التي قام بها حضرة الشيخ"(١)

المبحث الثالث: قيادة الإمام لثورة ١٨٥٧م ضد الاحتلال الانجليزي:

وفيما كان الإمام النانوتوي رحمه الله ابن الخامسة والعشرين مشتغلا بتصحيح الكتب في المطبع الأحمدي بدهلي إذ سمع في قريته أن حدثت ثورة

(١) محمد يعقوب النانوتوي، سوانح عمري، ص٥٦-٥٧.

عسكرية في ميروت، وقد انتشر هذا النبأ في طول البلاد وعرضها انتشار النار في الهشيم، وجاء طوفان شعبي قوي ضد الاحتلال في جميع الديار الهندية.

أما قصة الثورة التي اندلعت وأثارت حفيظة الشعب الهندي كله فمن المصادفات العجيبة أنها بدأت من الجنود الهنود في ثكناتهم العسكرية في ميرت، وبيانها أن الإنجليز جلبوا خراطيش، كانوا يدهنونها بشحم الخنازير والبقر، وكان يتعين على الجنود قطع هذا الشحم المتجمد قبل استعمال هذه الخراطيش ، ولتعنت الإنجليز واستهتارهم كانوا يأمرون الجنود بقطعه بأسنانهم، وكان فيهم كثرة من الهندوس وقلة من المسلمين، والبقر محرم أكله على الهندوس تحريمَ الخنزير عند المسلمين، فتذمر الجنود وعصوا الأوامر الصادرة لهم في هذا الشأن استجابة لعقائدهم الدينية، وطلبوا إعفاءهم من هذه العملية، ولكن الإنجليز في نوبات غرورهم أخذتهم العزة بالإثم، ورأوا في عمل الجنود ذنبا لا يغتفر، وعصيانا لا بد أن يقابل بالقمع، حتى لا تحدِّث نفسُه بالخروج على أوامرهم، وحتى يُذِلُّوا الجنود وبالتالي من كان وراءهم من الأهالي في ناحية حساسة، وهي عقائدهم، واستمروا في غرورهم، و أنزلوا بالجنود العصاة عقابا قاسيا، حيث حكموا على ٨٥منهم بالسجن عشر مرات، وتفننوا في إذلالهم بشتى الوسائل[(١)]

وهكذا كانت قلعة ميروت بركانا يغلي بالغضب على الإنجليز جزاء تعنتهم وظلمهم الذي لم يستطيعوا التبرؤ منه، وزحف الجنود الثائرون إلى دلهي في صباح الحادي عشر من مايو، وصدهم عن الدخول جنود الإنجليز بدلهي،

(١) عبد المنعم النمر، تاريخ الإسلام في الهند، ص٤٢٦.

لكنهم عبروا جسر نهر جمنا ودخلوا دلهي وقتلوا من هناك من الإنجليز، فداخل قلوب الإنجليز كثير من الخوف والذعر.

وفي هذه الأيام دعا العلماءُ لاجتماع عام في المسجد الجامع بدلهي، وأعدوا فتوى بإعلان الجهاد، وقَّعها كثير من العلماء البارزين، ولما شاعت هذه الفتوى في هذا الوقت ثار كثير من الناس وتجمع في دلهي عشرات الآلاف من الجنود الثائرين، وفي الوقت نفسه أصدر الثائرون من المسلمين والهندوس إعلانا مشتركا، يقضي باختيار الملك المغولي المسن"بهادرشاه ظفر" (١٧٧٥م-١٨٦٢م)قائدا أعلى للثوار، وانضوى المراهتا -الذين كانوا دائما محاربين لملوك المغول- انضووا تحت حكمه راضين مختارين في سبيل جهاد مشترك لإخراج الإنجليز، فانقضَّ الأهالي مع الجنود على الإنجليز، كانت ثورة النفس جارفة، وسيطر الثوار على الموقف في دهلي، وجرت دماء الإنجليز أنهارا في الشوارع والبيوت، وكان من الممكن أن تنجح الثورة في دلهي وفي غيرها لو وجدت القيادة الرشيدة الحازمة، والتنظيم الذي يعرف كيف يستغل العواطف المشتعلة، والإخلاص الذي ينفي خبث الخبثاء والخائنين الجبناء.

عند ما قامت الثورة شارك العلماء فيها مشاركة فعالة في كل ناحية، وحملوا السيف والبندقية مع إخوانهم، ولكن هناك موقعة يستحق أن نفرد لها مكانا خاصا، وهذه هي الموقعة التي دارت رحاها في هذه المدن التابعة لمديرية مظفرنغر شمال ميرت بين العلماء والإنجليز، واشتهرت بمعركة شاملي الشهيرة فيما بين المعارك الثورية العارمة ضد الاحتلال.

وخلاصة هذه الثورة الباسلة أنها عندما قامت الثورة في دلهي كان تلامذة شاه ولي الله وأتباع السيد أحمد الشهيد المسترشدين بطريقته يفكرون في

القيام بعمل إيجابي، وأتباع السيد أحمد الشهيد لم يكفوا عن الحرب والجهاد منذ استشهد، فلا عجب أن ينتهزوا هذه الثورة العامة ويخوضوا في غمارها.

اجتمع من هؤلاء العلماء الصوفيين الكبار الحافظ ضامن والحاج إمداد الله ومولانا محمد قاسم النانوتوي ومولانا رشيد أحمد الكنكوهي وغيرهم، وكانوا محل اعتقاد من العامة، فتجمع المجاهدون حولهم من كل ناحية، وأتوا بأسلحتهم، وكانت كلها من الطراز القديم حتى البنادق، وكانوا يعنون بالتدريب من قبل.

وقصة هذه الثورة الشعبية أنه كان يسكن مدينة تهانه بهون أخوان من أثرياء المدينة، وهما: القاضي عبد الرحيم والقاضي عنايت علي.

ذات يوم ذهب القاضي عبد الرحيم إلى مدينة سهارنفور، يشتري فيلا، فأخبر أحدٌ الإنكليز بأن أهل تهانه بهون يستعدون لثورة شعبية عارمة ضد الحكومة، واشتراء الفيل جزءٌ من مخططات الثورة. فألقى الشرطة القبض على القاضي عبد الرحيم، وأعدمته شنقا بدون جريمة تُسوِّغُ قتله.

وكانت للعملية الغاشمة الاحتلالية ردة فعل قوية، حتى أقسم أخوه القاضي عنايت علي بأنه سيجند كل طاقاته في سبيل الانتقام من الاحتلال، ودبر له خطة شاملة، وأعد له رجالا أكفاء، ولما سنحت له فرصة هجم على كتيبة عسكرية، متجهة من مدينة سهارنفور إلى تهانه بهون، مما سبَّب انخراط مدينة تهانه بهون في المعارك الثورية ضد الاحتلال(١).

(١) مولانا محمد يعقوب نانوتوي، سوانح عمري، ص ٢٥

المجلس الاستشاري في مدينة تهانه بهون:

إن هذه الوقيعة التي أرَّقت الاحتلال جعلته تتنبه لخطر داهم عن طريق هؤلاء الثوار الأحرار، فأخذ أهبة تامة، ليضرب على المدينة وسكانها ضربة قاضية، وأصبح الناس يتحاورون حول هذا الموضوع، ويتوقعون ضربة قوية من الاحتلال.

ففي هذه الظروف الخطيرة انعقد مجلس استشاري في مدينة تهانه بهون، ضمَّ كبار علماء العصر، بمن فيهم الشيخ الحاج إمداد الله والشيخ الحافظ ضامن الشهيد والامام محمد قاسم النانوتوي والشيخ رشيد أحمد الكنكوهي. كانوا يناقشون موضوع مشروعية الجهاد(١) وقتال الإنجليز من منظور شرعي.

وكان الإنجليز قبل ذلك استولوا على دلهي عمليا، ولم يبق من الحكومة المغولية التي يمثلها الملك بهادر شاه ظفر، لم يبق منها إلا الاسم، وقد سبق أن قرَّر برلمان لندن ضرورة تنصير سكان الهند بشكل إجباري، وقد أرسل وفوداً تنصيرية، لتقوم بزرع الشكوك والشبهات في قلوب الهنود فيما يتعلق بدياناتهم وأعرافهم، وكان المسلمون فريستهم بصفة خاصة.

وكان العلامة الشاه عبد العزيز الدهلوي قد أصدر فتوي بتحول الهند إلى "دار الحرب"، ووضع الإمامان: السيد أحمد الشهيد والشاه إسماعيل الشهيد النواة الأولى للمعارك الثورية التحريرية.

---

(١) مناقشة مشروعية الجهاد لاتعني أنهم كانوا على شك في فرضية الجهاد، وإنما كانوا يتدارسون الوضع، وما تهديه الشريعة الإسلامية في هذا الوضع، حيث كان الملك المسلم باقيا على عرشه ولو رسميا، والمسلمون ليسوا على أهبة تامة للحرب، فهل يجوز النفير العام أم لا؟ هذا هو سبب المناقشة. [م. ن. النوري]

فبعد دراسة الظروف والأوضاع من كل جانب قرَّر المجلس الاستشاري في مدينة تهانه بهون ضرورة قتال الإنجليز ومنازلتهم في إمارة الحاج إمداد الله المهاجر المكي، فوافق عليه الجميع وبايعوا الشيخ على القتال(١).

حمي وطيس المعركة:

فنفر العلماء ومن معهم من المسلمين خفافًا وثقالًا إلى مدينة شاملي، البعيدة من مدينة "تهانه بهون" بعدة أميال؛ التي في قلعتها كانت كتيبة من الجيش الإنجليزي مقيمة، ولما وصل جنود المسلمين هناك تقابل الجيشان: جيش حكومي يقاتل في سبيل الدنيا وفاءا بحق حكومته، وجيش يقاتل في سبيل الله، في عزيمة قوية تدك الجبال، وتناضل الأبطال، مع قلة العَدَد والعُدد، وعوز الوسائل والإمكانيات.

بدأت المعركة، ودارت رحاها بشدة، وأبلى العلماء بلاءا حسنا، وكانوا يكُرُّوْن على الجيش الحكومي المدرَّب، ويضربون الجيش في الصميم، ولم تكن عزيمتهم المثالية وعاطفتهم الجياشة لتنهزم أمام العدو القوي، فاحتدم القتال، وقتل رجال من الجانبين، وكان الإمام العلامة الحافظ ضامن من شهداء المسلمين في المعركة. ولكن انجلت المعركة عن انتصار المسلمين، فقبضوا على القاعدة العسكرية للاحتلال؛ مما أثار حفيظة الاحتلال وأقض مضاجعه.

وبرغم استشهاد عدد من العلماء الكبار كان العلماء الثوار يواصلون كفاحهم ويطاردون الانجليز بالعصي والحجارة؛ ولكن بعد فترة جاءت الأخبار

---

(١) سيد نفيس الحسيني، الإمام النانوتوي في نظر معاصريه(باكستان: سيد أحمد شهيد اكاديمي، ط١، ٢٠٠٣م) ص٧.

المؤسفة من دلهي، وحينها خمدت فيهم روح الحماس، فلم يعد مفر أمامهم من إلقاء السلاح، والنجاة من أيدي أعدائهم الذين أخذوا يطاردونهم لينتقموا منهم، فقد أصدر الاحتلال أمرًا جنونيًا باعتقال المشاركين في معركة شاملي وتعذيبهم، وأرسل جواسيسه في المناطق الشمالية لدهلي، ولم يظفر الاحتلال باعتقالهم إلا الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي، وهاجر الشيخ الحاج إمداد الله المهاجر المكي إلى مكة. بينما حاول الاحتلال جهده في القبض على الإمام النانوتوي، الذي قاد المعركة، وأدار الدائرة على الإنجليز، فبثَّ الاحتلال عيونه في مدينة ديوبند ونانوته وتهانه بهون، واستتر الإمام عن عيون الجواسيس لمدة ثلاثة أيام.

وفي هذه المدة كان الإمام في مسجد تشته الأثري، وعندما بلغ الشرطةَ أن الإمام مختفٍ في المسجد، داهمت المسجدَ وكان الإمام يتجول في لباس متواضع جدا كعادته، ولم تعرفه الشرطة، فسألته عن الامام، فتنحى قليلا، وقال مشيرا إلى الموضع السابق: كان ههنا قبيل هذا الوقت، وراح يلبِس الأمر على الشرطة لمدة سنتين، لم يقر فيهما للإمام قرار، ولا يطمئن له بال، حتى يتفرغ للأعمال الدينية والعلمية، وفي هذه المدة قُبض على زميله الإمام رشيد أحمد الكنكوهي فرفع أمره إلى المحكمة، التي حكمت عليه بحبس ستة شهور.

وفي تلك الأيام كانت الشائعات تطير وتنتشر، وتأتي مخيفةً مرعبةً في غالب الأحوال، ومن تلك الشائعات المخيفة أن المحكمة قضت على الإمام الكنكوهي بالإعدام شنقًا أو نفيه إلي جزيرة ذات الماء الأسود، التي لاتصلح للحياة البشرية. مما أرَّق المسلمين، وجعل الثوار الأحرار لاسيما الإمام

النانوتوي يتقلبون على أحر من الجمر، ومن ناحية أخرى إن شيخه الحاج إمداد الله المهاجر المكي قد غادر الهند مهاجِرا إلى مكه، فازداد الإمام غمًّا إلى غمٍّ.

تغير الحكومة وإعلان العفو العام:

قبل ثورة ١٨٥٧م كانت شركة الهند الشرقية البريطانية هي التي تستولي على الهند، وعلى يدها زالت الحكومة الإسلامية، وكانت الشركة يحقد صدرها على الإسلام والمسلمين، فدبَّرت وخطَّطت وسعت وجاهدت، ثم خادعت وقتلت وصلبت وغصبت الأعراض وصادرت الأموال، وعذَّبت سكان الهند تعذيبًا لايطاق حتى سيطرت على الهند كلها، ومهَّدت الطريق للحكم الإنجليزي، فتنازلت عن الحكم لصالح الملكة فكتوريا البريطانية، فدخلت الهندُ مباشرة تحت الحكم البريطاني عام ١٨٥٨م.

واتخذت الملكة فكتوريا خطوة شجاعة، فأصدرت الأمر بالعفو العام عن جميع ثوار ١٨٥٧م، وبعد العفو العام طارت شائعة تفيد اختصاص العفو العام بالثوار المشاركين، أما الثوار الزعماء القادة فلا عفو لهم ولاصفح، فأمضى الإمام النانوتوي أربع سنوات متنقلا بين ديوبند ونانوته، في شرود فكري وتشتت قلبي عجيب حتى أُطلق سراح الإمام الكنكوهي فعاد له بعض الهدوء.

المبحث الرابع: رحلة الحج المبارك:

سعد الإمام النانوتوي رحمه الله بثلاث رحلات إلى الحجاز المقدس، فالحجة الأولى كانت عام ١٢٧٧هـ / ١٨٦١م، بينما قام بالحجة الثانية عام ١٢٨٦هـ / ١٨٧٠م، أما الحجة الثالثة وهي الأخيرة فقد سعد بها عام ١٢٩٤هـ/ ١٨٧٧م، أي قبل وفاته بسنتين.

وقصة الحجة الأولى أن الإمام –كما مرَّ– كان على رأس المطلوبين لدى الحكومة البريطانية لقيادته لمعركة شاملي الثورية عام ١٨٥٧م، وكان يضيق ذرعا، ويضطرب خاطرا على ما يجري في الهند من أنواع الظلم والعدوان، فأراد أن يتنفس في جو إسلامي غير جو الهند المشحون بالعنف والشدة والتعسف، وقد سبق أن شيخه الحاج إمداد الله هاجر إلى مكة، ففي عام ١٢٧٧هـ / ١٨٦١م قام برحلة الحج المبارك، وقد حاول الإمام إخفاء نبأ رحلته السعيدة، ورافقه في الرحلة رفيقُ صباه وزميلُ دراسته العلامة محمد يعقوب النانوتوي رحمه الله وكانت الرحلة عن طريق السفينة الشراعية، ووصلت السفينة إلى مرفأ جُدَّة بعد ستة شهور. ثم قضى الإمام بضعة شهور في الحرمين الشريفين.

ثم عاد عن الطريق البحري، ووصل إلى مدينة مومباي عام ١٨٦١م، واستغرقت الرحلةُ عاما كاملا، ودخل في وطنه نانوته؛ حيث انتهى الحظر.

ومن شواهد الذكاء المفرط للإمام أنه خلال شهر واحد في شهر رمضان حفظ القرآن الكريم، وكان شغوفا بتلاوة القرآن الكريم.

ولندع الكلام لصاحبه الشيخ محمد يعقوب النانوتوي فهو يحكي لنا ما شاهده بأم عينيه: "وركبنا السفينة، ومررنا بالبنجاب، حتى وافينا السند، ثم ركبنا سفينة شراعية من كراتشي أبحرت في جمادى الثانية عام ١٢٧٧هـ، ودخلنا مكة، وشهر ذي الحجة يؤذن بالرحيل، فألقينا عصا الترحال، وقضينا مناسكنا، ثم زرنا المدينة المنورة، ثم قفلنا فركبنا سفينة في نفس الشهر، وبلغنا بومباي، وشهر ربيع الأول على وشك الانتهاء، ووصلنا إلى الوطن في جمادى الثانية.

"أقلتنا سفينة شراعية من كراتشي عند ما توجهنا إلى مكة، واستهل هلال رمضان، فأخذ حضرة الشيخ يستظهر القرآن الكريم، ويقرؤه في قيام الليل في السفينة، والناس من ورائه يستمعون، وسادته حالة عجيبة مادام على متن السفينة، دخلنا مكة بعد العيد، فاشترى حضرة الشيخ حلوى مسقط، ووزعها بين أصحابه فرحا بخدمة القرآن الكريم في قيام الليل، ولم يكن عرف بعد كمستظهر للقرآن الكريم، وظل يقرؤه بصوت خافت ويجمعه ويحفظه خلافا لما تقرر لدى حفظة القرآن الكريم، من أن الجهر بالقراءة مدعاة لتمكنه من القلب.

وكان يذكر –فيما بعد- أنه حفظ القرآن الكريم وجمعه بما قرأه خلال شهر رمضان عامين متواليين، وكان من ديدنه ألا يزيد في الاستظهار-خلال مجلس واحد- على ربع جزء أو يزيد قليلا.

وهذا، وإذا رأيته يقرأ في قيام الليل، والناس وراءه قيام، رأيته مرسا متمكنا من حفظه، لايتلعثم ولايتردد في قراءته، بل يتدفق كالسيل.

ثم أصبح يكثر من قراءته، ويطيل قيامه بالليل، ولا أنسى أنه قرأ سبعة وعشرين جزءا في ركعة واحدة، فإذا أحس بأحد يأتم به ركع، ونهاه عن ذلك، وقام الليل كله لنفسه.

وزار حضرة الشيخ الحرمين الشريفين، وعاد إلى البلاد خلال مدة تناهز سنة، وذلك عن طريق مومباي وناسك، ثم ركب قطارا سار به إلى الوطن.

وفي غيبته عن البلاد أصدرت السلطات الإنجليزية-بعد ما أمْعَنَتْ النظر وقدَّرتْ الأمور- قرارا يقضي بالعفو العام إلا أناسا بأعيانهم ممن تأكدت

الشبهات حولهم، وقويت لدى الحكومة؛ فإنهم ظلوا مطالَبين حيث ما وجدوا، وقضى حضرة الشيخ بعض الأيام في بيته، لايفارقه، وأيام الغدر هذه جرَّت على كافة المطابع في دهلي ويلات دمَّرتها، وتركتها أثرا بعد عين"[1]

وفي هذه الأيام طلب منه بعض العلماء والفضلاء تدريس صحيح البخاري، فقبِله، وكان الشيخ محمد يعقوب النانوتوي ممن قرأوا عليه صحيح البخاري في هذه المدة[2].

الحجة الثانية وتصحيح الكتب:

إن من أبرز الأعمال العلمية للإمام أنه قام بتصحيح الكتب الحديثية في مطبع العلامة المحدث الشيخ أحمد علي السهارنفوري، ولكن الاحتلال الإنجليزي أفسد كل حركة علمية، وقضى على حيوية البلاد بشكل مدهش. وكان المطبع الأحمدي من الآثار العلمية التي قضى عليها الاحتلال رغبةً منه في تجفيف منابع العلم وتجهيل أبناء المسلمين والحيلولة دون الأعمال الثقافية.

ثم اشتغل الإمام مصححا للكتب في مطبع الشيخ ممتاز علي بمدينة ميروت، وكان من معارف الإمام، فألحَّ على الإمام أن يتولى مهمة التصحيح والتحقيق للكتب التي يريد المطبع نشرها.

يقول الشيخ محمد يعقوب النانوتوي: "وأيام الغدر هذه جرَّت على كافة المطابع في دهلي ويلات دمرتها وتركتها أثرا بعد عين، أما مطبعة الشيخ أحمد علي

---

(١) محمد يعقوب النانوتوي، سوانح عمري، تعريب: محمد عارف جميل، ص٧٣-٧٥.

(٢) محمد أشرف علي التهانوي، قصص الأكابر، (الهند: المكتبة الأشرفية دلهي. د.ت، د.ط.)ص٢٠.

فلم تكن كبيرة واسعة النطاق، فلم يجد حضرة الشيخ بدا من البقاء في وطنه، يعيش أياما في ديوبند، وأخرى في وطنه، وقرأت عليه -آنذاك- شيئا من صحيح البخاري.

"وأنشأ الشيخ ممتاز علي مطبعة في مدينة ميروت، فاستقدم حضرة الشيخ إليه انطلاقا من العلاقة الوطيدة، والحب الصميم الذي يربطهما، فلبى دعوته ورضي بالعمل في مطبعته، كمصحح للنصوص، وعمله هذا يكاد يكون اسميا، وقد كان المنشئ ممتاز علي هذا توخى من وراء استقدام حضرة الشيخ إليه أن يتخذه صاحبا يشاركه في عمله ويساعده عليه لاغير"(١).

وفي هذه الأيام وبالتحديد عام ١٢٨٦هـ/ ١٨٧٠م اشتاق الإمام إلى الحج السعيد وزيارة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، وقد صحبه المنشئ ممتاز علي في هذه الرحلة، وأقام الشيخ ممتاز علي في الحجاز مدة طويلة، ولما عاد الإمام إلى الهند كانت مطبعة الشيخ ممتاز علي قد طُوي بساطها، فدعاه المولوي محمد هاشم إلى مطبعته الهاشمية، فانضم إليها الإمام، ثم أقام الشيخ ممتاز علي مطبعة أخرى باسم المطبع المصطفائي، وألحّ على الإمام النانوتوي بالانضمام إليه، فلبى دعوته، لكنه بعد برهة قليلة انتقل مرة ثانية إلى ميروت، وعمل مصححا للكتب.

وفيما كان الإمام مشتغلا في تصحيح الكتب كوسيلة للمعاش ومصروفَ الهمة إلى النهوض بالأمة الإسلامية الضعيفة في هذه البلاد ألهم الله في روعه أن نشر العلم والقضاء على الأمية والجهالة عن طريق إقامة المدارس والكتاتيب أقوى وسيلة وأقوم سبيل للحفاظ على الكيان الإسلامي في الهند.

(١) محمد يعقوب النانوتوي، سوانح عمري، ص٧٦.

وقد كان بعض كبار العلماء المقيمين في ديوبند قد دار في قلوبهم مثل هذا التفكير، فكانت فكرة إقامة المدرسة شعلةَ أمل وبارقة حياةٍ في ظلام اليأس الداجي الفاتك.

ففي أيام إقامته بمدينة ميروت قام الشيخ بمساعٍ مشكورة في تأسيس الجامعة الاسلامية دار العلوم ديوبند مع رفاقه المخلصين. كما سيأتي بيانه.
وفي هذه الفترة تناول الإمام تدريس الكتب الحديثية.

المبحث الخامس: عملية التدريس والإصلاح:

إن الإمام النانوتوي بعد عودته من الحج بدأ تدريس صحيح البخاري في وطنه نانوته، وبما أنه كان من العلماء الربانيين الذين طار لهم صيت واشتهرت لهم شعبية كاسحة فتوافد إليه الطلبة من بلاد دانية ونائية. قد تناول الإمام تدريس كتب العلوم المختلفة لا سيما الكتب الحديثية الإ أن مكان التدريس لم يكن واحدًا؛ بل كان الإمام يتنقل بين نانوته وديوبند وميروت ومسجد تشته وما إليها، وذلك لظروف سياسية خطيرة في ذلك الوقت.

ولما اشتغل بتصحيح الكتب في مدينة ميروت ومدينة دلهي، قام بتدريس الكتب الحديثية المختلفة، وقد تلمذ على الإمام هناك عدد كبير من رجال العلم البارزين، الذين اشتهروا بعلمهم وتقواهم، ومنهم الشيخ محمد يعقوب النانوتوي رحمه الله، الذي صار فيما بعد أول رئيس هيئة التدريس للجامعة الإسلامية دار العلوم ديوبند، ودروس الإمام الحديثية لم تكن كدروس عادية جارية على النهج التقليدي الجاف؛ فكان الإمام مطبوعا على التحقيق والتجديد، مدفوعا بفطرته إلى إبراز المعاني الجديدة، وشرح النصوص بشكل

حي، فكان درسه يشبه درس جهابذة الحديث في الهند، كالشيخ عبد الغني المجددي والشاه محمد إسحاق الدهلوي، رحمهما الله.

الشرح الوافي للنصوص، واستخراج المعاني والمسائل منها، وبيان الاختلافات الفقهية بين الأئمة الأربعة، وإيضاح دلائلهم، ثم ترجيح المذهب الحنفي بشكل مقنع يبهر الطلبة كل ذلك كان من أهم مميزاته التدريسية.

الشفقة على التلاميذ:

كان الإمام أستاذا عطوفا على تلاميذه، فيعاملهم بلطف وعناية، ويكرمهم ويراعي نفسياتهم، ويصفهم في الرسائل بصفات جميلة،وكان يدرك اتجاهات الطلبة وما يتمتعون به من مؤهلات ومواهب؛ فيشير علي الطلبة بالاشتغال بأمورٍ تلائم طبيعتهم وأذواقهم؛ ومن هنا خرج تلامذته علماء كبارا ومجاهدين أبطالا.

ولكن ندرك مدى شفقته على تلاميذه يجب أن أنقل هنا إحدى رسائل الإمام إلى تلميذه الشيخ فخر الحسن الكنكوهي، وهي كما يلي:

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد قاسم عفا الله عنه إلى العزيز المولوي فخرالاسلام أسعده الله في الدارين.

بعد السلام والتحية أود إحاطتك بأني بحمد الله بخير وعافية؛ إلا أني أعاني في هذه الأيام ألم فراقك، فهو لي حادثة عظمي، فإني أراك وعزيزي أحمد حسن (الأمروهوي) كالعين والمصباح، وكاليد والرجل ولا إخال قرب مفارقتكم. فقد ذهبتَ وبقي أحمد حسن، وهو أيضا على وشك الذهاب، ولم يبق لي إلا وحدتي وخلوتي.

وعندما تلقيت رسالتك مؤخَّرًا ازداد الألم وزاد الشعور بالفراق، ولكني أعرف الداعي إلى الفراق، فلولا العسرة والمسكنة التي تعانيها أسرتك لما رضيتُ أبدًا بفراقك، ولا مندوحة من قدر الله المقدور، والآن وإن عدتُ بعيدا عن أحبابي؛ ولكن إذا ذكروني أعتبرهم قريبين.

أما بالنسبة للنشاطات التدريسة فأبدأ تدريس سنن أبي داود بعد الغد وأكملت دروس ميرزاهد، وفي هذه الفترة أكملت مابقي من دروس صحيح مسلم، ثم ذهب محمود حسن الديوبندي إلى مدينة سهارنفور يبحث عن نسخة سنن النسائي التي طبعها الشيخ أحمد علي السهارنفوري، فهي أصح النسخ، ثم ذهب إلى مدينة ديوبند، ومكث يومين ثم عاد إلى ميروت، وقد بدأت دروس شرح جغميني، وقد انتهت خمسة دروس منها، وقبل أربعة أيام وردتْ رسالة الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي، ذكر فيها أن محمد ذكي ابن محمد تقي قد تُوفي، إنا لله وإنا اليه راجعون.

وتقبلوا التحية من الجميع لا سيما من الأخ محي الدين المراد آبادي الذي طلب مني أن أكتب إليكم تحيته، كما أن المولوي محمد هاشم الميروتي يحييكم. وأرجو منكم أن تتفضلوا ببيان أحوالكم؛ فقد ذكرتم إصابتكم بالحمى والصداع مما أقلقني، والسلام[1].

انطباعات تلاميذه عن دروسه الحديثية:

إن الإمام كان مجددا في التدريس، يشرح النصوص فياتي بما تعجز عنه الأفهام، ويبين فيتوصل إلى أغوار خفية، تعي عن إدراكها الأذهان، وقد شهد تلاميذه والمستفيدون منه بما يشكل دليلًا كافيًا على مهارته التدريسية وقدرته الفائقة على شرح النصوص، ومن المناسب أن أذكر هنا بعض الانطباعات التي ذكرها المستفيدون منه من كبار العلماء والمصلحين، وهو كما يلي:

١- يقول الشيخ محمد علي المونجيري مؤسس ندوة العلماء لكناؤ الهند-وقد شارك في أحد دروس الإمام في ميروت-: وقد سعدت بشهود درس الإمام محمد قاسم النانوتوي رحمه الله في زمن الطلب، ولعل هذا حدث أيام كانت دروسه لصحيح مسلم جارية، فقُرِئَ عليه الحديث الذي كانت له صلة بالاختلاف بين الحنفية والشافعية، فوجدته يلقي كلمة ضافية مشفوعة بالحجج والبراهين، تقوي المذهب الشافعي، وبُهِتَ الطلبة، وقالوا: حضرة الأستاذ! إن كلمتكم هذه أثبتت حقية المذهب الشافعي، وضعف المذهب الحنفي، أليس الأمر كذلك؟ فرأيته قد شحب لونه، ثم قال: إن ما بينته هو

(١) محمد أسعد التهانوي، مولانا محمد قاسم كي ديني وعلمي خدمات كا ايك تحقيقي مطالعه، (باكستان: قسم القرآن والسنة بجامعة كراتشي، ٢٠٠٥م)ص٤٩.

أقصى ما يقوله شافعي في تأييد مذهبه، ثم قال: إن لمذهب الإمام أساسًا آخر أقوى من المذهب الشافعي، ثم ألقى كلمةً قويةً جدًا، أقنعت الطلبةَ بأن أوفق المذاهب الفقهية للحديث هو المذهب الحنفي، وتبيَّن أن أقرب الأقوال إلى النصوص هو قول الإمام أبي حنيفة رحمه الله[1].

٢- يقول أخص تلامذة الإمام الذي لازمه طوال عمره وقد تخرج عليه في الحديث والفقه: الشيخ محمود حسن الديوبندي المعروف بشيخ الهند: كنت أشارك في درس الإمام بعد مطالعة مؤلفات الشاه ولي الله الدهلوي، وكنت أسأل الإمام عن المسائل التي لم يتعرض لها الإمام الدهلوي، فكان الإمام النانوتوي رحمه الله يبين لأول وهلة ما كان يقوله الإمام الدهلوي في آخر كلامه، وقد جربت ذلك مرارا[2].

٣- يقول الشيخ رحيم الله البجنوري -وهو من تلامذة الإمام النانوتوي ومن العلماء الشهيرين في الأوساط العلمية-: إني ذهبتُ إلى الإمام النانوتوي رحمه الله بعد إكمال المنهج النظامي في مدرسة رامفور، ولما حضرتُ الإمامَ وجدته يدرِّس صحيح البخاري في قريته نانوته، فجلست أستفيد منه، وشهدتَ درسه في يوم، وكنت على غير وضوء، فإذا هو يشير بيديه، ويقول بعد الدرس: أخي! لايناسب أن تجلس في درس صحيح البخاري وأنت على غير طهارة"[3].

---

(١) مناظر أحسن الكيلاني، سوانح قاسمي، ج٢، ص٢٤٢-٢٤٣.

(٢) سيد محبوب رضوي، تاريخ دار العلوم ديوبند،(باكستان: الميزان ناشران وتاجران كتب، لاهور، د.ط، ٢٠٠٥م) ج٢، ص١١٣.

(٣) أسير أدروي، الإمام النانوتوي حياته ومآثره، ص١٠٤.

٤- يقول الشيخ محمد يعقوب النانوتوي: وأكثر حضرة الشيخ حينئذ من تعليم الطلاب، ولم يدع كتابا من الكتب المتداولة إلا قام بتدريسه هادئ البال، مطمئن النفس، متمكنا من تدريسه، الذي كان يتضمن من مواد غزيرة ما لا أذن سمعت، ولا قلب أدركه، ويأتي بها ندر وعز من دراسات وتحقيقات علمية، توفق بين وجوه الاختلاف، وبمباحث تلمس جذور الموضوع، وتشرحه شرحا وافيا، ولايزال ثمرة تدريسه ملموسة ظاهرة، ولا شك أن الذرة دون الشمس بمراحل، إلا أنه يعكس ذلك الجمال والفضل، ويتجلى فيه ما يوجب عزمه وتصميمه، فمن شاء فلينظر وليستمع إلى مايكتب ويخطب"(١)

أسلوب الإمام النانوتوي في الإصلاح والمبايعة:

كان الإمام غاية في التواضع وكسرالذات؛ ويخفي كثيرا خصائصه العلمية والروحية، فلم يكن يجلس ليبايع الناس ويدخلهم في الطريقة الصوفية؛ ولهذا لانجد لمريديه عددا كبيرا؛ حتي إن كُتَّاب سيرته لم يذكروا في مريديه إلا رجلا واحدا، وهوالشيخ مولانا الحكيم محمد صديق المرادآبادي، حيث يقال: إنه كان خليفة الإمام في الطريقة الجشتية؛ فكان الإمام لايمارس شكليات التصوف وشطحاته؛ وإنما ينظر إلي روح التصوف وجوهره، وهو الذي عبر عنه الحديث بلفظ "ان تعبدالله كأنك تراه؛ فإن لم تكن تراه فإنه يراك"

ومن المناسب هنا أن أنقل كلام الشيخ عند مبايعة أحد تلامذته، وقد ذكره العلامة فضل حق الديوبندي رحمه الله في مذكراته، وهذا الكلام يكشف عن وجهة الإمام نحو التصوف وتأكيده على الجوهر دون الشكل، وعلى الروح دون السطح، وعلى اللب دون القشر.

---

(١) محمد يعقوب النانوتوي، سوانح عمري، تعريب: عارف جميل المباركفوري، ص٧٩.

يقول الإمام ناصحًا لأحد تلامذته:

١- "عليك -رعاك الله- بالتواضع، فلا تستكبر على أحد؛ بل انظر إلى من دونك، واعتبر نفسك كواحد من الناس؛ بل أحقرهم شأنا.

٢- إن التصوف يتلخص في أمرين كما قال الشاعر الفارسي الحكيم الشيخ سعدي رحمه الله:الأمر الأول: أنك لاتنظر إلى محاسنك؛ وإنما إلى معائبك. والأمر الثاني: أن لاتنظر إلى مثالب الناس؛ بل إلى محاسنهم.

٣- إن الأوراد والأذكار يراد بها حصول حب الله سبحانه، وحبه لاينشأ بدون اتباع المصطفى المعصوم؛ فلا أحبَّ إلى الله من رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم وأسوتِه، ولاغرو؛ فأقوالُ المحبوب وأفعاله حبيبة.

٤- أما الكشوف والكرامات والمنامات فليست بأشياء لازمة؛ بل هي درجاتٌ دُنَى للتصوف؛ فالأطفال دون الكبار العقلاء تُوَزَّع عليهم الحلاوى ليروحوا إلى المسجد للصلاة.

٥- ينبغي أن تنفق في وجوه الخير من جميع أنواع المال.

٦- عليك بالمواظبة على ماتبدؤه من ورد وذكر قلَّ أوكثُر.

٧- يبدو أن الله تعالى يريد أن يشتغل الناس بالعبادة في نصف اليوم والليلة، وبالأشغال اللازمة في النصف الآخر.

٨- عليك بالابتعاد عن مجالس لايُذكر فيها الله سبحانه ورسوله؛ فالخلوة أولى من حضور مثل هذه المجالس.

٩- من المناسب أن تنصر المسلمين وتساعد ذوي الحاجاءت منهم بالمال والنفس.

١٠- ينبغي مصاحبة الأخيار ومجانبة الأشرار"[١]

---

(١) أشرف علي تهانوي، أرواح ثلاثه، (الهند: مكتبة إمداد الغرباء بمدينة سهارنفور. د.ت، د.ط.)ص ١٣٥.

المبحث السادس: تأسيس الجامعة الإسلامية دارالعلوم ديوبند:

كان الإمام النانوتوي رحمه الله مشتغلا في مدينة ميروت بتدريس الكتب الحديثية وتصحيح الكتب الإسلامية ليتم نشرها بشكل صحيح في مطبع الشيخ ممتاز علي ومفكرا في سبل نهضة الأمة الإسلامية دينيا وثقافيا حتى هُدي إلى منبع الخير والهدى والنور: إلى مدرسة إسلامية ستكون وقود النهضة، وتعمل في تخريج العلماء الأبطال، المتمكنين في علوم الشريعة الإسلامية، القادرين على قيادة الأمة الإسلامية في جميع النواحي، فأسس الجامعة الإسلامية دارالعلوم ديوبند في ١٥ من شهر المحرم عام ١٢٨٣هـ الموافق ٣٠ من شهر مايو عام١٨٦٦م، لتتولى مهمة الحفاظ على الدين والرد على الأفكار الضالة والحركات الهدامة.

وقد كان من رفقاء الإمام من أسهموا بشكل فعال في تطبيق هذه الفكرة المصيرية وتجشموا في هذه السبيل كل المشاق والمتاعب، لاسيما الحاج سيد عابد حسين الديوبندي والشيخ ذوالفقار علي الديوبندي والشيخ فضل الرحمن الديوبندي.

قدجاء تأسيس هذه المدرسة سدا منيعا أمام الانهيار الديني والسياسي والعلمي الذي حدث بعد سيطرة الاحتلال الإنجليزي على البلاد الهندية. فقد ذهب مجدهم، وسُلب ملكهم، وزهقت أرواحهم، وصودرت أوقافهم، وعطلت مساجدهم، وهدمت مدارسهم وانتُهكت أعراضهم، وقتل علماؤهم أو نُفُوا إلى مناطق بعيدة ذات مناخ قاس، لايصلح للحياة البشرية، فقامت للأمة الإسلامية قيامة؛ حتى آل الأمر إلى أنه كان إذا توفي رجل مسلم، يبحثون عن رجل يصلي عليه، فلا يجدون.

وكانت المدارس في الهند قبل الاحتلال كثيرة، تقوم على الأوقاف والإقطاعات للرؤساء والأمراء.

أما بعد الاحتلال فلم يبق فيهم أمير ولا رئيس، ولا أوقاف ولا إقطاعات، فلم يدَّخر الاحتلال وسعا في تجفيف منابع العلم وحملته، فعادت المدارس أطلالا، والمساجد الأثرية الكثيرة خرابا يبابا. كما قال الشاعر:

وما البصرة الفيحاء من بعد فعلكم * بها غير أطلال ببرقة ثهمد([1]).

فكان العلم الديني مسدودةً أبوابه ومحجورة سبلُه، وقَطعُ الأمةِ –أي أمة كانت– عن تراثه العلمي والنهوض الثقافي يعني القضاء على كيانها وإزهاق روحها وتوريطها في هوة الإلحاد وورطات الأمية والجهالة، فإدراك الإمام ضرورة إقامة مدرسة كانت فكرة ملهَمة من الله، ومصيرية تتمثل في وضع نواة أولى قوية، من شانها أن تحول دون أفكار وحركات هدامة تستهدف الكيان الإسلامي، تعمل في مجال الحفاظ على الدين والثقافة الإسلامية، وتسعى في ذلك سعيا حثيثا، كما سيأتي بيانه.

المبحث السابع: الدفاع عن الدين:

المناظرة مع الأساقف الهندوس والرهبان النصارى:

إن المطلع على تاريخ الاستعمار في البلاد الإسلامية يعرف جيدًا أن الاستعمار الأجنبي ظلَّ وقود الفتنة الشاملة، والمكرُ والخداعُ والمؤامرةُ هي أسلحته في كل مكان، إن الاستعمار البريطاني في الهند جرى على سنته وسنة المستعمرين الآخرين في البلدان الأخرى، فما إن قامت لها حكومةٌ في الهند حتى

---

[1] ديوان عبد الغفار الأخرس، (المكتبة الشاملة)، ص١٨٢.

ارتدى لباس الظلم والعدوان على معتقدات الآخرين، وأراد إثبات غلبته الفكرية كغلبته السياسية، فأراد تنصير الهنود بقسر وإكراه، وعيَّن من اعتنق النصرانية من الهنود على مناصب حكومية مرموقة، إطماعا للآخرين في النصرانية، فقد أوفد الاستعمارُ رجال التنصير من البلدان الغربية، ليقوموا بواجبهم في نشر النصرانية والرد على الأديان الأخرى، وهؤلاء الرهبان والقسيسون (الذين يطلقون عليهم المبشرون) كانوا يذهبون إلى أماكن عامة في المساجد والمعابد والاحتفالات والمنتزهات والجنينات، ويعترضون على الديانات لا سيما الإسلام، ويبثون السموم، فيثيرون الشكوك حول الإسلام ورسوله وتاريخه وعقائد المسلمين، حتى أن الحكومة سلكت مسلك الجبر والإكراه، وأكرهت الموظفين على اعتناق النصرانية.

وكان الإمام النانوتوي رحمه الله يعرف ما كان يجري في الساحة، وما تهدف إليه الحكومة من إرساء دعائم النصرانية في الهند عن طريق الجبر، كما يعرف المؤامرات وشبكات المكر والخداع التي كان يحيكها الاستعمارلصيد الهنود السُّذج.

وعندما كان الإمام النانوتوي يعمل مصححا للكتب في مطبعة دلهي بلغه أن المدعو ماستر تاراتشند(Tarachand) الذي تحول من الهندوسية إلى النصرانية يتطاول على الإسلام ورسوله، فأمر الإمام النانوتوي تلاميذه بالرد على تاراتشند، فكانوا يجيبون عن اعتراضات الرجل، وفي يوم من الأيام رأى الإمام أن تاراتشند يخطب بين الناس، ويعترض على الرسول صلى الله عليه وسلم، فدخل وأجاب عن اعتراضاته، ووجَّه بعض الاعتراضات الواضحة إلى النصرانية فبُهت الرجل، ونسي ما كان يحفظه ويتقنه من أنواع التفنن في المكر والخداع.

المهرجان العالمي الأول لمعرفة الله تعالي:

لما رأى الاستعمار والرهبان أن عامة الهنود يفرون من اسم الإنجليز فعادوا يعقدون الحفلات باسم رجل مسلم أو هندوسيٍ، وكان المنظِّمون هم المستعمرين.

وفي مثل هذا النوع من الحفلات انعقدت حفلة في مدينة شاهجهانفور، نظَّمها الاستعمار لتكون حفلة عالمية، يشارك فيها علماء الإسلام وأساقفة الهندوس ورهبان النصاري، وكان المستعمرون يظنون أن رهبان النصاري سيقيمون الحجة على الجميع، مما يزلزل عقائد عامة المسلمين والهنود، وسيُقبلون على النصرانية عن طواعية؛ فإن العلماء إذا عجزوا عن إثبات حقية دينهم، هان على الاستعمار صيد هذه القلوب البريئة، والاستعمار استخدم هنا اسم الهندوسي الثري في مدينة شاهجهانفور: المدعو كبير بنتهي، الذي كان صديقا للراهب الإنجليزي الشهير مستر نولس.

وفي ٧-٩ من شهر مايو عام ١٣٩٣هـ الموافق عام ١٨٥٦م أقيم هذا المهرجان العالمي الأول في مدينة شاهجهان فور، شارك فيه ممثلو الديانات الكبرى ودعاتها ومبلغوها، إضافة إلى جمع حاشد من المسلمين والهندوس إلا أن المواجهة الأصيلة كانت بين المسلمين والمسيحيين، وكان الإمام النانوتوي ممثل الإسلام والمسلمين.

فالمنشي بيارى لال كبير بنتهي الذي نظَّم هذا المهرجان في "تشاند بور"(Chand pur) القريبة من مدينة شاه جهان بور، قد وجه رسالةً إلى الإمام النانوتوي للمشاركة.

فخرج الإمام من مدينة نانوته راجلا، وأقام في كل من مدينة مظفرنكر وميروت ليلة، وانتهى إلى دلهي، وفي الخامس من شهر مايو غادر دهلي إلى شاه جهان بور، ومعه طائفة من تلامذته وأحبابه. ووصل إلي مدينة شاه جهان فور في السادس من مايو، وقد حاول الشيخ هنا أن يخفي نفسه كثيرا، حتي يبين اسمه التاريخي "خورشيد" وأقام هناك في خانة، وفي الصباح مشى على قدميه إلى تشاند فور حيث كان من المقرر "انعقاد المهرجان العالمي".

وكان من المقرر استمرار المهرجان عدة يومين، ولكن بإلحاح من الإمام رضي الراهب النصراني "نولس" والقائمون على المهرجان بزيادة يوم في يومين، لتكون فترة المناقشة أطول ومجال الكلام أوسع وأرحب، وقد شارك فيه أساقفة وقسيسون بيض وسود، أي كل من البريطانيين والهنود.

أما موضوع المناظرة فقد تقرر أن الكلام يجري حول خمسة محاور، وهي:

١- من أي شيءٍ خلق الله العالم؟ ومتى خلقه ولماذا؟

٢- إن الله يحيط بالكل أم لا؟

٣- كيف التطبيق بين أن الله عادل وبين أن الله رحيم؟

٤- ما الدليل على أن كلا من الويدا والإنجيل والقرآن كلام إلهي؟

٥- ما النجاة؟ وكيف حصولها؟

أما من جهة ترتيب المناقشة فتقرر أن كلمات الممثلين والمناظرين ستجري خمس عشرة دقيقة، ثم تأتي نوبة المناقشة لمدة عشردقائق. وشاء الإمام أن تزاد فترة الكلمة؛ ولكن النصاري لم يرضوا بها؛ إلا أن الإمام رضي بكل ما اشترطه النصاري، ثم جرت الكلمات والمباحثات، وقد تلقَّى الإمام جميع الشبهات بصبر

وأناة، وفنَّدها بقوة البراهين الساطعة، وفي أثناء المناقشة أطلق قسيس نصراني كلمة غير مناسبة إلى الإمام، مما أسخط المسلمين لاسيما تلاميذه ومحبيه، فردَّ عليه الشيخ أحمد حسن الأمروهوي، فقاطع الإمام كلامه، وسكَّن جأشه ونبَّهه على هذا بأسلوب تربوي قائلا: مالك تغضب وهو يقول لي دونك؟

ولما انتهت الجلسة لقي الأسقفُ الهندوسي الإمامَ، وقال: حضرتُك لألقاك، وقد لقيتُ، فإني راحلٌ الآن، فقال الإمام: ما أجملك من إنسان شريف، فقال الأسقف: إن خطبتك جيدة، ولما بدأ المسلمون في العودة إلى بيوتهم من المهرجان قال أحد أساقفة الهندوس مشيرا إلى الإمام النانوتوي: هذا الرجل هو العالم الحق بلاشك، ولما رآه الإمام بادر الأسقفُ وسلَّم عليه فأجاب عنه الإمام، ثم نزل الأسقف ولقي الإمام وقال: قد أحسنتَ وأتيت شيئاً قويا. فإني رأيت النصارى يتململون تململ السليم عند ما بدأتَ الخطبة وألقيتَ براهين قوية.

وبعد انتهاء المهرجان سأل الشيخ عبدُ الوهاب البريلوي ممثلَ النصاري عن المهرجان ومالقيه من هزيمة فاضحة، فقال: لاتسل عن هذا؛ فقد شاركتُ في ألوف من مثل هذه المهرجانات، وناظرت جماعةً من علماء المسلمين، فما رأيت مثل هذا العالم ولا سمعت مثل هذه الخطبة، فلما رأيته أول مرة قلت في نفسي: رجل نحيف هزيل، يلبس ثيابا عادية؛ بل أحط منها، لايبدو فيها أنه عالم، فضلا عن أن يبهر بخطبته البليغة، ولاشك أنه على حق، فلو كان رجل آمنت أنا بخطبته لكان هذا الرجل ذاك"(١).

(١) الإمام محمد قاسم النانوتوي، كفتكوء مذهبي (الحوار الديني)، ترتيب: محمد هاشم علي ومحمد حيات، ص٣-١٠؛ أسير ادروي، حضرت مولانا محمد قاسم نانوتوي حيات اور كارنامي(الإمام محمد قاسم نانوتوي حياته ومآثره)، ص١٧٠-١٧٧.

المهرجان الثاني:

وفي ١٩-٢٠ من شهر مارس عام١٨٧٧م الموافق١٣٩٤هـ انعقد المهرجان الثاني في نفس المكان؛ وشارك فيه الممثلون والمناظرون من كل الديانات، وقد شارك فيه إلى جانب القسيس نولس القسيسون الآخرون، نحو "واركر" و"إسكات" كما شارك فيه من قِبَلِ الهنود الأسقف باندت ديانند سرسوتي وباندت منشي أنور فتن. وكان البابا إسكات شهيرا بذكائه ودهائه؛ إلا أنَّ الأساقفة والقسيسين كانوا متأثرين جدًّا بكلمة الإمام النانوتوي في العام الماضي، وشاء الإمام أن تُتاح للخطباء والمناظرين فرصةٌ كافية للكلام، ولكنَّ أساقفة الهندوس والقسيسين النصارى شكوا قلة الوقت، فأجاب الإمام عنهم بقوله: إن القول بقلة الفرصة غايةٌ في الوقاحة، لاسيما لـمن يتخذون تمثيل دياناتهم مهنةً لهم بشكل رسمي، أما بالنسبة إلينا فنحن نفقد العُدَّة والأسباب، وتركنَا الحوائج اللازمة، وقطعنا المسافات الشاسعة، فإن قلنا بقلَّة الفرصة كنا على حق، أما أنتم فقد تماديتم في المناظرة وتناهيتم في المماطلة وقلتم أولا: لانحكِّم الا من رضيناه ثم تقولون الآن بقلة الفرصة ياللعجب!!

ومما لا مرية فيه أن الإمام رحمه الله قد أثبت حقية الإسلام ورسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ونصب رأية الإسلام في مضمار شاه جهان فور، وبذَّ المناظرين وبهرهم ببديهته الرائعه وكلماته الساحرة حتى قال القسيس إسكات في نهاية الحفلة: إن هذا الرجل يملك العلم العميق والقلب الذكي، وليس بعالم رسمي كعامة العلماء، ولم يبق لدى المسلمين مثل هذا العلم الدقيق. كما اعترف بأنه لادين في الدنيا يضاهي الإسلام في الإلهيات فضلًا عن أن يفوقه[1].

---

(١) محمد قاسم النانوتوي، روداد ميله خدا شناسي(تقرير عن مهرجان معرفة الإله)، (الهند: مطبع قاسمي، ديوبند، ١٩٦٥م) ص ٣-٩.

آثار هذه المناظرة:

إن الإمام قد أقام بفضل الله وتوفيقه حجة الإسلام على كافة المشاركين والممثلين لدياناتهم، مما جعلهم يضطربون ويتقلبون على أحر من الجمر، حتى هرب رهبان النصارى وأساقفة الهندوس من المهرجان قبل الميعاد، وحاول الإمام كثيرا أن يبقوا إلى آخر الميعاد، ولكنهم بعد ما رأوا أن أمرهم قد افتضح وأن عقائدهم قد اتضح ضعفها وأن المشاركين كلهم قد أدركوا قوة الإسلام وموافقة عقائده للعقل السليم والطبع المستقيم، لاذوا بالفرار قبل صلاة العصر، وكان من المقرر استمرار المناظرة إلى وقت المغرب، ولما رجع الإمام النانوتوي رأى أن المناظرين قد فروا من الميدان، فألقى كلمة وجيزة، قال فيها: "أيها الناس! قد طلبت من الرهبان والأساقفة بإلحاح أن يقفوا قليلا، ولكنهم ما رضوا بذلك، لأنهم كانوا يعلمون أنهم لايملكون إجابات صحيحة عما أوردناه من الاعتراضات القوية على النصرانية، وكأنهم لا يستطيعون تحمل المزيد من الذل والخزي، فلم يجيبوا عن واحد من أسئلتنا، وقد قدمنا إجابات مقنعة عن جميع الشبهات الموجَّهة إلينا، فإن كانوا يملكون شيئا من الحياء والإيمان لايناظرون المسلمين، فقد ثبتت رسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ولم يبق لأحد عذر"[1].

وكان الناس –من أي دين كانوا– يرددون بألسنتهم أن المسلمين انتصروا اليوم، وقد لقي الرهبان هزيمة نكراء، ألحقت بهم الخزي والعار في الدولة كلها، والراهب محي الدين البشاوري الذي كان ارتد عن الإسلام، وصار ممثل النصرانية قد رجع من جديد إلى الإسلام.

(١) أسير ادروي، مولانا نانوتوي حيات اوركارنامه (الإمام النانوتوي حياته ومآثره)، ص١٩٨.

وإن هذا الانتصار الإسلامي العظيم على الديانات كلها جعل المسلمين الضعفاء الإيمان الذين كانوا ساورهم شك في المعتقدات الإسلامية جعلهم استقاموا على الصراط المستقيم، وثبتوا على الدين القويم.

رحلة الحج الأخير:

في شوال عام ١٢٩٤هـ قام الإمام برحلته الأخيرة إلى الحج، وصحبه في هذا السفر نحو مائة من مشاهير الهند وأجل علمائها؛ بمن فيهم الإمام رشيد أحمد الكنكوهي وشيخ الهند محمود حسن الديوبندي والشيخ محمد حسن الديوبندي والشيخ محمد يعقوب النانوتوي والشيخ رفيع الدين والشيخ محمد مظهر النانوتوي والشيخ سخاوت علي والشيخ محمد منير النانوتوي والشيخ أحمد حسن الكانفوري إضافة إلى جمع حاشد من عامة المسلمين، مما جعل السفر المبارك سعيدا ورائعا، وقد ذكر كُتَّابُ سيرة الإمام أنه قد ظهر أثناء هذه الرحلة ما بين الطبائع من فرق وتفاوت؛ فكان الإمام يحُفُّه عامة الناس في معظم أوقاته، فكان يفيدهم بكلماته الطيبات، وإذا انصرف عنهم انقطع إلى الذكر والتلاوة وتدبر القرآن.

وكان الإمام قد نزل في مكة عند شيخه الحاج إمداد الله، وكان يستشيره عند الحاجة، وكان هو ورفاقه يفكرون في معظم الأوقات في سبل الحفاظ على الإسلام والمسلمين في الهند، وتطوير المسلمين في مجالات العلم والدين.

وكان الإمام النانوتوي رحمه الله قد بلغ في حبه النبوي غايته، فكانت له حالة خاصة في المدينة وزقاقها وحدائقها وشوارعها ومساجدها، فكان يتجول حافي القدمين في أرض مكة والمدينة تفاديا من وضع نعاله على مواضع أقدام الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد أصابت قدميه قروح كثيرة، ولكنه لم يبال

بهذا، وكان يتغنى بالأبيات الفائضة بالحب والعاطفة الرقيقة، وكان يقول: إن كلاب المدينة هي أفضل مني بكثير(١).

وبعد قضاء المناسك و زيارة الحرمين الشريفين عادت هذه الكوكبة المختارة من علماء الدهر إلى الهند في شهر ربيع الأول عام ١٢٩٠هـ، وأصيب الإمام النانوتوي في مدينة جدة بمرض، فشعر رفاقه بأن فراق المشاعر المقدسة والحرمين الشريفين قد تمكن في قلبه، وأَثَّر في صحته، وأنه تحمل المشي علي الأقدام في أرض الحجاز مما أنهكه وأضناه؛ ولكن المرض اشتد أثناء السفر، وفي هذه الحالة نزل على ميناء ممبي، ثم عاد إلى الوطن، والمرض على ماهو عليه، لايفارقه ولاتقلُّ وطأته، وكان السعال أقلقه.

المبحث الثامن: الإمام يعود من الحجاز وتستقبله في الهند فتنة جديدة عمياء: الفتنة الآرية:

وهي فتنة المجتمع الآري(آريه سماج)، وهي حركة إصلاحية في الدين الوثني؛ بل فرقة هندوسية انشقت عن عُبَّاد الأصنام، أنشأها الباندت الشهير ديانند سرسوتي [١٨٢٤م- ١٨٨٣م]، ومن مبادئ هذه الفرقة الرد على عبادة الأصنام وتحلية النساء بالعلم وما إليها، وقد أَلَّف الباندت كتابا سَمَّاه "ستيه رته بركاش" (نور الصدق)، رد فيه على الهندوسية ردا بليغا، كما رد على كل من الإسلام والنصرانية، كان الرجل متعصبا للغاية، وهو أول من أطلق نعرة استفزازية: الهند للهندوس، مع أن الآريين ليسوا من سكان الهند الأصلاء، فهم أيضا نازحون إلى الهند من الخارج، واستوطنوا بها، ثم هم استولوا على البلاد

(١) انظر: المصدر السابق.

بقوة السيف والحديد، وأقاموا التفاوت الطبقي، وحَرَمُوْا السكان الأصلاء حتى حقوق الحيوانات، وجعلوهم عبيدا لهم، واستعملوهم فيما شاؤوا من الأعمال.

وعلى كل فإن عبادة الأصنام أمر لا يرتضيه الطبع السليم، ومن العجائب أن الباندت لما خالف عبادة الأصنام كان عليه أن ينضم إلى الإسلام، فهو الدين الوحيد الذي لايرضى بشائبة الكفر والشرك، فقد قطع الإسلام كل خيط يصل إلى الشرك؛ ولكنه كان رجلًا ذكيًا متعصبًا للغاية، فكان يريد إنشاء ديانةٍ جديدةٍ تختلف عن الجميع، وبما أنه كان يعرف أن الناس إذا تركوا عبادة الأصنام تمسَّكوا بالإسلام، فقد كرَّس جهوده في الرد على الإسلام، فاستغلَّ ما يجيش في قلوب الهندوس من معاني الكراهية والتعصُّب ضد المسلمين، واتخذه ذريعةً لنشر أفكاره، فقد التفَّ حوله جماعةٌ من الهندوس، ذات علم وذكاء، فكان يتجوَّل في المدن الهندية، ويقوم هو وأتباعه أمام مشهدٍ من الناس، يعترضون على الإسلام، ويوجِّهون إلى الإسلام ورسوله من الافتراءات والأكاذيب ما الإسلام ورسوله منه بريء.

وفي الأيام التي رجع فيها الإمام النانوتوي رحمه الله من الحجاز إلى الهند كان الباندت ديانند سرسوتي ينفخ سموم التعصب والكراهية للإسلام في مدينة روركي (الواقعة اليوم في مديرية هريدوار الهندية)، وقد تجاوز في الكذب والافتراء على الإسلام كل حد، ويتفنن في الإساءة إلى الإسلام ورسوله بأسلوب مسموم، لايتحمله أي مسلم، وقد مكث في المدينة أسابيع، أقام فيها الدنيا ولم يقعدها، يقيم حفلاتٍ، وينظِّم اجتماعاتٍ، ويتقوَّل الأكاذيب، ويتفوَّه

بالخزعبلات، ويتحدى المسلمين، ويتخذ دينَ الله هُزُوًا ولَعِبًا، ويدعو إلى ما اختلقه من دين جديد، ويفضِّله على الأديان كلها.

وزاد الطين بلة أن الباندت ألف كتابا، أودعه مباحث مكذوبة، تنال من المسلمين كل النيل، وتمس كرامتهم إلى أبعد الحدود، فقد زعم الباندت أن المسلمين هم المشركون الأكبر، حيث يعبدون الكعبة، والهندوس هم المشركوون الأصغر، كما ذكر في كتابه بشأن القرآن والرسول محمد صلى الله عليه وسلم ما تقشعر لهوله الأبدان، وصار الباندت بعد تأليفه هذا الكتاب كثير الرحلات في أرجاء الهند كلها: شرقها وغربها وجنوبها وشمالها، يدعو الناس إلى ما اختلقه من دين، وما زعمه من أكاذيب، وفي هذا الصدد كان نزل بمدينة روركي في شهر رجب عام ١٢٩٥هـ الموافق يوليو عام١٨٧٨م.

ولاشك أن الباندت ومن معه من الأعوان والأنصار كانوا قلبوا المدينة ظهرا لبطن، وأوقدوا فيها نار التعصب والاضطراب، وشعلة الفوضى والتنازع الطائفي.

وكان المسلمون في مدينة روركي يتابعون الأحداث، ويتقلبون على أحرَّ من الجمر، فكانت تجيش صدورهم بعواطف الثأر والانتقام، وتتأجج قلوبهم بالحمية الإسلامية كالشُّواظ من النار، لايُطْفِئُ لهيبَه إلا الردُّ المفحم على هذا المتطاول البذيء، فحضر علماءُ مدينة روركي الإمامَ النانوتوي، وأخبروه بما يجري فيها، والأفاعيل البشعة التي يمارسها الباندت ديانند سرسوتي.

وكان الإمام بعد رجوعه من رحلة الحج المبارك قد أضناه المرض، وأنهك قواه، فلا يستطيع السفر إلى مدينة روركي، فبعث بعض تلامذته إليها، ليطلعوا مباشرة على أوضاعها، ويقوموا بالرد على المتطاولين على

الإسلام، وكان منهم شيخ الهند محمود حسن الديوبندي والشيخ فخر الحسن الكنكوهي، وكان الباندت مقيما في داخل المخيمات العسكرية للاحتلال الإنجليزي، فذهب هؤلاء العلماء الثلاثة ومعهم مولانا منظور أحمد وبعض الأهالي المسلمين إلى المخيم العسكري حيث يقيم فيه الباندت، ويلقي على الناس كلمات استفزازية خبيثة، فقالوا للباندت: قد جاء علماء المسلمين، يحرصون على مناظرتك أمام مشهد من الناس، فقُمْ بتحديد الوقت، وشارِك في المناظرة، وأَعِدْ عليهم اعتراضاتك على الإسلام، يتناولوها بالجواب، فقال الباندت لعلماء المسلمين: لا أسمع كلامكم، فليس لي فرصة الآن، وما تحدَّيتُ أحدا، ولا أريد مباحثة أحد، نعم! إن حضر مولانا محمد قاسم فأنا مستعد للكلام معه، ولكن لا أريد المناظرة معه أيضا، فلم يرض الباندت بالحوار مع هؤلاء العلماء، فرجع هؤلاء العلماء، وبينوا للإمام ما حدث معهم.

وما إن مضت أيام إلا وجاءت رسائل المسلمين في روركي إلى الإمام تترى، يخبرونه بأن الباندت قد عاد يثير السموم ضد الإسلام، ويتحدى علماء الإسلام في كل حفلة واجتماع، ويعترض على القرآن ورسولنا محمد صلى الله عليه وسلم، وليس في المدينة من يجيب عن اعتراضاته، ثم الباندت يكثر من ذكر الإمام محمد قاسم النانوتوي، وإذا سئل عن تاريخ المناظرة يقول: يحدد مولانا محمد قاسم تاريخ المناظرة.

وقد أدرك الإمام أنه لا مندوحة من السفر، مع أن صحته كانت في اضمحلال مستمر، إلا أنه كان آخذا على نفسه خدمة الإسلام والمسلمين ولو على حساب الروح والدم، فاستعد للسفر، واصطحب معه أولئك العلماء الأربعة من تلاميذه، ووصل مدينة روركي.

الإمام في مدينة روركي:

ولما وصل الإمام إلى مدينة روركي ثارت ضجة كبيرة، حيث لم يكن الإمام من العلماء الخاملين؛ بل كان أمره قد اشتهر لاسيما بعد المهرجان العالمي لمعرفة الله في مدينة شاهجهانفور، وصيتُه قد طار في الآفاق، بل كان هذا الاسم الوحيد الذي تنخلع بذكره صدور علماء النصارى والهندوس، وكان الباندت قد جرَّب أن الإمام كيف أفحم علماء النصارى في المهرجان العالمي، وصرعهم في حلبة المناظرة صرعةً، لاتُبقي ولاتذر، أما المسلمون فقد أخذتهم نشوة الاعتزاز وغمرة الاهتزاز، فتوافدوا إلى الإمام في مدينة روركي من كل صوب وحدب، وتجمعوا حوله، وكان الإمام مقيما في المنطقة المدنية، بينما كان الباندت ماكثا في المنطقة العسكرية البعيدة عن الإمام بنحو خمسة كيلومترات، وقد أرسل الإمام رسالة إلى الباندت، يخبره بأني حضرتُ هنا، فأَسْرِعْ بتحديد موعد الحوار، وأنا راض بجميع ما تشترط للمناظرة، ولا أشترط لذلك شيئا، وإني منتظر ردك.

وبما أن الباندت لايريد المناظرة مع الإمام فصنع ألف حيلة، ولم يحدد تاريخا، ولم يذكر شيئا عن اللقاء والحوار، فأرسل الإمام رسائل عديدة؛ ولكن الباندت لم يستعد للقاء والخروج من المنطقة العسكرية، حتى أنه زجر رجال الإمام قائلا: لاتحضروني بشيء بعد هذا.

ولما رأى الإمام أن رحلته إلى هذه المدينة أوشكت أن تكون عبثا، فأراد لقاء الباندت في المنطقة العسكرية مع بعض تلامذته، وفي هذه الأيام أراد العقيد الإنجليزي المسؤول عن تلك المنطقة لقاء الإمام، فذهب الإمام مع أربعة من

أصحابه، وقد وجه العقيد إلى الإمام بعض الأسئلة، فأجاب عنها الإمام، فتأثر الإنجليزي بالإمام كثيرا، وسأله عن سبب حضور هذه المدينة، فسرد الإمام كل ما حدث، فدعا العقيدُ الإنجليزيُ الباندت إلى نفسه، ولما حضر الباندت قال له: ألا تناظر هذا العالم في جمع من الناس؟ فإنك لما كنتَ تخطب بين أيدي الناس، فعليك أن تناظره أمام الناس، فقال الباندت: إني أخشى الفساد وضياع الأمن في المناظرة أمام الناس، وكان في ذلك المكان قاضي المدينة الإنجليزي، الذي طمأَن الباندتَ على أن الأمن لايختلُّ في المدينة؛ ولكن الباندت لم يرض به بحال من الأحوال، فقال الإمام النانوتوي: إن لم ترض بالمناظرة أمام مجمع من الناس فلتجرِ المناظرة ههنا مع هؤلاء الناس، البالغ عددهم نحو اثني عشر؛ ولكن قال الباندت: ما حضرت هنا مستعدا للمناظرة، ولما علم الباندت أنَّ الإمام النانوتوي لايتنازل عن المناظرة، ولم يجد بدًا منها، فَرَّ هارباً من مدينة روركي، وانفلت الصيد من يد الإمام النانوتوي رحمه الله.

ولما علم الإمام أن الباندت قد هرب في الليل الداجي أَمَرَ تلاميذه بعقدِ حفلات دينية في شتى مناطق المدينة وتفنيدِ اعتراضات الباندت، وعرضِ الصورة الصحيحة للإسلام، لتتم حجة الله البالغة، وتعلو كلمته، وراح تلاميذه النابهون يلقون كلمات قيمات في الحفلات والمجالس لمدة خمسة عشر يوما باستمرار، ويشارك فيها عدد كبير من الناس -مسلمين وغيرمسلمين-.

وفي اليوم الآخر قال الإمام: إني أيضا سأحضر اليوم، وأتحدث بين أيدي الناس، وما إن سمع الناس هذا النبأ إلا وقد طاروا فرحا، وتوافدوا إلى الحفلة من كل صوب وحدب، وتزاحموا بشكل عجيب كأنهم سيل عارم، وألقى فيها الإمام

كلمة قيمة، أقنعت العقول وأثلجت الصدور، وشرح لهم بعض المبادئ الإسلامية بدلائل قوية جدا تنفذ إلى العقل والقلب بأدنى تدبر والتفات، وأنهى كلامه بقوله: "إن الإسلام ذهب خالص، نَقَدَه فلاسفةُ العالم وحكماؤه بميزان العقل والفلسفة في كل عصر ومصر، وسينقدونه في المستقبل، ولكن كلهم لايجدون بدا من الاعتراف بأن علو الإسلام ومبادئه تسمو فوق جميع الأديان سموا لايعتريه أي تردد وارتياب، وأن الإسلام قد صنعه الصانع الخبير اللطيف الذي يطلع على جميع سرائر الفطرة الإنسانية".(١)

وقد خطب الإمام لمدة ثلاثة أيام متواليات، وقد شارك فيه كل من المسلمين والهندوس والضباط الإنجليز ورجال الأمن والسياسة، وقد أثبت الإمام على أَتبَاع جميع الديانات أن حجة الله قد قامت، ولا يسع أحدا الآن إلا أن يتمسك بالإسلام إذا أراد الخير والسعادة في الدارين.

الباندت ديانند سرسوتي في مدينة ميروت:

وبعد شهور قد أثار الباندت في مدينة ميروت نفس الطوفان، الذي أحدثه في مدينة روركي، والإمام النانوتوي كان لايفارقه مرض بعد عودته من الحجاز؛ ولكن المسلمين قد نَفِدَ صبرهم، وعزموا على إفحام هذا الكذاب اللعين، الذي يفتري على الإسلام أكاذيب بدون حياء، فألَحُّوا على الإمام أن يلبي دعوتهم، ويقوم بهذا العبء العظيم، فحضر الإمام مدينة ميروت في شهر شعبان عام ١٢٩٦هـ الموافق يوليو عام ١٨٧٩م، وشاء الإمام أن لاتضيع لحظة

(١) أسير أدوري، امام محمد قاسم نانوتوي حيات اور كارنامي(الإمام محمد قاسم النانوتوي حياته ومآثره)، ص٢٠٦-٢١٢.

من أوقاته الثمينة، فسأل عن مقر الباندت، ولما علم بادر إلى لقائه بدون تاخير، ولقي الباندت قائلا له: عليك بتحديد الوقت والمكان الذي يجري فيه الحوار بيننا، قال الباندت: لا أريد الحوار في مكان عام، فإني أخشى اندلاع الاضطراب الطائفي، فقال الإمام: إذا كنت تبث السموم في ملأ من الناس لايحدث الاضطراب، مع أن كلامك المحشو بالأكاذيب والافتراءات أحق أن يثير ضغائن القلوب، فكيف ظننت أن حواري الهادئ يسبب الاضطراب والصراع الطائفي؟ إلا أنه لم يرض بالحوار في جمع من الناس، فقال له الإمام: أخبرني بكرة عن الزمان والوقت بعد تفكر، ولكن ما إن طلع الفجر حتى شاع الخبر أن الباندت قد فرَّ هاربا من مدينة ميروت.

وقد جمع الشيخ عبد العلي الميروتي تفاصيل هذا السفر ووقائعه في كتاب مستقل، سماه "جواب تركي به تركي" (الرد المفحم).

المبحث التاسع: الأيام الأخيرة من حياة الإمام:

وقد سبق أن الإمام بعد عودته من رحلة الحج المبارك عام ١٢٩٥هـ لايفارقه مرض، وينهك قواه، وفي عدة مواضع تم إيقاف السفينة ليتم علاجه في المدينة المجاورة للشاطئ، ولما بلغ الإمام قريته نانوته ذهب بعض ما يعانيه من الأمراض؛ إلا أن السعال وضيق النفس قد تمكَّنا منه كل التمكن، ومع هذا كله كان يجلس لتدريس الأحاديث النبوية الشريفة، كما أنه في هذه الحالة سافر إلى كل من مدينة روركي ومدينة ميروت، ليفند اعتراضات الباندت ديانند سرسوتي، ويحفظ المسلمين من الردة الفكرية؛ ولكن المرض مازال يعمل عمله طيلة هذه المدة، واضمحلت صحته باستمرار، فبدأ الطبيب النطاسي الشهير

مشتاق أحمد الديوبندي –وكان من محبي الإمام ومعتقديه– علاجه ورعايته، وتولى أمر العلاج بكل دقة وعناية، إلا أن المرض قد اشتدت وطأته مع الأيام.

وفي هذه الفترة بلغ الطبيب عبد الرحمن –وكان من مشاهير الأطباء في مدينة مظفرنكر–نبأ مرض الإمام، وكان هو الآخر من محبي الإمام، فدعا الإمامَ إلى بلدته، فنزل الإمام عنده ضيفا، وقد بذل عناية فائقة في علاج الإمام؛ وبدا في البداية أن العلاج يفيد صحة الإمام، ولكن سرعان ما عاد المرض وشدته، حتى بلغ الضعف منتهاه، وعاد الإمام لايقدر على القيام والقعود؛ غير أنه بقي على عزمه الأكيد وهمته الفولاذية، يحاول التغلب على المرض، ويتحمل شدته بصبر وأناة.

وفيما كان الإمام يعاني من مرضه بلغه أن أستاذه المحدث الشيخ أحمد علي السهارنفوري قد أصيب بالفالج، فاضطرب كثيرا، وأصرَّ على الذهاب إلى سهارنفور، وقد حاول الأطباء بقوة أن يصدوه عن هذا العزم؛ ولكنه لم يتنازل عنه بحال، فراح إلى سهارنفور يعود أستاذه المريض، ورجع في نفس اليوم مساء، وبعد أيام رغب مرة أخرى لعيادة أستاذه، وفي هذه المرة لم يعارضوه، وتركوه وشأنه، فحضر إلى أستاذه، الذي أفاق قليلا من مرضه، وعاد يتحدث، فقال للإمام: امكث عندي بضعة أيام، فمكث هناك خمسة عشر يوما، ثم اشتد مرض ضيق النفس، مما دفعه إلى العودة إلى ديوبند، وراح الأطباء يحاولون استعمال كل حيلة وتدبير، ويبذلون أقصى ما بوسعهم من علاج، والمرض بين تصاعد وتنازل، حتى أغمي عليه في الثاني من جمادي الأولي عام ١٢٩٧هـ، وبقي على هذه الحالة.

وقد أصدر الشيخ رفيع الدين رئيس دار العلوم ديوبند إعلانا يفيد محبي الإمام وأحبابه بأن الإمام يلفظ أنفاسه الأخيرة، فتوافدوا إلى ديوبند، وتجمع عدد هائل من الناس منهم علماء كبار وعامة الناس؛ حتى طلع اليوم الرابع من جمادى الأولى عام ١٢٩٧هـ الموافق أبريل عام ١٨٧٩م، الذي ترك بصمة غائرة على تاريخ الإسلام والمسلمين في الهند، حيث لفظ الإمام في نفس اليوم بعد صلاة الظهر آخر أنفاسه، وقد تم تذكيره بصلاة الظهر فلم يستطع غير أن قال: حسنا، ثم أجاب داعي ربه، مفارقا أحبابه إلى دار الخلود في الرابع من جمادى الأولى ١٢٩٧هـ، الموافق ١٥/ أبريل عام ١٨٨٠م في يوم الخميس. إنا لله وإنا إليه راجعون.

وقد طار هذا النبأ في الهند كلها، واكفهرَّ الجو الهندي، وشعر الناس بأنه قد طُوي بوفاته عهد، وسقط عمود عظيم من الصرح الإسلامي.

وصُلي عليه بعد صلاة العصر، ودُفن في أرض قريبة من دار العلوم ديوبند، ثم صارت الأرض مقبرة، تضم كبار علماء ديوبند، وتسمى اليوم بالمقبرة القاسمية.

رحمه الله رحمة واسعة، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

زواجه وأولاده:

قد تزوج الإمام النانوتوي كريمة الشيخ كرامت حسين في ديوبند عام ١٢٧٠هـ الموافق عام١٨٥٣م، وكانت زوجته على الرغم من أنها كانت تربت في حضن النعم والترف، ولكنها تعودت مع الإمام على حياة السذاجة والزهد، وكانت سخية نفاحة اليدين.

أما أولاد الإمام فقد وُلد له ابنان وثلاث بنات: أسماؤهم: ١-مولانا الحافظ أحمد ٢-والحافظ محمد هاشم ٤-إكرام النساء ٥-رقية ٦-عائشة[1].

وكان الشيخ الحافظ محمد أحمد القاسمي رئيس الجامعة الاسلامية دارالعلوم ديوبند، وقد لقيت الجامعة في عهده تطورا كبيرا، ثم خلفه ابنه الشيخ المقرئ محمد طيب القاسمي، فكان أطول رئيس في تاريخ الجامعة وطوَّرها تطويرا مدهشا.

أقوال رائعة في تاريخ وفاة الإمام:

ومن عادة علماء الهند أنهم يؤرخون تاريخ وفاة الأعلام بجملة ذات معنى رائع أو آية قرآنية أوحديث نبوي أوقول مأثور أوشعر مقبول، ومما قيل في تاريخ وفاة الإمام النانوتوي:

- "وقد انطفأ سراج وهاج"(كيا جراغ غل هوا) قاله الشيخ محمد يعقوب النانوتوي.

(١) انظر: محمد أويس الصديقي النانوتوي، شجرة الأسرة الصديقية بنانوته، (الهند: جمعية الإمام محمد قاسم النانوتوي نانوته)، ص٥١، ولكن كتاب سيرة الإمام اختلفوا في عدد أولاده، فكتب محمد أسعد التهانوي في كتابه مولانا محمد قاسم نانوتوي كي علمي وديني خدمات أن له ثلاث بنين وثلاث بنات وزاد محمد ميان، انظ: كتابه، ص٥١؛ بينما الأستاذ أسير الأدوري ذكر في كتابه باللغة الأردية أن الإمام له عشرة أولاد، ذكر منهم أسماء ثمانية، وهم: محمد هاشم، محمد ميان، حافظ أحمد، رفيعه، خديجه، مريم، عائشه، إكرام النساء، ووصف البنتين الباقيتين بـــ مجهولة الاسم، انظر: اسير ادروي، امام محمد قاسم النانوتوي حيات اور كارنامي، ص٢٢٧.

- وفات سرور عالم كا يه نمونه هى (وفاته تحكي وفاة سيد المرسلين) قاله الشيخ فضل الرحمن العثماني.
- وفيه نظم الشيخ فضل الرحمن قطعة رائعة باللغة الأردية، وفيما يلي ترجمتها:

إن فاجعة وفاة الإمام محمد قاسم رئيس نادية الهداية نزلت على كل طالب حق وعاشق للهداية نزول الصاعقة؛ فهي حادثة أصابت مجالس الدين والعرفان بحزن مُمِضٍّ امتد أثره من الأرض إلى السماء.

إلا أن رحمة الله الواسعة التي سيسعد بها قبرك تعطي أحبابك وتلاميذك صبرا وعزاء، وقد كتب فضيل(اسم الشاعر) تاريخ وفاتك فقال: وفاتك تحكي وفاة إمام الرسل عليه الصلاة والسلام.

الفصل الثالث:

أخلاقه – مؤلفاته

المبحث الأول: أخلاقه وشمائله:

كان الإمام النانوتوي رحمه الله رجلا عظيما في عاداته وشمائله، فقد كان قبل كل شيء إنسانا نبيلا، يحمل بين جوانحه المعاني الخُلُقية الشريفة، وقد رزقه الله من التواضع وكسر الذات والزهد في الدنيا والقناعة بما عنده، والسخاء والكرم والحياء والسذاجة وعدم التكلف والقرى والاستضافة والمداراة ومساعدة الآخرين والاستغناء والثقة بالنفس والبصيرة والنظرة البعيدة المدى ما يجعله رجلا مثاليا، ويصنفه ضمن العلماء السابقين الكبار، وقد شهد بذلك كلُّ مَنْ صحبه طويلا وشاهد ليله ونهاره، واطلع على نشاطاته في الجلوة والخلوة.

وكان يقول المرشد الرباني الكبير الشاه فضل الرحمن الكنج مرادآبادي: "إن مولانا محمد قاسم قد أوتي الولايةَ في عنفوان شبابه"، والولاية (أي كون الإنسان لله وحده والاستغناء بولاية الرب عن جميع أنواع الولاء والانتماء) منصب عظيم، بل هي غاية التصوف، لايرتقي إليها الإنسان بعد جد جهيد؛ بل بعد كل هذا ليس من الضروري أن يبلغ الإنسان هذه الغاية القصوى من الروحانية.

ولكن يصدِّق هذا القول من اطلع على أحواله في مدينة دلهي، وعمره لم يتجاوز العقد الثاني، فقد ذكر الشيخ محمد يعقوب النانوتوي رحمه الله صورًا صادقةً من حياته في دلهي؛ حيث كان رفيق صباه، وزميل دروسه، يعيشان في مكان، يجمعهما وطن وقرابة، فهو يكتب عن صدقٍ ومشاهدةٍ دون خرصٍ

ومجازفةٍ، وقد اتفق العلماء على أن الإمام كان يتمتع بصفاتٍ حميدةٍ وشمائل كريمةٍ، ومن الممكن أن أُلخِّص شمائله في السمات التالية:

السذاجة وعدم التكلف:

كانت السذاجة طبيعة الإمام وديدنه، فقد اشتهر بسذاجته وقلة تكلفه، كان يستعمل من الملابس أخشنها وأرخصها، يرتدي قميصًا خشنًا، وإزارًا أزرق، ولم يكن يتخذ في قميصه أزرارا، كما أنه لم يلبس شيئًا من الطيلسان والعمامة والرداء كعامة العلماء، ولم يكن يملك أكثر من حلتين، وإذا عرض له سفر يسافر بما عليه من لباس، وكان يصطحب إزارًا زائدًا، يكون مُلقىً على كاهله، فإن اتسخت ثيابُه يتَّزِر بالإزار، ويغسلُ الثياب، ثم يلبسها إذا جفَّت، وهكذا عاش حياته كلها، كان أبعدَ الناس عن زي العلماء وملابسهم وعمائمهم وطيالسهم.

وهذا النوع من السذاجة وعدم التكلف ربما عرَّضه لبعض الحوادث العجيبة، ومنها:

"أن الإمام كان ذاهبا إلى قريته نانوته، مرتديا قميصا خشنا بلا أزرار وإزارا أزرق، فظنه حائك أنه من قبيلته وأنه عائد من السوق بعد بيع البضائع، فسأله: ما هو ثمن الخيط في السوق اليوم؟ أجاب الشيخ بكل هدوء: أخي! ما ذهبت إلى السوق في هذه الأيام، فلا أدري شيئا عن ثمنه"(١).

فكانت السذاجة طبيعة ثانية له، وكان الإمام أعرف الناس بما اعتاده علماء عصره من مأكل وملبس وعادات؛ لكنه كان يبتعد عنه عن قصد، فقد

(١) المصدر السابق، ص٢٦.

كتب في رسالة له: قد حضرت منزل المولوي حامد حسين اللكنوي وكنت كعادتي متجردا من العمامة والطيلسان"(١)

وقد ذكر تلميذه شيخ الهند محمود حسن الديوبندي بشأن ملبس الإمام ومأكله وعاداته ما شاهده بأم عينيه، حيث كتب: "لايوجد في حجرة الإمام شيء يُذكر سوى حصير قديم متقطع، اصطفاه الإمام للحياة كلها، فلاصندوق ولا حزمة للثياب"(٢).

ويذكر شيخ الهند إحدى رحلات الإمام فيقول: "كان لايهتم بشيء للرحلة، فكان يسافر بلباسٍ كان يرتديه من قبل، نعم! يصطحب إزارًا، فإذا اتسخت ثياب، يتَّزر بالإزار ويغسل الثياب بنفسه"(٣)

كان الشيخ أحمد حسن الأمروهوي المحدث من أخصِّ تلامذة الإمام، قد تلقَّى من الإمام علمَ الحديث في مدينة ميروت، وكان مرافقًا للإمام في رحلته إلى شاهجهانفور، فهو يذكر شيئًا عجيبًا، يبعثنا على الحيرة والاستعجاب، فيقول الشيخ الأمروهوي: " يتخلَّل نهرٌ بين مدينة شاهجهانفور وبين المكان الذي تقرر فيه عقد مهرجان معرفة الله، وسار الإمام ماشيًا على قدميه، ومعه بعض أصحابه، فنزل في النهر مع سرواله، وإذا جاوز النهرُ اتَّزر بإزاره، وعصر السروالَ ليُخرِج ماءَه، وألقاه على عصاه للتجفيف كالقرويين، وهكذا قطع المسافة كلها"(٤)

(١) الإمام محمد قاسم النانوتوي، فيوض قاسمية، ص٥؛ وأسير أدروي، الإمام محمد قاسم النانوتوي حياته ومآثره، ص٢٣٦.
(٢) الكيلاني، مناظر أحسن، سوانح قاسمي، ج١، ص٤٥٢-٤٥٣
(٣) المصدر السابق.
(٤) المصدر السابق، ص٢٣٨.

وكان من عادته كذلك في السفر أنه لايتقدم على أصحابه، ويعيش بينهم كواحدٍ منهم، حتى ربما كان لايعرفه القادم من الخارج، فكان يبادر إلى مصافحة غيره، وكذلك كان من عادته أنه لم يستخدم الشمسية وأنه كان يسافر دائمًا ماشيًا على قدميه ولو كانت المسافة شاسعةً.

يقول الشيخ محمد يعقوب النانوتوي رحمه الله: قد رزقه الله ملكةً عجيبة للضبط والتحمل، فكان لايتلفظ بكلمة، ترمز -ولو من بعيد- إلى مدح نفسه، والإعجاب بذاته، ولايختار في هيئته وأسلوبه ما يدل على شيء من الزهو والاعتزاز، لافي الخلوة ولا في الجلوة، لا فيما بين أصدقائه ولا فيما بين الأجانب"(١)

وحكى الشيخ محمد يعقوب النانوتوي رحمه الله قوله في هذا الصدد: لولا أن التصقتْ بي تهمةُ العلم لمحوت نفسي بشكل لاتعرف الدنيا أن رجلا باسم القاسم ولد في الدنيا"(٢)

التواضع وفناء الذات:

كان غاية في فناء الذات، فقد طُبِعَ على كراهية الشهرة وحب الخمول، فقد ذكر الشيخ محمد يعقوب النانوتوي رحمه الله قِصَّته عند ما كان يعمل في دلهي مصححًا للكتاب: كان دأبه عند ما كان يعمل في مطبع الشيخ مولانا أحمد علي السهارنفوري أنه إذا ناداه أحد بالمولوي محمد قاسم لايجيب عنه، وإذا ناداه بالقاسم يتوجه إليه ويسُرَّ به ويجيب عنه"(٣)

(١) النانوتوي، محمد يعقوب، سوانح عمري، ص ٣١-٣٤.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق، ص٣١-٣٤.

كان يضطرب من التعظيم، ويعيش بلاتكلف، وذات يومٍ دعاه أحد مساكين ديوبند إلى العَشاء، ومن المصادفة أن المطر الغزير قد انهمر في المساء نفسه، فظن الداعي أن الإمام لايحضر في هذه الحالة، فلم يهتم بإعداد الطعام، ولم يذهب لإحضاره، وظل الإمام ينتظره، حتى ارتدى رداءً صوفيا، والتحف به، وأخذ النعلَ بيده، والسماء تمطر كأنها لاتقف، حتى سالت الشوارع والسكك، وطرق باب الداعي المسكين، فخرج، ولما رأى الإمام طار لبُّه، وقد أدرك الإمام حقيقة الأمر فطمْأَنه، وقال له: لاداعي للاستحياء؛ بل هات ما عندك من طعام، فأحضر الخبز والعدس، فتناوله الإمام بشوق ورغبة كأنه يأكل أشهى الأكلات وألذَّها، ويحمد الله ويثني على الرجل، ويدعو له بالخير والبركة، ثم رجع والسماء تمطر وابلا من الصيب[1]

وقد يدل على ما يتمتع به الإمام من تواضع وكسر الذات ما حكاه عن الإمامِ الشيخُ محمد أشرف علي التهانوي بقوله: كان الإمام محمد قاسم النانوتوي يقول: لايعظ الناسَ إلا اثنان: أحدهما محقق، والآخر قليل الحياء، ثم يقول: إني أعظ الناس لأني قليل الحياء"[2]

مع أن الدنيا كلها تعرف أن الإمام كان خطيبًا ذلق اللسان، كان في خطبه ومناظراته آيةً من آيات الله، وحجة الله في الأرض، وأنه في كلامه يأتي بها تعجز عن إدراكه الأفهام، ويشرح من الحقائق الدينية والأسرار الشرعية ما بقي خافيًا على كثير من علماء الإسلام، ومن هنا كان الناس يحيطونه باحترام وتقدير فائقين، وإذا تمَّ

(١) أسير أدروي، الإمام محمد قاسم النانوتوي حياته ومآثره، ص٢٤٠.

(٢) الكيلاني، مناظر أحسن، سوانح قاسمي، ج١، ص٣٩٩.

إعلان خطبته في مكان يُهْرَع الناس إليه من كل صوب وحدب، وفي إحدى حفلات مدينة رامفور إذا أُعْلن اسم الإمام طار الناس إلى الحفلة زرافاتٍ ووحدانًا، ولم يبق في البيوت غير الأطفال والنساء، وكذلك في مدينة شاهجهان فور، حيث انعقد مهرجان معرفة الله، وخُطَبُه في المهرجان ومنهجه في سوق الدلائل وتفنيد الاعتراضات الواردة على الإسلام لَحَرِيَّةٌ بأن تُكتب بماء الذهب، فكان الشيخ حقا مؤيّدا من الله؛ لكن مع هذا كله يصف مواعظه بالتفاهة، ويصف نفسه بقلة الحياء.

أرسل بعض محبيه رسالة إلى الإمام، يذكر فيها اعتراضات الشيعة على السنة، ويطلب إلى الإمام الإجابات المقنعة عنها، فرد عليه بقوله: "أسفا أقول: لوكان رجلٌ كتب لكم كل هذا لكان أفضل؛ فإني- كما عرفتم- لستُ بذي علم"(١)

وفي رسالة له إلى الشيخ نصر الله خان الذي طلب منه فتوى بشأن إيمان يزيد وينقص قال الإمام: "قد وردت رسالتكم الكريمة، فسررت بها؛ إلا أني بقيت في حيرة؛ حيث لم أكن عالما ولا محققا، فلماذا كلفتموني بهذا؟ فلا أصدرُ فتوى، ولا أملك آلياتها من الكتب ومخطوطات المتقدمين والمتأخرين، مما يؤهلني لكتابة الفتوى"(٢).

إكرام الضيف:

إن ازدحام مختلف أطياف الناس على عتبة عَلَمٍ من أعلام الأمة ليس مما يثير العجب؛ ولكن إكرام الضيف والتعامل معهم برفق وهدوء أمر يكشف عن أخلاق الرجال وسعة صدورهم.

---

(١) الإمام محمد قاسم النانوتوي، فيوض قاسمية، ص٧.

(٢) أسير أدروي، الإمام محمد قاسم النانوتوي حياته ومآثره، ص٢٤٢.

وكان الإمام النانوتوي رحمه الله معروفا بالقِرى وإكرام الضيف مع قلة الدخل وعوز الإمكانيات، فقد اعتاد حياة خشنة، وكان الإمام يملك أراضي واسعة، يتعهد بها أبوه الشيخ أسد علي، وكان إذا وردت المحصولات الزراعية يوزع القدر الكبير منها على المساكين من أقاربه وذويه، وقد ازداد إقبال الناس عليه في أواخر حياته فعاد الإمام يسعهم بالقرى والإكرام والاستضافة الكريمة، بل كان لايأكل الطعام حتى يأتي الضيف(١).

ومن ثم ذكر الشيخ محمد يعقوب النانوتوي أن الضيافة والحفاوة بالضيوف تنتهيان على الإمام، مما يدل على كثرة الضيوف وعناية الإمام بهم. يقول الشيخ محمد يعقوب النانوتوي رحمه الله: كان الضيوف يردونه من بلاد دانية وقاصية، وكان منهم أمير وفقير؛ إلا أن الإمام لايضيق بهم ذرعا، بل يعاملهم بترحاب صدر وطلاقة وجه، بل كان سروره أكثر عندما زاد الضيوف، وينتظر الضيف إذا لم يكن لديه نزيل"(٢).

وقد مر أن الإمام كان بسيطا قليل التكلف في حياته، فيتناول من الأشياء أبسطها وأقلها تكلفا في المأكل والمشرب والملبس، إلا أنه كان يتكلف للضيوف، ويهتم بأمورهم اهتماما بالغا، يقول الشيخ محمد يعقوب النانوتوي: كان لايتكلف لنفسه، وإنما يتكلف للضيوف، وإنما كان يقدم للضيوف "بلاؤ"، وهو طعام شهي مصنوع من الأرز، ويقول لهم: ما تكلفت لكم طبخ الأرز؛ وإنما هو من محصولاتنا الزراعية"(٣)

---

(١) انظر: أسير أدروي، الإمام محمد قاسم النانوتوي حياته ومآثره، ص٢٤٣.

(٢) الكيلاني، مناظر أحسن، سوانح قاسمي، ج١، ص٥٦٧.

(٣) المصدر السابق، ج١، ص٥٧١

وكان من دأب الإمام كذلك أنه كان يوفر للضيوف ما يتهيأ له، وذات يوم أحضر الإمام سمنا وكهجري(وهو نوع من الطعام المصنوع من الأرز والعدس)، فقال الإمام رشيد أحمد الكنكوهي: ما أكثر السمن! فأبقى نصفه وأعاد النصف الآخر.

وكان إذا ورده ضيف يسأله: هل أكلت؟ وإذا قال: لا، يُطعمه بما تهيأ له، وفي يوم من الأيام ذكر كبار العلماء جوده وسخاءه، فقال: هذا راجع إلى أم أحمد(زوجته).

يقول الشيخ محمد يعقوب النانوتوي في كتابه عن الإمام: "ثم أنعم الله عليه ما أنعم، ورزقه من فضله رزقا واسعا، فكان يقدم ما يكسبه من أموال إلى هذه الزوجة الأبية الصالحة – حفظها الله- التي تعودت الجود والسخاء، وزادت قِرى حضرة الشيخ رونقا وبهاء، فلا أعرف ضيفا نزل عليه في أية ساعة من ليل ونهار إلا نال حظه مما لذَّ وطاب، ولم يستنكف حضرة الشيخ أن يعترف – وبكل صراحة- بأن قراه يرجع إلى والدة أحمد – نجله الأكبر-، وقال: إنها تسبقني في الإضافة والقرى.

"وكانت نانوته تحتضن مزارع كثيرة جدا تنبت الزرع، يملكها حضرة الشيخ، فكان يقول لضيوفه: ما تكلفنا في إعداد الرز لأجلكم شيئا، وإنما يغل لنا الأرز أراضينا المترامية الأطراف هذه، فأعددناه وقدمناه لكم، وكان يغلو في نفقات الضيافة.

"فذات مرة قُدِّمَ إلى المائدة شيء وافر من السمن مع كهجري–وهو طبيخ معروف مزيج من الرز والعدس- والضيوف يبلغون عشرة أو خمسة، فاستكثر الشيخ رشيد أحمد، فنصَّفه نصفين، نصفا أمسكه، ونصفا أرسله إلى البيت.

"وذات يوم أراد أن يعلف بعض الدواب التي قدم عليها الضيف، فطلب حمصا فلم يجده، وفي البيت حمص كابلي(وهو يعتبر من أنفس أنواع الحمص)، فأمر برضِّه، فرُضَّ، فقدمه علفا للدابة، وهكذا بلغ الشيخ من القرى والضيافة منتهاها"[1].

شفقته على الضعفاء والمساكين:

هذا جانب هام من جوانب حياة الإمام، فقد اعتاد حياة بسيطة، لاتكلف فيها ولا رياء، كان طيب الخلق، حلو المعاشرة، شديد العناية بالضعفاء والمساكين، يساعدهم ماديا ومعنويا، ويأخذ بأيدهم لدى الحاجة، ويقف بجانبهم، ويشاطرهم أفراحهم وأتراحهم، ويُؤْثَرُ في هذا عن الإمام كثير من القصص والأحداث، ومنها ما يلي:

١- ذات يوم نزل عند الإمام طائفة من الضيوف، ولما بُسطت المائدة أراد الإمام أن يقوم بتغسيل أيدي الضيوف، فتقدم رجل، ليتولى هذا العمل؛ ولكنه ترك شيخا مسكينا طاعنا في السن، ففطن الإمام لهذا الإهمال الذي منشؤه ليس إلا مسكنته، فأسرع إليه وغسَّل يده بكل أدب واحترام"[2].

٢- نزل الإمام مرة عند الشيخ مهربان علي وكان رجلا صالحا يحب العلماء من أثرياء المدينة، وكان من المقرر كلمة الإمام بعد صلاة العشاء، فجاء سائل يتسوَّل رافعا صوته، فمنعه الموظفون؛ ولكنه لم ينتهِ، فزجره أحد الموظفين ولطمه لطمة قوية، فرجع السائل باكيا، وبلغ هذا النبأ الإمامَ، فدعا الموظف، وزجره قائلا: لماذا ضربت المتسوِّل المسكين؟ أتخلد أنت في الدنيا؟

---

(١) النانوتوي، محمد يعقوب، سوانح عمري، ترجمة: عارف جميل المباركفوري، ص٦١-٦٢.

(٢) الكيلاني، مناظر أحسن، سوانح قاسمي، ج١، ص٤٦٠.

ألست تقوم أمام الله رب العالمين؟ ثم خرج من القصر إلى صحراء، واستظل بشجرة، ولما علم الشيخ مهربان علي كل ذلك اضطرب كثيرا، ولا يستطيع أن يكلمَ الإمامَ في هذا الشأن، فلم يجد الشيخ مهربان علي بدا من أن يأتي ذلك المتسول فيرضيه بخمس روبيات، ويرجو منه أن يعتذر للإمام عن الموظف حتى رضي الإمام ووعظ الناس"(١).

المزاح:

كان الإمام يجمع بين الجد والمزاح، فكان منبسط الوجه، ظريف الطبيعة، ويذكر الشيخ أشرف علي التهانوي رحمه الله في هذا الصدد "أن الإمام محمد قاسم النانوي كان مجلسه عبارة عن اللطائف والظرائف والمُلح والنوادر، ويبدو الإمام بين تلاميذه ورفاقه أنه كواحد من الناس يجب الفكاهة والظرافة"(٢).

ويكتب الحاج فضل حق الديوبندي الذي شغل منصب خازن الجامعة في عهدها الأول، وقد رقِّي إلى منصب رئيس الجامعة لفترة قصيرة: إن أعضاء مجلس الإمام يتمثلون في تلامذته ومحبيه، وكان يعاملهم الإمام معاملة الخلان والأصدقاء، وكان يحترمهم احترام الصغير للكبير، أو احترام التلميذ للأستاذ، وكان يناديهم بأسمائهم الكاملة، ويزيد كلمات الاحترام نحو "ميان" أو "صاحب"(٣)، ولم يقل أبدا: هذا تلميذي، بل يقول: هذا رفيقي و محبي"(٤).

(١) المصدر السابق، ج١، ص٤٦٢.

(٢) المصدر السابق، ج١، ص٤٦٢.

(٣) وهي كلمات التعظيم والاحترام باللغة الأردية.

(٤) وليعلم أن كتاب الشيخ فضل حق مازال في طي الخفاء والكتمان، وقد نقل عنه الشيخ مناظر أحسن الكيلاني في سوانح قاسمي، وأسير ادروي في كتابه حول الإمام على صفحة ٢٤٨.

المداراة والملاطفة:

يُرى أن كثيرا من أكابر الناس وعظمائهم لايتورعون عن إطلاق كلمات غلاظ بشأن مخالفيهم، ودفع السيئة بالسيئة ليس في الخلق الحسن من شيئ، وكان الإمام مثالا للخلق النبيل والتأدب حتى مع المخالفين، فكان يذكرهم بخير وألقاب عالية، يقول الشيخ أشرف علي التهانوي رحمه الله: إن رجلا في مدينة ميروت قال للإمام النانوتوي: حضرتك لايحتفل بميلاد النبي صلى الله عليه وسلم، فما بال الشيخ عبد السميع الرامفوري يحتفل بعيد الميلاد، ولايتبع العلماءَ الأجلةَ؟

فرد عليه النانوتوي قائلا: يبدو أنه أكثر الناس عشقا للرسول صلى الله عليه وسلم"، ودعا لنفسه قائلا: رزقني الله مثل هذا الحب" ولما بلغ الشيخ عبد السميع هذا الجواب فاض لسانه بكلمة جميلة: ما أجدر الناسَ أن يحبوه ولا ينازعوه".[1]

وهناك رواية أخرى، يرويها الشيخ محمد أشرف علي التهانوي، فيقول: كان رجل من رجال التصوف يمارس من البدع والمنكرات ما أفتى علماء ديوبند بضدها، جاء الرجل ليزور الإمام النانوتوي، ونزل عنده ضيفا، فرحب به الإمام، وتلقاه بطلاقة وجه وانشراح صدر، وحذَّر تلاميذه من مناظرته في المسائل الخلافية؛ فقد جاء ضيفا لا مناظرا، والضيف أجدر بالإكرام والحفاوة"[2].

(١) أسير أدروي- الإمام محمد قاسم النانوتوي حياته ومآثره، ص٢٥٠؛ الكيلاني، مناظر أحسن، سوانح قاسمي، ج١، ص٤٧٢.

(٢) أسير أدروي، الإمام محمد قاسم النانوتوي حياته ومآثره، ص٢٥٠؛ الكيلاني، مناظر أحسن، سوانح قاسمي، ج١، ص٤٧٢.

كان في مدينة بدايون بولاية أترابراديش عالم شهير، اسمه مولانا فضل رسول البدايوني، وكان من أشد الناس قولا ضد علماء ديوبند، وأسبقهم في توجيه التهم والافتراءات إلى هؤلاء العلماء بسبب منعهم من ممارسة البدع والخرافات، فوصفه أحدٌ أمام الإمام النانوتوي بأنه فصلُ رسول، يعني إنه يفصل الناس عن الرسول، ويشغلهم بالبدعة، فسأله الإمام: بأي اسم يذكُرُه الناس؟ قالوا: فضل رسول، فزجره بقوله: ما الذي دفعك إذاً إلى هذا الوصف الشنيع؟[1]

وهذا الأسلوب يعلِّمنا كيف نختلف، وكيف نتأدب مع المخالفين، فكان الإمام مضرب المثل في أدب الحوار والتأدب مع المناوئين.

المبحث الثاني: مؤلفاته وقيمتها العلمية:

خلَّف الإمام النانوتوي مصنفات علمية قيمة، تبلغ زهاء ثلاثين، وهي مآثر علمية عظيمة، جِمَاعُها العلم العميق والحكمة الدقيقة والفلسفة المؤيدة بالحجج والبراهين، والرد على الاعتراضات المثارة ضد الإسلام، وقد وصفَ كبار العلماء والباحثين معارف الإمام وما تحويه من علم وعقل وحكمة وفلسفة، وصفوها بـــ"الحكمة القاسمية".

كان الإمام قبل كل شيء فيلسوفا إسلاميا، يستطيع شرح الفكر الإسلامي بأسلوب عقلي سائغ، وكان من السهل عليه أن يفند الاعتراضات الواردة على الإسلام بشكل يفحم المعترضين على الإسلام، ويجعل الاعتراضات تذهب هباء منثورا، بل يبدو أن مثل هذه الاعتراضات لايوردها إلا من حُرم كلا من العلم

(١) المصدر السابق.

والعقل، وطُبِع على العناد والمكابرة، وفي كتبه من الشواهد على هذا القول مايغنيك عن المزيد.

كما أن الإمام كان يتابع المناهج الغربية المستوردة في الرد على الإسلام، ومدى تأثيرها في العقول والنفوس، فأجرى كثيرا من التعديلات في المنهج الكلامي القديم، وصاغه صياغة جديدة، تلبي حاجات العصر، وتقطع ألسنة الخصوم، وترحب بكل اعتراض وافتراء، لتقضي عليه القضاء العلمي الأخير، ليبقى جاثما على الأرض بلاحراك، فما إن تحرَّك دعاة النصرانية والهندوسية في الهند ومعهم كومة من الافتراءات والأكاذيب إلا وجدوا أن قوس الإمام موتَّرة، وسيفه مُشْهَر، وفرسه مُسرج، وهو مستعد كل الاستعداد لمواجهة التحديات، وقطع الأوهام بالحجج الأبلج، وفعلا نازلهم في الميدان، وأفحمهم على رؤوس الأشهاد، وبقي منهجُ الإمام في الدفاع عن المعتقدات الإسلامية متينًا محكما، لا تزعزعه العواصف، ولا تصدِّعه التيارات الفكرية الحديثة الجارفة.

فالمآثر العلمية للإمام ليست إلا نهرا عذبا، من شأنه أن يروي الغليل ويشفي العليل، ويرسي دعائم الإسلام، ويُحكم بنيان الدين، ومعينا علميا فائضا، تتفجر منه الأنهار والينابيع؛ مما يؤكد على العاملين في مجال الفكر الإسلامي الاعتناء البالغ بكتب الإمام كمصدر هام، ينير لهم السبيل، وييسر لهم المهمة، ويعطيهم من البصيرة والحنكة والمنهج العلمي والعلمي والمواد والبراهين ما يكون لهم زادا وعونا كبيرا في طريق الدعوة إلى الله.

فقيمة مؤلفات الإمام مكنونة في أن مِنْ مقدورها أن تزوِّد كل مفكر إسلامي معاصر بما يحتاجون إليه من منهج صحيح وبراهين قوية وأسس متينة للبيان، وهذا أمر قد شهد به جميع علماء الإسلام ممن اطلعوا على مؤلفات الإمام

وأدركوا قيمتها، ومن هنا نجد في الهند أن العلماء يعتنون بكتبهم اعتناء بالغا، ويدعون إلى دراستها الواعية.

يقول الباحث الضليع الشيخ صوفي عبد الحميد خان السواتي الباكستاني في مقال له عن مؤلفات الإمام: "والحق أن الإمام كان إماما بارعا في العلوم النقلية والعقلية، فقد ألف في العقائد كتبا دقيقة قيمة مثل "حجة الإسلام و"تقرير دل بذير"(الخطاب الجذاب)، فقد قام بتقريب الحقائق الإسلامية والمعتقدات الدينية وما يتعلق بها نحو ما بعد الطبيعيات والملكوت والجبروت وعالم المثال واللاهوت والبرزخ وأحوال الآخرة إلى الأفهام عن طريق البراهين العقلية، وصدق الشيخ السندي عند ما قال: كان الإمام ولي الله الدهلوي يبين الإسلام ويقربه إلى أفهام المسلمين، بينما الإمام النانوتوي كان قادرا على إفهام الإسلام لغير المسلمين كاليهود والنصارى والهندوس والبوذيين والمجوس قدرته على إفهامه للمسلمين"، فإن الإمام النانوتوي يكثر من استخدام مصطلحات المنطق والفلسفة والرياضي ويخاطب عقول العامة، ويستدل بالمشاهدات والمجرَّبات، التي تترسخ مفاهيمها اليوم في عقول الناس، أجل! إن لغته الأردية كانت دقيقة جدا، وذلك لأمرين: الأول أن هذه اللغة لم تكن متطورة في تلك الأيام، كما تطورت بعد، والثاني: أن المصطلحات العلمية جعلت الكلام غامضا، ولكن العلماء والباحثين يستطيعون التغلب على هذه المشكلة، ومثله كمثل كلام الشاه ولي الله الدهلوي، الذي لا يفهمه العلماء بسهولة، بل هو في حاجة إلى عنايات وجهود"[1].

(١) عبد الحميد خان السواتي، الإمام النانوتوي ومؤلفاته، مقال منشور في كتاب نكارشات أكابر(كتابات العلماء): ترتيب: محمد نعمان ارشدي،(الهند: مجمع حجة الإسلام، ط١، ٢٠١٨)، ص٥٠٦.

وبعد هذا من المناسب أن أقف وقفة قصيرة مع مؤلفات الإمام، ليتم التعرف عليها بإيجاز، وهي كالآتي:

حجة الإسلام:

هذا كتاب يتحدث عن عقائد الإسلام بأسلوب قاسمي حكيم، يقنع الجاحد ويطمئن المؤمن، وأن كل من يدرس هذا الكتاب بخلوص نية يقتنع بأن عقائد الإسلام موافقة للعقل والفطرة السليمة، وهو كتاب متداول، ظل مصدر العلماء في شرح العقائد الإسلامية، وقد وضع شيخ الهند محمود حسن الديوبندي عناوينه.

وهو في الحقيقة يحمل في طيه خلاصة المحاضرة التاريخية التي ألقاها الإمام في سوق أقيمت في منطقة تشاندا بور بمديرية شاه جهان بور تحت عنوان "معرفة الإله"، وسجلها الشيخ فخر الحسن الكنكوهي بشكل كتابي، وطبعه باسم "حجة الإسلام".

يقول الشيخ عبيد الله السندي: قد قرأت كتاب حجة الإسلام للإمام النانوتوي على شيخ الهند درسا درسا"[1]

تقرير دل بذير (الخطاب الجذاب):

وهذا كتاب رائع للإمام، وضعه لشرح الفكر الإسلامي عن طريق الأسس العلمية والعقلية، وأبدع الإمام في بيان أصول الإسلام وفروعه، حيث فسّرها بأسلوب يستسيغه العقل والذوق، ومن أجل ذلك دعا قارئ الكتاب -مهما كانت ديانته ونحلته- إلى الوعي الصحيح وإعمال الفكر والروية، والتخلي ولو للحظةٍ عن الانتماء الشخصي والاتجاه الذاتي، ليتأتى له إدراك قيمة الإسلام ومدى

(١) محمد نعمان أرشدي، نكارشات اكابر، ص٥١١.

انسجام عقائده مع الفطرة الإنسانية. ولا شك أن القارئ المنصف يدرك بسهولة أن الإسلام هو الدين الحق، والذي يراعي في أصوله وفروعه جميع جوانب الحياة البشرية، ولايهمل مقتضيات الفطرة والحاجات ومتغيرات العصر والزمان؛ بل يضعها في الاعتبار بتناسق عجيب.

ولعل الشيخ سيد محمد ميان الدهلوي بوَّب هذا الكتابَ، وقام هو والشيخ فخر الحسن الكنكوهي بوضع الهامش على الكتاب، والكتاب يتحدث أساسا عن وجود الصانع وتوحيده، وإثبات العقائد وصفات الله سبحانه، وجاء الإمام بتمثيلات نادرة وتشبيهات رائعة، تدل على حقية الإسلام، وتفند الأفكار الباطلة مهما تمَّ تمويهها بطلاء من الأوهام والأحلام.

انتصار الإسلام:

وهذا كتاب قيم، يجيب عن عشرة أسئلة، وجَّهها الباندت ديانند سرسوتي إلى الإسلام، ويحمل الكتاب جوابين عن كل سؤال، والسؤال الأول إلزامي، من شأنه إفحام المعترض، والثاني تحقيقي، وهذه الإجابات جاءت بقوتها وروعتها بشكل بهر المعترضين وألقمهم الحجر والحديد، حتى لم يعودوا إلى إعادة مثل هذه الأسئلة، والكتاب احتوى على تحقيقات أنيقة، وقد قام الشيخ سيد محمد ميان الدهلوي بتبويب الكتاب وعقد العناوين عليه، وقد استفاد منه ألوف من الناس، وقدَّم للكتاب الشيخ فخر الحسن الكنكوهي تلميذ الإمام النانوتوي رحمهما الله.

وهذا الكتاب في الأصل محاضرة ألقاها الإمام النانوتوي في مدينة رركي، حيث ذهب إليها لمناظرة الباندت ديانند سرسوتي، الذي كان قد أثار هذه الأسئلة الخبيثة، وتحدى المسلمين، فانبرى له الإمام، والباندت -كما مر- آثر الفرار على

القرار، لكن الإمام ألقى كلمته القمية، ودحض أباطيل الأسقف ورتبه تلميذه الشيخ فخر الحسن الكنكوهي.

قبله نما: (الهادي إلى القبلة)

وهذا الكتاب الهام في الواقع جزء ثانٍ لكتاب انتصار الإسلام، يجيب عن أحد الأسئلة التي أثارها الباندت ديانند سرسوتي بكل قوة، فقد اعترض على المسلمين توجههم إلى القبلة أثناء الصلاة باعتباره مظهر الشرك الأكبر قائلا: إن المسلمين بدورهم يسجدون للقبلة المصنوعة من أحجار كثيرة، فما بالهم يعترضون على الهندوس عبادة الأصنام؟ وقد تناول الإمام هذا السؤال بإجابات مقنعة، وأفرد له كتابا خاصا، وهو هذا الكتاب، وقد ذكر الإمام فيه أولا سبعة أجوبة عن هذا السؤال، وكلها مقنع، ثم أورد الجواب الثامن، الذي احتوى على جواب مجمل وجواب مفصل، وأخذ الجواب المفصل قسطا أكبر من الكتاب، واشتمل على معان قيمة نحو حقيقة الكعبة وحقيقة الصلاة وحقيقة السجدة وشرح استقبال الكعبة والفرق بين العبد والمعبود وبيان التجلي الإلهي وكون الكعبة مورده وبيان أن الجسم يستقبل الكعبة والروح تستقبل التجلي الإلهي وأن المسلمين يسجدون للتجلي الإلهي، و التجلي الإلهي بحكم أنه من صفات البارئ كأنه معبود، وبيان كيفية نزول التجلي الإلهي على الكعبة وما إليها من الحقائق الغامضة التي لا يتطرق إليها الأذهان، وقد شرح المسألة شرحا وافيا، لم تسمعه أذن ولم تره عينٌ،

فقد شرح كلا من حقائق الكعبة والرسول محمد صلى الله عليه وسلم والصلاة ونحوها من القضايا الدقيقة شرحا عقليا سائغا باتزان واعتدال، كما حوى الكتاب الحديث الضافي عن كل من حقيقة العبادة والتجلي الإلهي والبعد المجرد.

وهذا الكتاب خير دليل على الحكمة القاسمية، التي تتفجر منها أنهار الحكمة والتعقل والفلسفة والإقناع والبراهين. ومن هنا ظل الكتاب متداولا في الأوساط العلمية، وقد قام الشيخ محمد اشتياق القاسمي أستاذ الجامعة الإسلامية دار العلوم ديوبند سابقا بتسهيله والتعليق عليه. وطبع الكتاب مرارا في الهند وباكستان.

آب حياة (ماء الحياة):

وهو من أهم كتب الإمام وأدقها؛ بل قال بعض العلماء: لعله لايوجد في ذخيرة الكتب الأردية كتاب يماثله في صعوبة الفهم ودقة البيان، وكان الشيخ حسين أحمد المدني رحمه الله يقول: إن الإمام النانوتوي رحمه الله وضع هذا الكتاب لاختبار العلماء"[1].

فحَلُّ عويصات الكتاب أمر يفوق مؤهلات عامة العلماء، يقول الشيخ عبد الحميد السواتي تلميذ شيخ الإسلام حسين أحمد المدني وهو يتحدث عن المؤهلات التي إذا اتصف بها العلماء استطاعوا فَهْمَ هذا الكتاب: "لايفهم هذا الكتاب إلا من يعرف العقائد الصحيحة معرفة تامة ويتوفر اطلاعه على الدلائل العقلية والنقلية التي يُستدل بها على إثبات تلك العقائد ويعرف كذلك المذهب الشيعي حق المعرفة، وله إلمام تام بالعلوم والفنون المتداولة لاسيما المنطق والفلسفة والرياضي والكلام؛ إضافة إلى التحلي بالحِلم والأناة والصبر والنهم العلمي والولع

(١) عبد الحميد السواتي، الإمام النانوتوي ومؤلفاته، مقال مضموم إلى كتاب نكارشات اكابر (كتابات العلماء)، ص٥١٣.

بالمطالعة وإحكام الرأي وتوقد الذكاء وسرعة البديهة مع الاعتناء بالجانب الروحي ومقاماته"(١)

وقد ألفه الإمام في عام ١٢٨٦هـ الموافق ١٨٦٩م بإيعاز من شيخه الحاج إمداد الله المهاجر إلى مكة رحمه الله، وعرضه على شيخه في رحلة الحج، فصوَّبه ودعا له بالقبول، يقول الإمام في مقدمة الكتاب: "ويعترف هذا العاجز قليل العلم بلسانه وقلبه بأنه إذا كان في الكتاب من المعاني المنتشرة ما يعجب القراءَ أصحابَ القلوب فهو من فيض مرشدي أدام الله فيوضه، وإن تسرَّب فيه أخطاء فالحقير معترف بأن عقله ضعيف، وعلمه سخيف، ومن أجل ذلك قرأته على مرشدي؛ ولكن إذا رأيته يثني على الكتاب ثبتت عندي حقية معاني الكتاب، سواء صدَّقها أحد أم أنكرها، وهذا دأب المنكرين"(٢).

وموضوع الكتاب هو إثبات حياة النبي صلى الله عليه وسلم، وجاء الإمام بشرح غريب للموت والحياة، فهو لايعتبرهما متقابلين بالضد؛ بل متقابلين بالعدم والملكة، ومعناه أنه من الإمكان أن يجتمع الموت والحياة معا، كاجتماع النار والماء، فالآيات والروايات دلَّت على موت الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد وقع فعلا، ولكن الحياة لم تتم إزالتها بشكل كامل، وأقام على ذلك دلائل عقلية ونقلية جديرة بالمطالعة، ولا شك أن الإمام قد تكلَّف كل ذلك ليقضي على شبهات الشيعة بتاتا، فالشيعة يعترضون على أبي بكر رضي الله عنه أنه حرَم فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم ميراث أبيها، واصفين حديث

(١) المصدر السابق، ص٥١٤.

(٢) النانوتوي، محمد قاسم، آب حياة،(الهند: مطبع مجتبائي دلهي، ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م) ص٥.

"نحن معشر الأنبياء لانرث ولانورث، ماتركناه صدقة" بأنه مما وضعه أبوبكر عياذا بالله من غضبه وعقابه فانبرى الإمام ليثبت أن الرسول ما زالت حياته حتى عند الموت، والأحياء لايجري لهم ميراث، ولاتنكح نساؤهم، ولاتأكل الأرض أجسادهم، كما ثبت كل ذلك بشأن الرسول صلى الله عليه وسلم، وهكذا أراد الإمام قطع دابر الاعتراض.

ولكن كبار العلماء قد اعترفوا بعجزهم عن إدراك جميع ما جاء في الكتاب من معان عميقة وأبحاث دقيقة، حتى يقال: إن الشيخ محمد يعقوب النانوتوي قد أخرج بعض الأبحاث من الكتاب بعد إذن من الإمام؛ وذلك لصعوبة فهمها والعجز عن إدراك كنهها(١).

تحذير الناس من إنكار أثر ابن عباس رضي الله عنهما:

وهذه رسالة صغيرة الحجم، كبيرة الفائدة، ألفها الإمام في الجواب عن سؤال ورده بشأن ختم النبوة ووجود سبع طبقات للأرض وما فيها من خلائق حيوانية وإنسانية، وإمكانية إرسال الرسل فيها كما أفاده أثر ابن عباس مرفوعا.

فأجاب الإمام عن هذه الأسئلة إجابة مقنعة، فندت كل شبهة، وعرض حقائق عجيبة لم تخطر على بال، حيث أثبت بالدلائل صحة أثر ابن عباس رضي الله عنهما ووجود سبع طبقات للأرض ووجود البشر والرسل فيها، وتناول قضية ختم النبوة بتفصيل مشبع، حيث قسمها إلى ثلاثة أقسام: من حيث الزمان والمكان والمرتبة، وأثبت جميع أنواع ختم النبوة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ولاشك أن الإمام قد فصل موضوع ختم النبوة بشكل لايوجد نظيره في التراث الإسلامي.

---

(١) المصدر السابق، ص٥١٥.

نعم! هناك أناس قليلوا العلم لم يبلغوا شأو المعاني، وعجزوا عن نزول غورها، أو تعمدوا سوء الفهم واختلقوا معاني ونسبوها إلى الإمام، مما جعل الإمام يضطرب حتى كتب رسالة أخرى، ودحض الشائعات.

وقد ذُيِّل الكتاب بتصديقات من كبار العلماء، بمن فيهم الإمام عبد الحي اللكنوي رحمه الله.

المناظرة العجيبة:

وهذا الكتاب يحتوي على رسائل الإمام النانوتوي، التي أجاب فيها عن اعتراضات العالم المعاصر الشيخ عبد العزيز على كتابه "تحذير الناس"، وقد استمرت تبادل الرسائل بينهما لمدة عام كامل؛ حتى اقتنع الشيخ عبد العزيز بصحة ما يقوله الإمام.

وقد رتب الكتاب الشيخ محمد حسن بن الشيخ أحمد حسن الأمروهوي الذي كان من أخص تلامذة الإمام النانوتوي، يقول الشيخ محمد حسن في بداية الكتاب: "إن بحر العلوم الشيخ محمد قاسم النانوتوي رحمه الله لما طبع كتابه "تحذير الناس" كتب مخدومي الشيخ محمد عبد العزيز اعتراضات قوية على الكتاب، وذلك للتحقيق دون الجدل، وكانت الاعتراضات في القوة والصعوبة بحيث لايمكن لأحد أن يجيب عنها غير المؤلف، فأرسل الاعتراضات إلى الإمام النانوتوي، ثم أرسل الإمام إجابات عنها، فلم يرض بها الشيخ عبد العزيز، واحتدم بينهما النقاش، وجرت سلسلة الرسائل والمكاتبات بينهما لسنة كاملة، وبما أن الكلام كان لايرمي إلى غير الحق والصدق فقد ظهر الحق في الشوط الأخير، وكانت الرسائل كلها موجودة عندي، وكانت هذه المناظرة الكتابية بين العالمين الجليلين بمثابة شرح مقنع لكتاب تحذير الناس، كان من الضروري نشرها في

صورة كتاب، ولكن حالت موانع دون طبعها؛ ولكن أحمد الله تعالى وأشكر له على أنه وفقني لطبع هذا الكتاب اليوم، وأرجو أن لايحرمني القراء صالح دعواتهم"[1]

وفي الرسالة الأخيرة قال الشيخ عبد العزيز ماحاصله:"كنت موافقا لكم في العقيدة، ولكن صعب علي فهم التقدم الذاتي والتأخر الزماني، ولكن بعد شرح متواصل منكم اقتنعت بأن الصواب معكم، والحمد لله على ذلك"[2].

وجاء في نفس الكتاب ما قطع كل الاعتراضات والأوهام؛ حيث قال الإمام: إن أؤمن وأدين بأنه ليس من الممكن ورود نبي جديد بعد رسولنا صلى الله عليه وسلم، ومن ادعى ذلك فأراه كافرا"[3].

قاسم العلوم (مكاتيب الإمام):

وهي رسائل الإمام ومكاتيبه باللغة الفارسية، وقام بتسهيلها وترجمتها إلى الأردية والتعليق عليها الشيخ البروفيسور أنوار الحسن شيركوتي رحمه الله.

وقد اشتملت هذه المجموعة على رسائل علمية هامة، وهي تحمل في طيها ذخيرة علمية قيمة، ومن أهمها مكتوب شرح حديث أبي رزين ومكتوب عصمة الأنبياء، وما إليها، وقد شهد العلماء بأن هذه الرسائل قد جاءت بمعان وخواطر، لاتوجد في كتب أخرى، وهذا هو دأب الإمام، فهو لايتناول الموضوعات التي فرغ منها العلماء الكبار؛ وإنما يتحدث عن المعاني الجديدة، فالجدة والطرافة هي الميزة الهامة لكتابات الإمام النانوتوي رحمه الله.

---

(١) الإمام محمد قاسم النانوتوي، مناظره عجيبة، (الهند: مطبع كلزار إبراهيم مرادآباد)ص٢.

(٢) الإمام محمد قاسم النانوتوي، مناظره عجيبة، ص١٠٥

(٣) المصدر السابق، ص١٠٣.

تصفية العقائد:

وهذه رسالة قيمة باللغة الأردية، أجاب فيها الإمام عن خمسة عشر سؤالا وجهها السير سيد أحمد خان مؤسس جامعة علي جراه الإسلامية، والرسالة جديرة بأن يدرسها بكل تدبر وروية كلُّ من ينصب نفسه لشرح الفكر الإسلامي، فقد فند الإمام ببراهين عقلية سائغة معظم ما يورده العقلانيون على الإسلام من شبهات وأوهام.

والحق أن السير سيد أحمد خان قد تفرد بأفكار عدة، فرد عليه كثير من العلماء، لاسيما الشيخ إمداد علي الأكبرآبادي والشيخ علي بخش البدايوني قاضي كوركهبور وكان الإمام النانوتوي يعرف أفكاره وخدماته في تطوير الأمة، وكان يُكِنُّ له الاحترام والتقدير، ويريد أن يخلص له الود والنصح، ويشير عليه بالرجوع عن مواقفه وأفكاره الشاذة، حتى لاتضيع جهوده الإصلاحية سدى، وكان في مدينة ميروت رجل اسمه الحاج محمد عارف يحب كلا من الإمام النانوتوي والسير سيد أحمد خان، واجتمع الرجل بالإمام النانوتوي في قرية "انبهته" بمديرية سهارنفور، وجرى ذكر السير سيد أحمد خان، ويبدو أن كلا منهما أبدى أسفه على يتفرد به السير سيد أحمد من أفكار وما يثور حوله من ضجات علمية، وودَّ كل منهما لو رجع السير سيد عن أفكاره لذهبت الفتنة وهدأت الأصوات، فكتب الرجل إلى السير سيد أحمد خان يخبره بأن الإمام النانوتوي يريد لقاءه والاطلاع على آرائه.

فكتب السير سيد أحمد خان رسالة أوضح فيها أصوله الفكرية، وهي خمسة عشر أصلا، وكانت الأصول بظاهرها لم تكن تخالف المنهج الصحيح المقرر من الفكر الإسلامي؛ إلا أن بعضها تحمل في طيها منافذ خفية، ربما تنفذ منها

الأفكار الزائغة التي تتصادم مع الروح الإسلامية، وكان الإمام أعلم العلماء في عصره بمواطن الضعف الفكري ومواضع تزل فيها الأقدام بعد ثبوتها، فأفاض في شرح هذه الأصول، واضعا في الاعتبار مسارب الزيغ والضلال، فقد سدَّ هذه المنافذ وأحاط الفكر الإسلامي بسياج منيع؛ فجاء الكتاب مع وجازته يحمل في طيها بحرا زاخرا بالمعاني التحقيقية، وضرورة عصرية لكل باحث إسلامي.

الأسرار القرآنية:

وهذه رسالة صغيرة باللغة الفارسية، وقصة تأليفها أن الشيخ صديق المرادأبادي رحمه الله قد أرسل رسالة إلى الإمام، يسأله عن تفسير ما أشكل عليه من آيات قرآنية، فقام الإمام بتفسيرها وشرحها خير قيام، وفي النهاية قام بتفسير سورتي المعوذتين تفسيرا حكيما رائعا، كما تضمن الكتاب أحد أصعب أبيات الشيخ الرومي، وتحقيقات الإمام فيما يتعقل بالتفسير بديعة وجديرة بالمطالعة والاستفادة.

التحفة اللحمية:

وهي رسالة وجيزة للإمام، فنَّد فيها مزاعم الهندوس بأن ذبح الحيوانات ظلم، وأكل لحومها عدوان صريح، وقد أثبت الإمام ببراهين عقلية سائغة أن ذبح الحيوانات المأكولة اللحم وأكل لحومها مما تقتضيه الفطرة الإنسانية، ويستسيغه العقل السليم، وأقام الطامَّة الكبرى على الهندوس بقوله: إذا كان أكل لحومها ظلما وعدوانا فأي عقل ومنطق يبيح لكم ركوب الحيوانات واستعمال الأحذية وغيرها من الأشياء المصنوعة من جلود الحيوانات وعظامها؟ وهكذا لوكان ذبح الحيوانات عدوانا لامتنعت الدنيا كلها عن ذلك، لكان الأقدمون من الفلاسفة والحكماء قد نهوا عن ذلك بشكل صريح، ولم يكن الهندوس وحدهم هم الذين

يدركون هذه الفلسفة، ثم الهندوس بدورهم يذبحون الحيوانات تعبدا لأصنامهم؛ وهذا كاف في بيان أن فلسفة الهندوس فلسفة عمياء لايؤيدها العقل والفطرة والعرف العالمي.

انتباه المؤمنين:

وهي رسالة صغيرة باللغة الفارسية، شرح فيها الإمام حديثًا نبوياً ورد بشأن الخلافة، مما أخرجه الترمذي في سننه وأحمد في مسنده وغيرهما من أئمة الحديث، وهو : عَنْ عَلِيٍّ ، قَالَ : قِيلَ يَا رَسُولَ الله ، مَنْ نُؤَمِّرُ بَعْدَكَ ؟ قَالَ : إِنْ تُؤَمِّرُوا أَبَا بَكْرٍ، تَجِدُوهُ أَمِينًا، زَاهِدًا فِي الدُّنْيَا، رَاغِبًا فِي الآخِرَةِ، وَإِنْ تُؤَمِّرُوا عُمَرَ تَجِدُوهُ قَوِيًّا أَمِينًا، لاَ يَخَافُ فِي الله لَوْمَةَ لاَئِمٍ، وَإِنْ تُؤَمِّرُوا عَلِيًّا – وَلاَ أُرَاكُمْ فَاعِلِينَ – تَجِدُوهُ هَادِيًا مَهْدِيًّا، يَأْخُذْ بِكُمُ الطَّرِيقَ الْمُسْتَقِيمَ"(١)

وأسهب الإمام في بيان ما اختص به هؤلاء الخلفاء من باهر المزايا وأنبل الصفات، وجاء بتحقيقات رائعة، كما أن الكتاب اشتمل على رسالة عربية للشاه إسماعيل الشهيد، كتبها إلى الشيخ عبد الله البغدادي، يجيبه عن إيراداته على كتاب تقوية الإيمان للشهيد.

ميله خداشناسي (المهرجان العالمي لمعرفة الله)

وهذا الكتيب يتضمن تقريرا جامعا عن المناقشات والمناظرات التي دارت عام ١٢٩٣هـ / ١٨٧٦م بين ممثلي الإسلام والنصرانية والهندوسية في مدينة شاهجهانفور، وقد حقق الله للإسلام والمسلمين فتحا مبينا وانتصارا ظاهرا على

---

(١) أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: السيد أبو المعاطي النوري، (بيروت: عالم الكتب، ط١، ١٤١٩ه/ ١٩٩٨م)، باب مسند علي، رقم الحديث:٧٥٩.

الأديان كلها، وكان الإمام النانوتوي رحمه الله في المهرجان ممثل الإسلام والمسلمين، والكتاب احتوى على كلمات الإمام ومناقشاته القيمة وردوده على شبهات المعترضين على الإسلام.

مباحثه شاهجهان فور:

وهذا كتاب يحتوي على خطب وكلمات الإمام، التي ألقاها في المهرجان العالمي الثاني المنعقد في شاهجهانفور عام ١٢٩٤هـ / ١٨٧٧م، شارك فيه ممثلون للإسلام والنصرانية والهندوسية، واشتمل الكتاب على إجابات الإمام عن الأوهام والافتراءات التي أثارها كل من الباندت ديانند سرسوتي والباندت إندرمن والقسيس إسكات(وهو يُعَدُّ مفسرا للإنجيل) والقسيس نولس ومن إليهم، وكانت هذه الاعتراضات تتلخص في:

- بأي شيء خلق الله هذا العالم؟
- وهل أحاط الله بكل شيء علماً؟ وكيف؟
- كيف يجمع الله تعالى بين العدل والرحمة؟
- ما الدليل على أن القرآن كلام الله؟
- ما الذي يمنع الكتاب المقدس (الإنجيل) والفيدا أن تكون كتبا سماوية؟
- كيف تحصل النجاة؟

بالإضافة إلى الشبهات التي تمسكوا بها، واهمين بأنها تُفحِم الإمام النانوتوي ممثلَ الإسلام والمسلمين.

ولكن الدائرة وقعت عليهم عندما أخذ الإمام النانوتوي يتناول هذه الموضوعات، ويشرحها شرحا وافيا مدعَّما ببراهين العقل والفطرة والتجربة

والواقع، وأضاف إليها من المعاني ما ثبت به فضل الدين الإسلامي على سائر الأديان، وهذا الكتاب أمضى سلاح للقضاء على الاعتراضات الواردة على الإسلام، وخير مصدر علمي لكل عامل في مجال الدفاع عن الإسلام.

توثيق الكلام في الإنصات خلف الإمام:

وهي رسالة صغيرة للإمام باللغة الأردية، تتحدث عن القراءة خلف الإمام، وهي خير ما يُستدل به على موقف الإمام من القضايا الفرعية والمسائل الخلافية بين الأئمة، فبالرغم من أن الموضوع علمي بُحْتٌ تتعارض فيه الأدلة، وتتضارب أقوال الأئمة فقد شرحه الإمام شرحا عقليا، ونظم الآيات والرويات في سلك منسق، واكتفى بإثبات أفضلية ترك القراءة خلف الإمام، مشيرا إلى أنه ليس من عادته معاكسة من يخالف هذا الرأي.

وأعجب من ذلك أن الداعي إلى وضع كتاب كهذا هو تطاول بعض الناس على الإمام أبي حنيفة والغض من شأنه والتسرع في الفتوى بأن ترك القراءة خلف الإمام مما يفسد الصلاة.

والكتاب كفيل بشرح المنهج الفكري المعتدل الذي يتسم به علماء ديوبند لاسيما في المسائل الخلافية؛ حيث ليس من دأبهم التعصب والانحياز؛ وإن غاية ما يسعون له هو شرح ما يتبنونه من رأي وما يقفونه من موقف، وما يمارسونه من عمل.

الدليل المحكم على القراءة للمؤتم:

وهذا كتيب صغير يتحدث عن مسألة القراءة خلف الإمام، ويحمل الكتاب نفس المنهج ونفس البيان، الذي ورد في الكتاب السابق: توثيق الكلام، إلا أن هذا أقصر من ذلك.

اللطائف القاسمية:

وهي مجموعة تسع رسائل للإمام، وكل رسالة في محلها كتاب مستقل، تبحث في مسائل التراويح وحياة الأنبياء عليهم السلام بعد مماتهم، والجمعة في القرى وما إليها.

جمال قاسمي:

وهو كتاب يتضمن رسالتين للإمام، كتبها ردا على رسائل الشيخ سيد جمال الدين الدهلوي، وهي تتحدث عن وحدة الوجود وسماع الموتى.

يُذكر أن سيد جمال الدين طَلَبَ في بعض رسائله إلى الإمام النانوتوي رحمه الله أن يكتب له مائة رسالة، يودعها المعلومات الأساسية لكل من الهندسة والهيئة وعلم الفلك والفلاحة الطبيعية والجبر والمقابلة والحبر الثقيل وما إليها من العلوم والفنون، ولا ندري هل الإمام النانوتوي حقق هذا الطلب أم لا؟

يقول الشيخ سيد فخر الحسن الكنكوهي في مقدمة كتاب انتصار الإمام: "إن هناك مجموعة من كتب الإمام النانوتوي، لم يتم طبعها من بعد، وهي بالغة نحو مائة جزء، وقد عزمت على طبعها، وفقني الله لذلك آمين".

الفيوض القاسمية:

هذا الكتاب هو الآخر مجموعة عدد من رسائل الإمام إلى تلامذته وأحبابه، الذين وجهوا إليه بعض الشبهات العلمية القيمة، كما أن الكتاب قد تضمَّن الإجابات عن الاعتراضات الواردة على كتابه هدية الشيعة، فهذه الرسائل تتحدث عن شتى القضايا والمسائل العلمية بما فيها تحقيق الجمعة في القرى والأرياف، وبحث إيمان يزيد بن معاوية وكفره، والنذر لغير الله، وعلم الغيب وحكمة القراءة جهرا وسرا في الصلوات، وتحقيق السنة والبدعة، وتصور الشيخ وتحقيق النفس الإنسانية.

مصابيح التراويح:

كتاب قيم باللغة الفارسية في موضوع مسألة صلاة التراويح وعدد ركعاتها، وقد أثبت الإمام بالدلائل أن عشرين ركعة مما هو ثابت شرعا، ولكنها ليست موضع الجدل والنقاش، وأن من يعتبرها بدعة فقد تعدى الحد وتمسك بالغلو.

وهذا الكتاب في الأصل جواب عما أورده إليه تلميذه الشيخ سيد أحمد حسن الأمروهوي رحمه الله من استفتاء بشأن ركعات صلاة التراويح، والكتاب قد اشتمل على تحقيقات أنيقة، وقد ترجمه الشيخ اشتياق أحمد الديوبندي إلى اللغة الأردية.

الحق الصريح في إثبات التراويح:

وهذه أيضا رسالة فارسية في موضوع صلاة التراويح، كتبها ردا على رسالة الشيخ عبد الرحيم، وقد أوضح المسألة بكل اعتدال وإنصاف، ووصف بالغلو والعصبية من يخالفون عشرين ركعة ويعتبرونها بدعة، كما أبدى أسفه على دأب المتعصبين.

أسرار الطهارة:

وهي رسالة صغيرة للإمام، قام فيها بإبانة أسرار الطهارة وما يحفها من نكات ونوادر علمية، وقد أوضحها الإمام بأسلوب علمي ظريف، يتفرد به الإمام.

قصائد قاسمي:

وهذا الكتاب يحتوي على بعض قصائد الإمام النانوتوي رحمه الله في اللغات الثلاث: العربية والأردية والفارسية، من أهمها:

- القصيدة البهارية(قصيدة الربيع) باللغة الأردية: قرضها الإمام في مدح النبي صلى الله عليه وسلم، وكل بيت فيها يسيل رقة وعذوبة وحبا للنبي عليه السلام.
- قصيدة في مدح السلطان عبد الحميد باللغة العربية: كان الإمام يرى ضرورة الإبقاء على الخلافة العثمانية، تغنَّى الإمام فيها بمجد العثمانيين وانتصاراتهم على الروم وأعداء المسلمين، جاءت هذه القصيدة بلغة عربية فصيحة.
- رثاء الشيخ حافظ ضامن الشهيد باللغة الفارسية: كان الحافظ ضامن الشهيد خرَّ شهيدا في معركة شاملي الشهيرة، وكان من خيرة الرجال وصلحاء الأمة في عصره، وقد أبلى بلاء حسنا في المعركة، وفاضت القصيدة بعواطف جميلة وأحاسيس زاكية.

يُذكر أن الكتاب اشتمل على بعض قصائد علماء ديوبند الآخرين، بمن فيهم الشيخ فيض الحسن السهارنفوري والشيخ ذو الفقار علي الديوبندي والشيخ محمد يعقوب النانوتوي رحمهم الله.

تعليق على صحيح البخاري:

من أهم أعمال الإمام النانوتوي الحديثية تعليقه على الأجزاء الخمسة الأخيرة من صحيح البخاري، فقد كان أستاذه الشيخ المحدث أحمد علي السهارنفوري كان عزم على طباعة صحيح البخاري من المطبعة الأحمدية بعد تعليق شامل يغني عن كثير من كتب الشروح، وقد بدأ إنجاز هذه المهمة العملية حتى قطع أشواطا بعيدة، ولم يبق سوى الأجزاء الخمسة الأخيرة، ففوض كتابة ما بقي من تعليق إلى أحب

تلامذته إليه وأكثرهم ذكاء وفطنة، وأصبرهم على متاعب الكتابة والرجوع إلى المصادر، وهو الإمام النانوتوي الذي لم يبلغ بعد ٢٥ من عمره.

يقول الشيخ محمد يعقوب النانوتوي في هذا الصدد: "وفي هذه الأيام فوَّض إليه الشيخ أحمد علي السهارنفوري تعليق وتحقيق الأجزاء المتبقية- الخمسة أو الستة- لصحيح البخاري، فقام به حضرة الشيخ خير قيام، يَسُرُّ القراء، ويبعث على الإعجاب به والتقدير له، وأنَّى لأحد أن يعمل عمله، وخفي على أناس مقدرته العلمية، فأفضوا مخاوفهم إلى الشيخ أحمد علي قائلين له: ما بالك جعلت هذا العمل الجليل إلى رجل شاب قليل المراس؟ فرد عليهم الشيخ أحمد علي قائلا: لست بهذه المثابة من السفاهة، فآتي أمرا دون بصيرة منه، وأراهم تعليقات أعدها حضرة الشيخ، فإن تلك المواضيع من صحيح البخاري تعد أصعبها وأدقها، وخاصة تاييد مذهب الأحناف، الأمر الذي تقيد به الشيخ أحمد علي، حين بدأ تعليقاته هذه على الصحيح، وقد تعقب الإمام البخاري مذهب الأحناف بتعقبات يشق الرد عليها كما لا يخفى، فمن شاء فليراجع هذه التعليقات التي قام بها حضرة الشيخ"[1]

جواب تركي به تركي (الرد المفحم):

وهذا كتاب جمع فيه الشيخ عبد العلي تلميذ الإمام النانوتوي رحمه الله ما أفاده الإمام النانوتوي في الرد على ما نشره الهندوس الآريون في جريدتهم "آريه سماجار" في ١٢٩٦هـ / ١٨٧٩م، فقد نشروا فيها اعتراضات بشعة على الإسلام، وقد أجاب عنها الإمام بأسلوب قوي جدا، ما أجدره بالمطالعة والدراسة.

(١) محمد يعقوب النانوتوي، سوانح عمري (سوانح الإمام): تعريب: محمد عارف جميل، ص٥٦-٥٧.

وقد قام الأستاذ اشتياق أحمد الديوبندي أستاذ بدار العلوم ديوبند سابقا بتسهيله وتبويبه، وأخرجه باسم "براهين قاسمية".

هدية الشيعة:

في عام ١٢٨٣هـ الموافق ٦٧-١٨٦٦م بعث الإمام رشيد أحمد الكنكوهي – وكان هو والإمام النانوتوي كندماني جذيمة منذ أيام الطلب إلى آخر أيام الحياة– إلى الإمام النانوتوي رسالة تحتوي على بعض اعتراضات الشيعة على السنة، يطلب إليه الإجابة عن هذه الأسئلة، فكتبها في أوقات متفرقة في ١٢٨٤هـ/ ١٨٦٧م، وسماها "هدية الشيعة"، والكتاب أشبه بموسوعة علمية، وأشمل لجميع المسائل الهامة التي يدور حولها الدين الشيعي وما يتصل به اتصالا مباشرا كأمثال مسألة الخلافة وعدالة الصحابة رضي الله عنهم، وعقيدة التقية، ومباحث الفدك والإرث وما إليها، وقد جاءت إجابات الإمام مدعمة بنصوص الكتاب والسنة وكتب الشيعة الموثوق بها عندهم بحيث لم يترك لهم مجالا للشك والوهم، وقطع لهم كل خيط من الدعاوي المزعومة، وما زالت الشيعة عاجزة عن الرد على هذه الدلائل القوية.

ومن أهم خصائص الكتاب أنه أُلِّف باللغة الأردية السهلة على عكس كتب الإمام، وقَلَّ فيه استخدام المصطلحات المنطقية والفلسفية، مما جعل الاستفادة منه سهلا ميسورا، وقد أودعه الإمام مباحث علمية شريفة ونوادر فريدة قيمة، جاءت شاهدة على مارزقه الله من فهم عميق للدين وذكاء خارق لشرحه ومواهب عجيبة في الدفاع عن معتقدات الإسلام.

الأجوبة الأربعين:

وهذا كتاب ضخم في جزأين، أجاب فيه الإمام عن أربعين اعتراضا يوردها الشيعة على السنة،.

الأجوبة الكاملة في الأسولة الخاملة:

كتاب باللغة الأردية، احتوى على إجابات الإمام عن خمسة أسئلة واهية من الشيعة.

مكاتيب قاسمي (رسائل القاسمي):

كتاب يجمع بين عدد من رسائل الإمام في موضوع التزكية والإحسان.

الباب الثاني

الشيعة نشأتها وعقائدها

الفصل الأول:

نشأة الشيعة

المبحث الأول: الشيعة حقيقة أم أسطورة:

وهذا موضوع هام وماتع معا، أما أهميته فلأن له دخلا كبيرا في معرفة حقيقة هذا المذهب، وبدونه لايمكن التعرف الصحيح على عقائد الشيعة، وأما متعته فلأن نشأة الشيعة موضوع تحدث عنه كل من السنة والشيعة، أما الشيعة فقد وضعوا أساطير وخرافات عجيبة، معظمها يدعو إلى الضحك، وقد يدعو إلى الانتحاب والحسرة. ولايعنيني هنا ما قاله علماء الشيعة في نشأة هذا المذهب؛ إلا أن هذه المتعة النفسية تدعوني إلى أن نقف وقفة قصيرة حول أقوال الشيعة في بيان نشأة مذهبهم.

هذا الكُلَيْنِي المعروف بثقة الإسلام لدى الشيعة يرى أن التشيع قديم وموجود قبل رسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بل قبل رسالات جميع الأنبياء والمرسلين، فهو يذكر بسنده رواية، نصها: "عَنْ أَبِي الْحَسَنِ -عليه السلام- قَالَ وَلَايَةُ عَلِيٍّ -عليه السلام- مَكْتُوبَةٌ فِي جَمِيعِ صُحُفِ الْأَنْبِيَاءِ وَ لَنْ يَبْعَثَ الله رَسُولًا إِلَّا بِنُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ -صلى الله عليه وآله- وَ وَصِيِّهِ عَلِيٍّ -عليه السلام[1]-.

ولعل هذا القدر لم يكفِ ثقةَ الإسلام، فتقدم خطوة، وجاء برواية تؤيد أن "الميثاق الرباني قبل خلق آدم" لم يكن إلا لبيان مذهب الشيعة وأصوله، فساق الكليني رواية تقول: كَانَ أَبُو جَعْفَرٍ -عليه السلام- يَقُولُ: إِنَّ الله أَخَذَ

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، أصول الكافي، (إيران: دار الكتب الإسلامية، طهران، ط٥) ج١، ص٤٣٧.

مِيثَاقَ شِيعَتِنَا بِالْوَلَايَةِ وَ هُمْ ذَرٌّ يَوْمَ أَخَذَ الْمِيثَاقَ عَلَى الذَّرِّ وَالْإِقْرَارَ لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ وَ لِمُحَمَّدٍ -صلى الله عليه وآله- بِالنُّبُوَّةِ"(١).

وهناك روايات أخرى طفحت بها كتب الشيعة، اجتمعت على أن التشيع دين قديم، وأن جميع الأنبياء والمرسلين كانوا يؤمنون بوصية علي رضي الله عنه، فماذا بقي إذاً؟ من العجائب أن فرقة تنتسب -ولو زورا- للإسلام، ثم يأتي كبار علمائها ليثبتوا أن هذه الفرقة متقدمة على الإسلام، يا سلام! هل شهدت الدنيا ذهابا للعقل وسخافة للكلام مثل هذا؟.

ولعل هذا القول المضحك لم يصادف هوى في قلوب بعض الشيعة، فجاؤوا بقول جديد، حيث قالوا إن التشيع موجود منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وهو الذي زرع بذرته، يقول شيخ شيوخ المذهب الشيعي سعد بن عبد الله أبي خلف الأشعري القمي وهو من أصحاب الإمام الحسن العسكري في كتابه "المقالات والفرق": "فأوّل الفرق الشيعة، وهي فرقة علي بن أبي طالب المسمون شيعة علي في زمان النبي صلى الله عليه وسلم وبعده، معروفون بانقطاعهم إليه والقول بإمامته، منهم المقداد بن الأسود الكندي، وسلمان الفارسي، وأبو ذر جندب بن جنادة الغفاري، وعمار بن ياسر المذحجي..وهم أوّل من سمّو باسم التشيع من هذه الأمة"(٢).

أما أن الرسول صلى الله عليه وسلم كيف زرع بذرته فيجيب عنه القمي بقوله: "أقامه رسول الله علما لهم، وأوجب إمامته وموالاته وجعله أولى بهم منهم

(١) المصدر السابق، ج١، ص٤٣٦.

(٢) القمي، سعد بن عبد الله أبي خلف الأشعري، المقالات والفرق(إيران: مطبعة حيدري طهران)، ص١٥.

بأنفسهم، والذي وضع عنده من العلم ما يحتاج إليه الناس من الدين والحلال والحرام، وجميع منافع دينهم ودنياهم ومضارها وجميع العلوم كلها جليلها ودقيقها، واستودعه ذلك كله، واستحفظه إياه، وأنه استحق الإمامة ومقام النبي صلى الله عليه وسلم، لعصمته وطهارة مولده وسبقه وعلمه وشجاعته وجهاده وسخائه وزهده وعدالته في رعيته وأن النبي صلى الله عليه وآله نص عليه وأشار إليه باسمه ونسبه وعينه وقلد الأمة إمامته وأقامه ونصبه لهم علما، وعقد له عليهم إمرة المؤمنين، وجعله وصيه وخليفته ووزيره في مواطن كثيرة"[1].

وقال بهذا الرأي طائفة من الشيعة المعاصرين، ومنهم الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء في كتابه "أصل الشيعة وأصولها"، ومحسن العاملي في كتابه "أعيان الشيعة" وغيرهم.

ولكن أقوال الشيعة في بيان نشأتهم سواء قالوا: إن نشأته قديمة حتى قبل رسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أم قالوا: إن الرسول بدوره وضع بذرة التشيع، فأقوال الشيعة شهادة كافية على تزوير الكلام وزخرفة التاريخ، وتشويه لصورة الحق والصدق.

والقول الصحيح الذي يصدقه العقل والنقل والتاريخ أن الشيعة فرقة ظهرت عندما ظهر رجل يهودي اسمه "عبد الله بن سبأ" ادعى الإسلام، وزعم محبة أهل البيت، وغالى في علي رضي الله عنه، وادعى له الوصية بالخلافة ثمّ رفعه إلى مرتبة الألوهية، وهذا ما تعترف به الكتب الشيعية نفسها. فالشيعي القمي في كتابه "المقالات والفرق" يقر بوجوده ويعتبره أوّل من قال بفرض إمامة علي رضي الله عنه ورجعته، وأظهر الطعن على أبي بكر وعمر وعثمان وسائر الصحابة.

(١) المصدر السابق، ص١٦.

يقول القمي: "أول فرقة قالت في الإسلام بالوقف بعد النبي من هذه الأمة، وأول من قال بينهما بالغلو، وهذه الفرقة تسمى السبائية أصحاب عبد الله بن سبا، ....وكان أول من أظهر الطعن على أبي بكر وعمر وعثمان والصحابة، وتبرأ منهم، وادعى ان عليا عليه السلام أمره بذلك، وأن التقية لاتجوز ولا تحل، فأخذه علي فسأله عن ذلك فأقر به وأمر بقتله، فصاح الناس إليه من كل ناحية، يا أمير المؤمنين! أتقتل رجلا يدعو إلى حبكم أهل البيت، وإلى ولايتك، والبراءة من أعدائك، فسيره علي إلى المدائن، وحكى جماعة من أهل العلم: أن عبد الله بن سبأ كان يهوديا فأسلم ووالى عليا، وكان يقول وهو على يهوديته في يوشع بن نون وصي موسى بهذه المقالة، فقال في إسلامه بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم في علي بمثل ذلك، وهو أول من شهد بالقول بفرض إمامة علي بن أبي طالب، وأظهر البراءة من أعدائه، وكاشف مخالفيه وأكفرهم، فمن هاهنا قال من خالف الشيعة: إن أصل الرفض مأخوذ من اليهودية"(١).

وهذه شهادة أهل البيت، ومثله قال به علامة الشيعة النوبختي في كتابه: "فرق الشيعة"، ومؤرخ الشيعة الكشي في كتابه المعروف بـ"رجال الكشي".

والاعتراف سيد الأدلة، وهؤلاء جميعهم من كبار شيوخ الشيعة الإثنى عشرية.

وذكر عبد الكريم الشهرستاني عن ابن سبأ أنّ أول من أظهر القول بالنّص على إمامة علي رضي الله عنه، وذكر عن السبئية أنّها أول فرقة قالت بالتوقف بالغيبة والرجعة(٢).

---

(١) المصدر السابق، ص٢٠.

(٢) الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد، الملل والنحل(بيروت: دار المعرفة، ط١، ١٤٠٤هـ)، ج١، ص١٧٢.

فالقول بإمامة علي وخلافته نصّا ووصية والقول بتأليه الأئمة ليست إلا من مخلفات ابن سبأ.

يقول العلامة ابن تيمية: "وَأَوَّلُ مَنْ ابْتَدَعَ الْقَوْلَ بِالْعِصْمَةِ لِعَلِيٍّ وَبِالنَّصِّ عَلَيْهِ فِي الْخِلَافَةِ : هُوَ رَأْسُ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ "عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَبَأٍ" الَّذِي كَانَ يَهُودِيًّا فَأَظْهَرَ الْإِسْلَامَ، وَأَرَادَ فَسَادَ دِينِ الْإِسْلَامِ كَمَا أَفْسَدَ بولص دِينَ النَّصَارَى"(١).

وأكدت طائفةٌ كبيرةٌ من الباحثين القدماء والمعاصرين أن ابن سبأ أساس المذهب الشيعي والحجر الأول في بنائه، وقد تواتر ذكره في كتب السنة والشيعة على حد سواء، يقول عالمهم الكشي في كتابه المعروف بـ "رجال الكشي" وهو أقدم كتب الشيعة المعتمدة في علم الرجال: "إن عبد الله بن سبأ كان يهودياً فأسلم ووالى علياً عليه السلام وكان يقول وهو على يهوديته في يوشع بن نون وصي موسى بالغلو كذا، فقال في إسلامه بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم في علي مثل ذلك، وكان أول من أشهر القول بفرض إمامة علي، وأظهر البراءة من أعدائه وكاشف مخالفيه وكفّرهم، من هنا قال من خالف الشيعة: إن اصل التشيع والرفض مأخوذ من اليهودية"(٢).

هذا ما جاء عن ابن سبأ في "رجال الكشي" الذي يعتبرونه أحد الأصول الأربعة التي عليها المعول في تراجم الرجال، وقد سبق مثل هذا القول في كتاب القمي الشيعي "المقالات والفرق".

---

(١) ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم الحراني، مجموع الفتاوى(بيروت: دار الوفاء، ط٣، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م)، ج٤، ص٥١٨.

(٢) الطوسي، أبو جعفر محمد بن الحسن، رجال الكشي، تحقيق: جواد القيومي الأصفهاني (إيران: مؤسسة النشر الإسلامي قم، ط١، ١٤٢٧هـ)ص١٠٤

وبذلك يتبين مدى التأثير الفكري والعقائدي لليهود في الدين الشيعي، وأن كل مطلع على عقائد الشيعة لاسيما فيما يتعلق بالإمامة والبراءة من صحابة رسول الله -صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم- والرجعة والتقية والغيبة لن يشك بوضوح البصمات اليهودية في هذا الدين.

المبحث الثاني: عبد الله بن سبأ في سطور:

عبد الله بن سبأ شخصية، اكتنفها كثير من الغموض والإبهام، ولكن القدر الذي اتفق عليه المؤرخون من السنة والشيعة أن أصله يهودي من أهل صنعاء، أمه حبشية سوداء، ومن ثم يقال: ابن السوداء، أسلم زمن عثمان بن عفان، وأخذ يتنقل في بلاد المسلمين حرصا منه على تفريق كلمة المسلمين وإضعاف قوتهم، فبدأ بالحجاز ثم البصرة سنة ٣٣ هـ، ثم الكوفة، ثم أتى الشام فلم يقدر عَلَى مَا يريد عِنْدَ أحد من أهل الشام، فأخرجوه حَتَّى أتى مصر سنة ٣٤هـ واستقر بها، ووضع عقائد فاسدة، نشرها بشكل سري وفي غاية من اللباقة والإتقان، حتى كسب أنصارا له في مصر، وكان يقول: "العجب ممن يزعم أن عِيسَى يرجع، ويكذب بأن محمدا يرجع، وَقَدْ قَالَ اللهَّ عز وجل: "إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ"، فمحمد أحق بالرجوع من عِيسَى قَالَ: فقبل ذَلِكَ عنه، ووضع لَهُمُ الرجعة، فتكلموا فِيهَا ثُمَّ قَالَ لَهُمْ بعد ذَلِكَ: إنه كَانَ ألف نبي، ولكل نبي وصي، وَكَانَ علي وصي مُحَمَّد، ثُمَّ قَالَ: مُحَمَّد خاتم الأنبياء، وعلي خاتم الأوصياء، ثُمَّ قَالَ بعد ذَلِكَ: من أظلم ممن لم يجز وصية رَسُول الله صلى الله عليه وسلم، ووثب على وصي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتناول أمر الأمة! ثُمَّ قَالَ لَهُمْ بعد ذَلِكَ: إن عُثْمَان أخذها بغير حق،

وهذا وصي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فانهضوا فِي هَذَا الأمر فحركوه، وابدءوا بالطعن عَلَى أمرائكم، وأظهروا الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، تستميلوا الناس، وادعوهم إِلَى هَذَا الأمر.

"فبث دعاته، وكاتب من كَانَ استفسد فِي الأمصار وكاتبوه، ودعوا فِي السر إِلَى مَا عَلَيْهِ رأيهم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجعلوا يكتبون إِلَى الأمصار بكتب يضعونها فِي عيوب ولاتهم، ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذَلِكَ، ويكتب أهل كل مصر مِنْهُمْ إِلَى مصر آخر بما يصنعون، فيقرؤه أُولَئِكَ فِي أمصارهم وهؤلاء فِي أمصارهم، حَتَّى تناولوا بِذَلِكَ الْمَدِينَة، وأوسعوا الأرض إذاعة، وهم يريدون غير مَا يظهرون، ويسرون غير مَا يبدون"(1).

وفي النهاية نجح في تجميع جميع الساخطين على عثمان فتجمعوا في المدينة وقاموا بقتل عثمان رضي الله عنه، وهو يتلو القرآن الكريم، وليس من المعقول أن يقوم بهذه الفعلات الشنيعة مع الصحابي الجليل سيدنا عثمان ذي النورين إلا من طبع على قسوة القلب والتعاسة وسوء الخلق وفقدان الإنسانية والمروءة، وكان كذلك ابن سبأ، وبمقتل الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه قد فتح هذا اليهودي المنافق ابن السوداء باباً لفتن أخرى طال أمدها بين المسلمين.

يقول المؤرخ الفارسي مير خواند: "إن السبب في حقد ابن سبأ على عثمان: أنه كان يأمل حين قدومه إلى المدينة إكرام الخليفة له. فلما لم يحصل له ما أراد، أخذ يتصل بالناقمين عليه، و ينكر على عثمان إدارته علنا، و بلغ عثمان خبره أخيرا فقال :

(1) محمد ابن جرير الطبري، تاريخ الطبري، (بيروت: دار التراث، ط٢، ١٣٧٨هـ)، ج٤، ص٣٤٠-٣٤١.

من هذا اليهودي الذي أتحملُ منه هذا، وأمر بنفيه من المدينة، ثم ذهب أخيرا إلى مصر، و صار من المشاغبين العاملين ضد عثمان"[1].

حيث لم يقف عبد الله بن سبأ عند هذا الحد؛ بل تقدم مشعل الثورة وملهب الحروب، فقد لعب دوراً هاماً في بدء معركة الجمل، وإفشال المفاوضات بين علي بن أبي طالب وبين طلحة والزبير، رضي الله عنهم كما أنه أول من أظهر الغلوّ وادعى الألوهية لعلي، فقام علي رضي الله عنه بإحراق بعض أتباعه، ثم قام بنفي ابن سبأ إلى المدائن. وبعد استشهاد علي رضي الله عنه رفض ابن سبأ الاعتراف بذلك، وادعى غيبته بعد وفاته. ويسمى أتباع ابن سبأ بالسبئية، وهي فرقة من الفرق الشيعية، إلا أن التقية وغيبة الإمام ورجعة علي والوصاية والبراءة من الصحابة من العقائد التي اتفقت عليها معظم فرق الشيعة.

المبحث الثالث: عقائد ابن سبأ:

١- أول من قال بوجوب إمامة علي رضي الله عنه

٢- كان يقول في اليهودية: إن يوشع بن نون وصي موسى، وكذلك علي وصي الرسول صلى الله عليه وسلم.

٣- أول من أظهر البراءة من أعداء علي رضي الله عنه

٤- أول من طعن في أجلة الصحابة والخلفاء الراشدين، نحو أبي بكر الصديق وعمر الفاروق وعثمان ذي النورين -رضي الله عنهم- وغيرهم.

٥- كان يقول: عجبا لقوم يؤمنون برجعة عيسى عليه السلام، ولايؤمنون برجعة نبيهم، وهو أحق منه بالرجوع.

---

(١) د. سامي عطا حسن، عبد الله بن سبأ اليهودي اليماني بين الحقيقة والخيال، (المملكة الأردنية الهاشمية: جامعة آل البيت ،المفرق)، ص٥.

٦- كان ادعى أن عليا هو الإله، فكان يقول: إن عليا لم يقتل ولم يُتوفَّ.

بعض الناس يقولون: إن عليا أحرقه، وليس بصحيح، فقد كان حيا عندما قتل أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، ولما بلغه نعي أمير المؤمنين قال: إنه لراجع، فلم يقتل ولم يمت، ومات عبد الله بن سبأ في نفس السنة أي ٤٠هـ(١).

ويؤيده ماورواه ابن حجر في لسان الميزان: أن سويد بن غفلة دخل على علي في إمارته فقال: إني مررت بنفر يذكرون أبا بكر وعمر يرون أنك تضمر لهما مثل ذلك، منهما عبد الله بن سبأ، وكان عبد الله بن سبأ أول من أظهر ذلك، فقال علي: مالي ولهذا الخبيث الأسود؟ ثم قال: معاذ الله أن أضمر لهما إلا الحسن الجميل، ثم أرسل إلى عبد الله بن سبأ فسيره إلى المدائن، وقال: لا يساكنني في بلدة أبدا، ثم نهض إلى المنبر حتى اجتمع الناس، فذكر القصة في ثنائه عليهما بطوله وفي آخره: ولا يبلغني عن أحد يفضلني عليهما إلا جلدته حد المفتري"(٢).

يحسن التعريف بالشيعة في اللغة والاصطلاح قبل بيان عقائد الشيعة ومبادئ التشيع التي يقوم عليها.

المبحث الرابع: الشيعة في اللغة والاصطلاح:

الشيعة في اللغة:

شِيْعَةُ الرجلِ بالكسر: أتباعه وأنصاره، وجمعها شِيَعٌ، وأشياعٌ جمع الجمع، وقد غلب هذا الاسم على كل من يتولى عليًّا المرتضى -رضي الله عنه-

(١) انظر: البروفيسور طاهر علي الهاشمي، شيعيت تاريخ وأفكار، (باكستان: أكاديمية قاضي جن بيرا الهاشمي هزاره، ط١، ٢٠٠١م) ص٨٣.

(٢) ابن حجر، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، لسان الميزان، (مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط٣، ١٤٠٦هـ)، ج٣، ص٢٨٩.

وأهلَ بيته، حتى صار اسماً لهم خاصًّا، فإذا قيل: "فلان من الشيعة" عرف أنه منهم، وفي مذهب الشيعة كذا أي: عندهم. وقيل: أصل ذلك من المشايعة، وهي المتابعة والمطاوعة.[1]

الشيعة في الاصطلاح:

اختلفت تعبيرات المؤلفين في الفرق والمذاهب في تعريف الشيعة، وإن كانت تلك التعريفات تدور حول معنى واحد.

وأدق التعريفات للشيعة ما قاله الشهرستاني في الملل والنحل، يقول الشهرستاني: "الشيعة هم الذين شايعوا علياً- رضي الله عنه - على الخصوص، وقالوا بإمامته وخلافته نصاً ووصية، إما جلياً، وإما خفياً، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده، وإن خرجت فبظلم يكون من غيره، أو بتقية من عنده. وقالوا: ليست الإمامة قضية مصلحية تناط باختيار العامة وينتصب الإمام بنصبهم، بل هي قضية أصولية، وهي ركن الدين لا يجوز للرسل عليهم السلام إغفاله وإهماله، ولا تفويضه إلى العامة وإرساله.

ويجمعهم القول بوجوب التعيين والتنصيص، وثبوت عصمة الأنبياء والأئمة وجوباً عن الكبائر والصغائر. والقول بالتولي والتبري قولاً وفعلاً

---

(١) الفيروز آبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (المتوفى: ٨١٧هـ)، القاموس المحيط(مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٠٧هـ١٩٨٧م، ص٣٨٣؛ وابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (المتوفى: ٦٠٦هـ)النهاية في غريب الحديث، (لبنان: المكتبة العلمية بيروت، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م)،ج٢، ص٥١٩.

وعقداً إلا في حال التقية، ويخالفهم بعض الزيدية في ذلك".(١)

أما إذا أردنا عرض عقائد الشيعة فيجب أن نضع في الاعتبار التطور التاريخي للمذهب الشيعي، فشيعة علي رضي الله عنه في زمنه لم يكونوا يختلفون عن سائر المسلمين في العقائد وأصول الدين، وإنما كانوا يناصرون عليا ويشايعونه ويساندونه في أمر الخلافة، ولذا يقال: شيعة علي وشيعة عثمان أو شيعة معاوية، رضي الله عنهم أجمعين، ولم يكن الاختلاف اختلاف عقائد وأصول، وإنما هي وجهات نظر، قد تتحد وقد تختلف، وقد تتعدد فيها وجهات الصواب.

فقد جاء في كتاب تحفة اثنا عشرية للإمام شاه عبد العزيز الدهلوي: "إن الذين كانوا في وقت خلافة الأمير رضي الله عنه من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان، كلهم عرفوا له حقه، وأحلوه من الفضل محله، ولم ينتقصوا أحداً من إخوانه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فضلاً عن إكفاره وسبه"(٢)

ولكن لاسيما بعد موقعة كربلاء في عاشوراء عام ٦١هـ حدث استياء عام ضد الدولة الأموية، وفي هذه الفترة تمَّ اختراع معانٍ جديدةٍ لحب علي وبغض من نافسه أو حاربه من الصحابة ومن معهم، حتى تمَّ إنشاء دينٍ جديدٍ باسم الشيعة، اصطبغ كثيرا بالصبغة اليهودية المدسوسة على الإسلام، والصبغة

---

(١) الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبى بكر أحمد الشهرستاني (المتوفى: ٥٤٨هـ)، الملل والنحل، (بيروت: مؤسسة الحليبي، د.ت، د.ط)، ج١، ص١٤٧.

(٢) شاه عبد العزيز الدهلوي، مختصر التحفة الاثني عشرية، تحقيق وتلخيص: محمود شكري الألوسي، (القاهرة: المطبعة السلفية ١٣٨٣هـ)، ص٣.

الفارسية، وغيرها من الألوان الدخيلة، حتى صار التشيع مطية ذلولا لكل من أراد الكيد للإسلام، أو أراد أن يعيش في ظل عقيدته السابقة باسم الإسلام(١).

مما يجب أن نلاحظ هنا أن الشيعة تفرقوا إلى فرق وطوائف كثيرة، حتى عدَّها الشاه عبد العزيز المحدث الدهلوي في كتابه "تحفة اثني عشرية" ٣٩ فرقة شيعية، ولكن الشيعة التي نخصها بالبحث ونريد بيان عقيدتها هي الفرقة الإمامية الاثني عشرية، التي هي أشد الفرق الشيعية عِداء للسنة، وأكثرها انتشارا وامتدادا في العالم الإسلام بمدد لاينقطع من قبل الدولة الإيرانية.

(١) ناصر بن عبد الله بن علي القفاري، أصول مذهب الشعية الإمامية الإثني عشرية عرض ونقد(المكتبة الشاملة)، ج١، ص٤٨.

الفصل الثاني:

أهم عقائد الشيعة التي خالفوا بها أهل السنة والجماعة:

هناك كثير من العقائد التي خالفت بها الشيعة الإمامية الإثنا عشرية الإسلامَ وأهلَه، ونحوا بأتباعهم منحى بعيداً عن جادة الحق والصواب، وفي هذا المبحث سنورد أهم عقائدهم المخالفة للإسلام وأهله؛ ليرى المنصف مدى بُعد هذه الطائفة عن منهاج النبوة، وسنورد عقائدهم في النقاط التالية:

المبحث الأول: عقيدة تحريف القرآن:

الشيعة الإمامية الاثنا عشرية يقولون بتحريف القرآن الكريم، ويعتقدون أن القرآن الكامل هو عند الإمام المهدي المنتظر، وأنه سيظهره عند ظهوره.

وقد تضافرت الروايات المنسوبة إلى أئمتهم في كتبهم في إثبات هذا القول وتقريره، ولهجت ألسنة علمائهم بتوضيحه وتحريره، ونقل بعض علمائهم إجماع طائفتهم عليه، وبلغ الأمر بهم في تقرير وإثبات هذا القول أن أَلَّف أحد شيوخهم وعلمائهم وهو النوري الطبرسي– من كبار علماء النجف– كتاباً في أواخر القرن الثالث عشر الهجري أسماه "فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب"، سرد فيه أكثر من ألفي رواية عن أئمته، دالة على أن القرآن الكريم مُحَرَّفٌ.

وللشيعة الاثني عشرية عقائد أخرى في كتاب الله سبحانه وتعالى، منها: أن القرآن ليس بحجة إلابقيِّم: ففي الكافي للكليني أن جعفر الصادق رحمه الله قال: "القرآن لا يكون حجة إلا بقيم، ثم قال: فأشهد أن علياً عليه السلام كان

حجة القرآن، وكانت طاعته مفترضة، وكان الحجة على الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وآله "[1].

ومن عقائدهم فيه: أن علم القرآن ومعرفته محصور بالأئمة: فقد ورد في الكافي للكليني وغيره أن جعفر الصادق رحمه الله قال: "إن الناس يكفيهم القرآن لو وجدوا له مفسراً، وإن رسول الله صلى الله عليه وآله فسره لرجل واحد، وفسر للأمة شأن ذلك الرجل، وهو علي بن أبي طالب"[2].

ويفترون على رسول الله ﷺ أنه قال: إن الله أنزل عليَّ القرآن، وهو الذي من خالفه ضل، ومن يبتغي علمه عند غير علي هلك"[3].

ولاشك أن الشيعة اختلفوا في تحريف القرآن الكريم، وقد ذكر الإمام النانوتوي أن الشيعة لهم قولان في باب تحريف القرآن الكريم، أولهما أن القرآن محفوظ غير محرف، وثانيهما أن القرآن حدث فيه نقص ولم تحدث زيادة، كما سيأتي بيانها.

المبحث الثاني: عقيدة الإمامة:

أهم عقائد الشيعة الإمامية الاثني عشرية هي عقيدة الإمامة، فهي الأصل الذي تدور عليه أحاديثهم، وترجع إليه عقائدهم، ويُلمس أثره في فقههم وأصولهم، وتفاسيرهم وسائر علومهم.

---

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، أصول الكافي، (إيران: دار الكتب الإسلامية، طهران، ط٥)ج١، ص١٨٨.

(٢) الكليني، محمد بن يعقوب، أصول الكافي، ج١، ص٢٥. ويُنظر: العلامة المجلسي، بحار الأنوار (إيران: مؤسسة آية الله العظمة، ط٢، ١٩٨٣م)ج٢٥، ص٧٢.

(٣) يُنظر: العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج٣٨، ص٩٤؛ و محمد بن الحسن الحر العاملي، الفصول المهمة في أصول الأئمة (مؤسسة معارف إسلامي امام رضا، ط١، ١٤١٨ه)ج١، ص٥٩٦.

وهي أن الله سبحانه وتعالى عهد بالخلافة وولاية أمر المسلمين بعد رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، ثم لأحد عشر إماماً من بعده، كلهم من نسله.

ويعتقدون كذلك أن النبي ﷺ نص على ذلك في عدة مواطن، وأنه نصب علياً بن أبي طالب رضي الله عنه وأخذ البيعة له بإمرة المؤمنين يوم غدير خم، كما أنه ﷺ بين أن الأئمة من بعده اثنا عشر، ونص عليهم جميعاً بأسمائهم، وهم:

(١) أبوالحسن علي بن أبي طالب(١).

(٢) أبومحمد الحسن بن علي بن أبي طالب(٢).

(٣) أبوعبد الله الحسين بن علي بن أبي طالب(٣).

---

(١) علي بن أبي طالب بن عبد المطلب الهاشمي القرشي، أبو الحسن: أمير المؤمنين، رابع الخلفاء الراشيد بن وأحد العشرة المبشرين بالجنة، وابن عم النبي وصهره، وأحد الشجعان الأبطال، ومن أكابر الخطباء والعلماء بالقضاء، وأول الناس إسلاما بعد خديجة. ولد بمكة، وربي في حجر النبي صلى الله عليه وسلم ولم يفارقه، وله فضائل سائرة، وولي الخلافة بعد مقتل عثمان ابن عفان رضي الله عنه سنة ٣٥هـ، حدث اختلاف بينه وبين بعض أكابر الصحابة بشأن القبض على قتلة عثمان، وكان يتقي الفتنة، فحدثت وقعة الجمل سنة٣٦هـ ووقعة صفين سنة ٣٧هـ، وقتله ابن ملجم غيلة في ١٧ من رمضان ٤٠هـ، يُنظر: خير الدين الزركلي، الأعلام (بيروت: دار العلم للملايين، ط١٥، ٢٠٠٢م)، ج٤، ص٢٩٥.

(٢) الحسن بن علي بن أبي طالب الهاشمي، سبط رسول الله ﷺ وريحانته، وقد صحبه وحفظ عنه، مات شهيداً بالسم سنة تسع وأربعين وهو ابن سبع وأربعين، وقيل: بل مات سنة خمسين، وقيل بعدها. يُنظر: بن حجر العسقلاني، تقريب التهذيب، (سوريا: دار الرشيد، ط١، ١٩٨٦م)، ج١، ص١٦٧، ترجمة رقم١٢٦٠.

(٣) الحسين ابن علي ابن أبي طالب الهاشمي أبو عبد الله المدني سبط رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وريحانته حفظ عنه، استشهد يوم عاشوراء سنة إحدى وستين، وله ست وخمسون سنة، ينظر: ابن حجر العسقلاني، تقريب التهذيب، ج١، ص١٦٧، ترجمة رقم ١٣٣٤.

(٤) أبو محمد علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب[١].

(٥) أبوجعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب[٢].

(٦) أبو عبد الله جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب[٣].

(٧) أبو إبراهيم موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب[٤].

(٨) أبو الحسن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب[٥].

---

(١) علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي، زين العابدين، ثقة ثبت عابد فقيه، فاضل مشهور، قال ابن عيينة عن الزهري: ما رأيت قرشياً أفضل منه. مات سنة ثلاث وتسعين وقيل غير ذلك. يُنظر: المصدر السابق، ترجمة رقم٤٧١٥.

(٢) محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أبوجعفر الباقر، ثقة فاضل، مات سنة مائة وبضع عشرة. يُنظر: المصدر السابق، ترجمة رقم٦١٥١.

(٣) جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين السبط، الهاشمي القرشي، أبو عبد الله، الملقب بالصادق، سادس الأئمة الاثني عشر عند الإمامية. كان من أجلاء التابعين. وله منزلة رفيعة في العلم. أخذ عنه جماعة، منهم الإمامان أبو حنيفة ومالك. ولقب بالصادق لأنه لم يعرف عنه الكذب قط، مولده ووفاته بالمدينة. ينظر: خير الدين الزركلي، الأعلام، ج٢، ص١٢٦.

(٤) موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر، أبو الحسن: سابع الأئمة الاثني عشر عند الإمامية. كان من سادات بني هاشم، ومن أعبد أهل زمانه، وأحد كبار العلماء الأجواد. ولد في الأبواء، وسكن المدينة، توفى في بغداد (١٨٣هـ). يُنظر: خير الدين الزركلي، الأعلام، ج٧، ص٣٢١.

(٥) علي بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق، أبو الحسن، الملقب بالرضى، ثامن الأئمة الاثني عشر عند الإمامية، ومن أجلاء السادة أهل البيت وفضلائهم، وأحبه المأمون العباسي، فعهد إليه بالخلافة من بعده، وزوّجه ابنته، لكن لم يتم له ذلك، وقد مات في عهد المأمون العباسي بطوس، ينظر: الزركلي، الأعلام، ج٥، ص٢٦.

(٩) أبو جعفر محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب(١).

(١٠) أبوالحسن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب(٢).

(١١) أبو محمد الحسن بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب(٣).

(١٢) أبو القاسم محمد بن الحسن بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب(٤).

---

(١) أبوجعفر محمد بن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر، المعروف بالجواد، أحد الأئمة الاثني عشر أيضاً، كان رفيع القدر كأسلافه، ذكياً، طلق اللسان، قوي البديهة. ولد في المدينة سنة (١٩٥ هـ) وانتقل مع أبيه إلي بغداد. وتوفي والده فكفله المأمون العباسي ورباه، وزوجه ابنته (أم الفضل) وقدم المدينة ثم عاد إلى بغداد فتوفي بها سنة ٢٢٠هـ. يُنظر: ابن خلكان البرمكي، وفيات الأعيان(بيروت: دار صادر، ط١، ١٩٧١م)، ج٤، ص١٧٥.

(٢) علي الهادي بن محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق، أبوالحسن العسكري ٢١٤-٢٥٤ هـ)، عاشر الأئمة الاثني عشر عند الشيعة الرافضة، استقدمه المتوكل من مدينة رسول الله ﷺ إلى بغداد ثم إلى سامراء فقد مها وأقام بها عشرين سنة وتسعة أشهر إلى أن توفي ودفن بها في أيام المعتزبالله. يُنظر: الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد (بيروت: دار الكتب العلمية)، ج١٢ ص٥٦ـ٥٧.

(٣) أبو محمد الحسن بن علي العسكري، الإمام الحادي عشر عند الإمامية، ولد في المدينة سنة (٢٣٢هـ)، وانتقل مع أبيه (الهادي) إلى سامراء في العراق وكان اسمها مدينة العسكر، فقيل له: العسكري كأبيه نسبة إليها. وتوفي بسامراء سنة (٢٦٠ هـ). يُنظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٢، ص٩٤.

(٤) محمد هذا هو الذي يزعمون أنه الخلف الحجة، وأنه صاحب الزمان، وأنه صاحب السرداب بسامراء، وأنه حي إلى الآن. وهو موهوم معدوم. يُنظر: شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء(القاهرة: دار الحديث، ١٤٢٧ه/ ٢٠٠٦م)ج١٣، ص١١٩-١٢٠.

ولهذه العقيدة عندهم شروط وأحكام وتفصيلات عديدة، ليس هذا موضع إيرادها، فالذي نريد أن نبينه هنا هو مفهوم هذه العقيدة، ومنزلتها في دينهم، ولذلك سنوردالآثار التي نسبوها إلى أئمتهم وأقوال علمائهم في ذلك، فنقول:

يقول ابن بابويه القمي مبيناً مفهوم الإمامة عندهم، واعتقادهم لهذا المفهوم: يعتقدون –أي الإمامية– بأن لكل نبي وصياً أوصى إليه بأمرالله تعالى"[1].

وجاء في بعض عناوين الأبواب في الكافي "باب أن الإمامة عهد من الله عزوجل معهود من واحد إلى واحد"[2]، و "باب مانص الله عزوجل ورسوله على الأئمة واحداً فواحداً "[3].

ويبين شيخهم كاشف الغطاء أن الإمامة منصب إلهي كالنبوة: "إن الإمامة منصب إلهي كالنبوة، كما أن الله يختار من يشاء من عباده للنبوة والرسالة، ويؤيده بالمعجزة التي هي لطف من الله عليه، فكذلك يختار للإمامة من يشاء، ويأمر نبيه بالنص عليه، وأن ينصبه إماماً للناس من بعده للقيام بالوظائف التي كان النبي ﷺ يقوم بها"[4].

ولذلك قال شيخهم المجلسي[5]: "إن استنباط الفرق بين النبي والإمام من تلك الأخبار لا يخلو من إشكال".

---

(١) ابن بابويه، الاعتقادات، (إيران: دار المفيد للطباعة والنشر، ط٢، ١٩٩٣م) ص١-٦.

(٢) الكليني، محمد بن يعقوب، أصول الكافي، ج١، ص٢٢٧

(٣) المصدر السابق، ج١، ص٢٨٦.

(٤) كاشف الغطاء، أصل الشيعة وأصولها(إيران: مؤسسة الإمام علي قم) ص ٥٨.

(٥) من علماء الشيعة الرافضة، تولى مشيخة الإسلام في أصفهان.

ثم قال: "ولا نعرف جهة لعدم اتصافهم بالنبوة إلا رعاية خاتم الأنبياء، ولا يصل عقولنا فرق بين النبوة والإمامة"(١).

وهم يعتبرون هذه العقيدة سبب إيجاد العالم ونشأته وخلقه، وأنها أفضل الأعمال وأهمها، وفي ذلك يقول هاشم البحراني(٢): "فبحسب الأخبار الواردة في أن الولاية أصل الإيمان مع توحيد الله عزوجل، بحيث وشرط قبول الأعمال، والخروج عن حد الكفر والشرك، وإنها التي عرضت كالتوحيد على الخلق جميعاً، وأخذ عليها الميثاق، وبعث لها الأنبياء، وأنزلت فيها الكتب، وكلف بها جميع الأمم ولو ضمنا، وأن نسبة النبوة في الإمامة كنسبتها إلى التوحيد في تلازم الإقرار بها، وبقريبتها بحيث أن الكفر بكل في حكم الكفر بالآخر، ولا يفيد الإيمان ببعض دون بعض"(٣).

ويقول أيضاً: "وفي تفسير الإمام عليه السلام أنه قال: إن ولاية محمد، وآل محمد صلوات الله عليهم هي الفرض الأقصى، والمراد الأفضل، ماخلق الله أحداً من خلقه، ولابعث أحداً من رسله؛ إلا ليدعوهم إلى ولاية محمد وعلى خلفائه، ويأخذ عليهم العهد ليقموا عليه وليعلموا به سائر عوام الأمم"(٤).

(١) العلامة المجلسي، بحار الأنوار ج٢٦، ص٨٢.
(٢) من مفسري الشيعة الإمامية.
(٣) هاشم البحراني، مقدمة البرهان في تفسير القرآن (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط٢، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م)، ص١٩.
(٤) المصدر السابق، ص٢٤.

ويقول المجلسي: "ولاريب في أن الولاية والاعتقاد بإمامة الأئمة عليهم السلام، والإذعان لهم من جملة أصول الدين، وأفضل من جميع الأعمال، والإذعان لهم من جملة أصول الدين، وأفضل من جميع الأعمال البدنية؛ لأنها مفتاحهن"(١).

ويقول الشيخ المظفر: "نعتقد أن الإمامة أصل من أصول الدين لايتم الإيمان إلا بالاعتقاد بها"(٢).

وفي ذلك لهم روايات مفتراة منسوبة إلى رسول الله ﷺ وإلى أئمتهم الاثني عشر، ومن ذلك:

مانسبوه إلى أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: رأيت رسول الله وسمعته يقول: "يا علي! مابعث الله نبياً إلا وقد دعاه إلى ولايتك طائعاً أوكارهاً(٣).

ومارواه شيخهم الصفار عن أبي الحسن رحمه الله أنه قال: "ولاية علي مكتوبة في جميع صحف الأنبياء ولن يبعث الله نبياً إلا بنبوة محمد وولاية وصيه علي عليه السلام"(٤).

ومارواه أيضاً عن أبي جعفر الباقر رحمه الله في قول الله عزوجل: وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا [طه:١١٥] أنه قال: "عهد إليه في محمد، والأئمة من بعده فترك، ولم يكن له عزم فيهم أنهم هكذا، وإنما سمي أولو العزم؛ لأنه عهد إليهم في محمد والأوصياء من بعده، والمهدي وسيرته فأجمع عزمهم أن ذلك كذلك والإقراربه"(٥).

---

(١) السيد مرتضى العسكري، مرآة العقول(طهران: دار الكتب الإسلامية)، ج٧، ص١٠٢.

(٢) الشيخ محمد رضا المظفر، عقائد الإمامية، ص٤٩.

(٣) أبو جعفر محمد بن الحسن بن فروخ الصفار، بصائر الدرجات الكبري، ص ٩-٩٣.

(٤) المصدر السابق، ص٩٢-٩٣.

(٥) انظر: الكليني، محمد بن يعقوب، أصول الكافي، ج١، ص٤١٦.

وروي الكليني عنه أنه قال: "بني الإسلام على خمس: على الصلاة والزكاة والصوم والحج والولاية، ولم يناد بشيئ كما نودي بالولاية، فأخذ الناس بأربع وتركواهذه"[1] يعني الولاية.

وفي رواية أخري: "قلت- أي الراوي-: وأي شيء من ذلك أفضل؟ فقال: الولاية أفضل"[2].

حتى قالوا في أخبارهم- أيضا- بأنه: "عُرج بالنبي -صلى الله عليه وآله- السماء مائة وعشرين مرة، مامن مرة إلا وقد أوصى الله عزوجل فيها إلى النبي بالولاية لعلي والأئمة من بعده أكثر مما أوصاه بالفرائض"[3].

وقال هادي الطهراني: "إن أعظم مابعث الله تعالى نبيه من الدين إنما هو أمرالإمامة"[4].

يقول البحراني: "إن الوصية بالولاية، والأمر بتعيين علي عليه السلام للإمامة والخلافة كان بالمشافهة من دون سائر الفرائض، وأنه عمدة ماخاطب الله به نبيه في مقام قاب قوسين أو أدنى، وقد صرح الصادق بذلك حيث قال كما في الكافي بعد أن ذكر حكاية المعراج وتوصية الله بالولاية: "والله ماجاءت ولاية علي من الأرض؛ ولكن جاءت من السماء مشافهة".

ولا يخفى أن هذا أدل دليل على كمال الاهتمام بشأن هذا الأمر ومزيد القصد إلى بيانه"[5].

---

(١) المصدر السابق، ج٢، ص١٨.

(٢) المصدر السابق.

(٣) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج٢٣، ص٦٩.

(٤) محمد هادي الطهراني، ودائع النبوة ، (العراق: مؤسسة كاشف الغطاء)،ص ١١٥ .

(٥) هاشم البحراني، مقدمة البرهان في تفسير القرآن، ص٢٦.

ويبلغ غلوهم في الإمامة إلى أن يعتبروها درجة أعلى من درجة النبوة والرسالة:

قال شيخهم نعمة الله الجزائري: "الإمامة العامة التي هي فوق درجة النبوة والرسالة"(١).

وقال هادي الطهراني: "الإمامة أجل من النبوة، فإنها مرتبة ثالثة شرَّف الله تعالى بها إبراهيم بعد النبوة والخلة"(٢).

المبحث الثالث: التقية

قبل أن نخوض في مسألة التقية لا بد لنا من معرفة ماهيتها وحقيقتها عند القوم، حتى يتسنى للمسلم معرفة الموقف الشرعي منها؛ لأن الحكم على الشيء فرع عن تصوره.

تعريف التقية:

لغة:

قال الفيروزآبادي: "اتقيت الشيء، وتقيته أتقيه، وأتقيه تقيا، وتقيةً وتقاءً ككساء: حذرته"(٣).

وقال المطرِّزيُّ: التَّقيَّة اسم من الاتّقاء، وتاؤها بدل من الواو؛ لأنها فَعيلة من "وقيتُ"، وهي أن يقي نفسه من اللائمة أو من العقوبة بما يُظهِر، وإن كان على خلاف ما يضمر"(٤).

(١) نعمة الله الجزائري، زهر الربيع، ص١٢.

(٢) محمد هادي الطهراني، ودائع النبوة، ص١١٤.

(٣) الفيروزآبادي، القاموس المحيط،ص١٧٣١، باب الواو والياء فصل الواو.

(٤) ناصر بن عبد السيد أبي المكارم ابن علي، أبو الفتح، برهان الدين الخوارزمي المُطَرِّزِيّ، المغرب في ترتيب المعرب(بيروت: دار الكتاب العربي)ج٢، ص٣٦٧، باب الواو مع القاف.

اصطلاحاً:

يعرِّف المفيد القمي التقية عندهم قائلاً: "التقية كتمان الحق، وستر الاعتقاد فيه، وكتمان المخالفين، وترك مظاهرتهم بما يعقب ضرراً في الدين أوالدنيا"(١).

وقال الشهرستاني في تعليقه على أوائل المقالات للمفيد: "التقية إخفاء أمر ديني لخوف الضرر من إظهاره"(٢).

وعرَّفها الحافظ ابن حجر رحمه الله بقوله: "التقية: الحذر من إظهار مافي النفس من معتقد وغيره للغير"(٣).

مكانة التقية عند الشيعة الاثني عشرية وحكمها:

التقية عندالشيعة الاثني عشرية هي ركن من أركان دينهم كالصلاة أو أعظم، وتدل على ذلك رواياتهم التالية:

قال ابن بابويه القمي في اعتقاداته: "اعتقادنا في التقية أنها واجبة، من تركها بمنزلة من ترك الصلاة"(٤).

وجاء في مستدرك الوسائل: عن جعفر الصادق رحمه الله أنه قال: "لوقلت: إن تارك التقية كتارك الصلاة لكنت صادقاً.."(٥).

بل نسبوا إلى النبي ﷺ أنه قال: "تارك التقية كتارك الصلاة"(٦)، ثم زادوا في درجة التقية فجعلوها "تسعة أعشار الدين"، ثم لم يكفهم ذلك فجعلوها هي الدين كله، فلا دين عندهم لمن لا تقية له.

(١) مفيد القمي، شرح توحيد الصدوق(طهران: مؤسسة الطباعة والنشر، ط١، ١٤١٥هـ)، ص٢٦١.
(٢) الشيخ المفيد، أوائل المقالات(بيروت: دار المفيد للطباعة والنشر، ط٢، ١٤١٤ه) ص٩٦.
(٣) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري(بيروت: دار المعرفة، ١٣٧٩ه)ج١٢، ص٣١٤.
(٤) ابن بابويه، الاعتقادات، ص١١٤.
(٥) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج٧٥، ص٤١٢-٤١٤.
(٦) المصدر السابق.

فقد جاء في أصول الكافي وغيره: أن جعفر الصادق رحمه الله قال: "إن تسعة أعشار الدين في التقية، ولا دين لمن لا تقية له"(١).

وعدُّوا ترك التقية ذنباً لا يُغْفَر على حد الشرك بالله سبحانه وتعالى.

فقالت أخبارهم: "يغفر الله للمؤمن كل ذنب، يظهر منه في الدنيا والآخرة، ماخلا ذنبين: ترك التقية، وتضييع حقوق الإخوان"(٢).

ورووا عن جعفر الصادق رحمه الله أنه قال: "إنكم على دين من كتمه أعزه الله، ومن أذاعه أذله الله"(٣).

وقال: " أبى الله عزوجل لنا ولكم في دينه إلا التقية»(٤).

والتقية عندهم حالة مستمرة، وسلوك جماعي دائم، لايمكن التخلي عنها إلا بالتخلي عن الإسلام!

قال ابن بابويه في كتابه "الاعتقادات" المسمى دين الإمامية: "والتقية واجبة، لا يجوز رفعها إلى أن يخرج القائم، فمن تركها قبل خروجه فقد خرج عن دين الله تعالى وعن دين الإمامية، وخالف الله ورسوله والأئمة"(٥).

وروت كتب الشيعة الاثني عشرية عن علي بن موسى الرضا أنه قال: "لا إيمان لمن لا تقية له، وإن أكرمكم عند الله أعملكم بالتقية. فقيل له: يا ابن رسول الله! إلى متى؟ قال: إلى يوم الوقت المعلوم، وهو يوم خروج قائمنا، فمن ترك التقية قبل خروج قائمنا فليس منا"(٦).

---

(١) الكليني، أصول الكافي، ج٢، ص٢١٧.

(٢) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج٧٥، ص٤١٥.

(٣) الكليني، أصول الكافي، ج٢، ص٢٢٢.

(٤) المصدر السابق، ج٢، ص٢١٨.

(٥) الشيخ الصدوق ابن بابويه، الاعتقادات، ص ١١٤-١١٥.

(٦) الحر العاملي، وسائل الشيعة(مؤسسة آل البيت لإحياء التراث)ج١٦، ص٢١٠..

ويؤكدون على أن تكون عِشْرَةُ الشيعة الإثني عشرية مع أهل السنة بالتقية، ومما يدل على ذلك مايلي: عقد الحر العاملي في وسائل الشيعة باباً باسم: "باب وجوب عشرة العامة[1] بالتقية"[2].

ونسبوا لأبي عبدالله أنه قال:"من صلى معهم-أي: أهل السنة- في الصف الأول فكأنما صلى مع رسول الله ﷺ في الصف الأول"[3].

وقال: "من صلى خلف المنافقين بتقية كان كمن صلى خلف الأئمة"[4].

وقال صاحب كشف الغطاء: "التقية إذا وجبت فمتى أتى بالعبادة على خلافها بطلت، وقد ورد فيها الحث العظيم، وأنها من دين آل محمد، ومن لا تقية له لا إيمان له"[5].

بل إن التقية عندهم تجري حتى وإن لم يوجد ما يبررها، فأخبارهم تحث الشيعي على استعمال التقية حتى مع من يأمن جانبه؛ لكي تصبح له سجية وطبيعة، فيمكنه التعامل بها حينئذ مع من يحذره ويخافه بدون تكلف ولا تصنع.

فقد روت كتبهم:" عليكم بالتقية، فإنه ليس منا من لم يجعلها شعاره ودثاره مع من يأمنه؛ لتكون سجيته مع من يحذره"[6].

بل هي عندهم أحب العبادات إلى الله تعالى.

فقد روي الكليني عن هشام الكندي قال: سمعت أباعبدالله يقول: "والله ما عُبِدَاللهُ بشيء أحب إليه من الخبء، فقلت: ما الخبء؟ قال: التقية"[7].

(١) أي: أهل السنة والجماعة..
(٢) الحر العاملي، وسائل الشيعة (مؤسسة آل البيت لإحياء التراث) ج١١، ص٤٧.
(٣) العلامة المجلسي، بحار الأنوار ج٧٥،ص٤٢١.
(٤) المصدر السابق، ج٧٥، ص٤٢٢.
(٥) جعفر كاشف الغطاء، كشف الغطاء، ص٦١.
(٦) العلامة المجلسي، بحار الأنوار ج٧٥، ص٣٩٥.
(٧) الكليني، أصول الكافي ج٢، ص٢١٩.

وجاء في الكافي وغيره عن محمد بن مروان عن أبي عبدالله – رضي الله عنه– قال: "كان أبي–عليه السلام– يقول: وأي شيئ أقر لعيني من التقية"(١)، وفي رواية: "ماخلق الله شيئًا أقر لعين أبيك من التقية"(٢).

المبحث الرابع: عقيدة الرجعة:

الرجعة: هي الرجوع إلى الحياة الدنيا بعد الموت كما صرح بذلك علماء اللغة(٣).

أما معنى الرجعة عند الإمامية الاثني عشرية فسنأخذه من أفواههم؛ لأنهم أصحابها المعتقدين لها، والداعين إليها.

يقول محدث الإمامية الاثني عشرية محمد بن الحسن الحر العاملي في كتابه "الإيقاظ من الهجعة في إثبات الرجعة": "اعلم أن الرجعة هي الحياة بعد الموت قبل القيامة، وهو الذي يتبادر من معناها، وصرح به العلماء هنا كما أتى، ويفهم من مواقع استعمالها، ووقع التصريح به في أحاديثها"(٤).

وقال الشيخ الأحسائي في كتاب "الرجعة": "اعلم أن الرجعة سر من سر الله، والقول بها ثمرة الإيمان بالغيب، والمرادبها: رجوع الأئمة– عليهم السلام– وشيعتهم وأعدائهم ممن محض من الفريقين الإيمان أو الكفر محضاً، ولم يكن ممن أهلكه الله في الدنيا بالعذاب، فإن من أهلكه الله في الدنيا بالعذاب لايرجع إلى الدنيا"(٥).

وقال آية الله السيد إبراهيم الموسوي الزنجاني في معنى الرجعة: "الرجعة: عبارة عن حشر قوم عند قيام القائم الحجة بن الحسن– عليه السلام– ممن تقدم

(١) المصدر السابق، ج٢، ص٢٢٠.
(٢) المصدر السابق، ج٢، ص٢٢٠.
(٣) يُنظر: الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص٩٣٠) باب العين فصل الراء.
(٤) يُنظر: محمد بن الحسن الحر العاملي، الإيقاظ من الهجعة في إثبات الرجعة(طهران: مؤسسة دليل ما، ط١، ١٤٢٨ه)، ص١٩.
(٥) يُنظر: المصدر السابق، ص١١.

موتهم، من أوليائه وشيعته؛ ليفوزوا بثواب نصرته ومعونته، ويبتهجوا بظهور دولته، وقوم من أعدائه ينتقم منهم، وينالون بعض مايستحقونه من العذاب والقتل على أيدي شيعته، ويبتلوا بالذل والخزي بما يشاهدونه من علو كلمته، وهي عندنا – الإمامية الاثنا عشرية- تختص بمن محض الإيمان ومحض الكفر، والباقون مسكوت عنهم"[١].

وقال شيخهم محمد رضا المظفر: "عقيدتنا في الرجعة: أن الله تعالى يعيد قوماً من الأموات إلى الدنيا في صورهم التي كانوا عليها، فيعزفريقاً ويذل فريقاً آخر، ويديل المحقين من المبطلين، والمظلومين منهم من الظالمين، وذلك عندقيام مهدي آل محمد- عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام- ولا يرجع إلا من علت درجته في الإيمان، أومن بلغ الغاية من الفساد، ثم يصيرون بعد ذلك إلى الموت"[٢].

إجماع الشيعة الاثني عشرية على القول بالرجعة:

الشيعة الإثنا عشرية جميعهم يقولون بالرجعة، وقد نقل غير واحد من علمائهم المشهورين إجماعهم على القول بها.

قال ابن بابويه القمي في كتابه الاعتقادات: "اعتقادنا[٣] في الرجعة أنها حق، وقد قال تعالى: **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ** [البقرة: ٢٤٣]"[٤].

(١) السيد إبراهيم الموسوي الزنجاني، عقائد الإمامية الإثني عشرية(بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات)، ج٢، ص٢٢٨.

(٢) الشيخ محمد رضا المظفر، عقائد الإمامية، ص١١٨.

(٣) يعني: الإمامية.

(٤) ابن بابويه، الاعتقادات، ص٦٠.

الباب الثالث

منهج الإمام في الرد علي الشيعة

الفصل الأول:
منهج الإمام في الرد على الأفكار الباطلة

إن منهج الإمام في الإصلاح والرد على الأفكار الهدَّامة كمنهج غيره من الأعلام يقوم أساسه على تعاليم الكتاب والسنة وتأصيل العقائد الأساسية المتمثلة في التوحيد والرسالة واليوم الآخر وختم النبوة بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فركَّز اهتمامه على هذه العقائد الإسلامية.

وهذا المنهج امتداد للمنهج التجديدي الشامل الذي كان وضعه الإمام شاه ولي الله الدهلوي رحمه الله؛ حيث كان منهج الإمام عمليًا يجمع بين الفكر والثقافة والسياسة والاجتماع والدين والحضارة، وقد قام الإمام بتطبيق هذا المنهج وتنفيذه على الصعيد العلمي والعملي.

فالفكر القاسمي يتركز أساسًا على مبادئ الإسلام وأصوله وكلياته والحفاظ على كيانه الفكري والعملي ومقاومة ما يعارضه من فكر واتجاه وبدعة، مع مراعاة شبه كاملة للأوضاع والظروف والمشكلات والمستجدات العصرية؛ حتى يواكب الدين التصورات الحديثة ولايداخله شئ من التحريف والتشويه.

الفكر القاسمي ليس فكرا تافهًا؛ بل هو عبارة عن امتزاج الفكر السليم والعلم النافع والعمل الصالح في ضوء تعاليم الكتاب والسنة.

ومن أهم ميزات الفكر القاسمي تطبيقه العملي؛ حيث لم يكن مجموعة آراء نظرية؛ بل أساسُه هوالإخلاص والعمل، فروحُه اتباع السنة، وأسوته هي الأسوة الحسنة وسِيَرُ الصحابة والتابعين، وهدفه هو نقل الدين كله إلى الأجيال

المتلاحقة بكل دقَّة وأمانة، ومن ثم يتضح فيه عنصرالابتعاد عن المداهنة والتنازلات؛ نعم! إنه فكر ثابت وعلم عميق وتيار عملي، حيث قام أساسه على كلٍّ من المجاهدة والجهاد في سبيل الله وتزكية النفس وتهذيب الأخلاق، والإصلاح والتربية، والسلطة والإمارة والإمامة والخلافة.

وعلى كل فهو يجمع بين الدين والدنيا والسياسة وتزكية النفس وبين الجدة والقدم.

وقد صدق الشيخ شمس تبريز خان الندوي عند ماقال:

"إن الاعتقاد الجازم باكتمال الدين وشموله لكل جانب من جوانب الحياة الإنسانية، واتباع السنة النبوية، والثقة بصلاحية الدين لكل زمان ومكان، والتمسك بمذهب أهل السنة والجماعة وخصائصه والسعي الحثيث لتقريب الصفوف والطوائف الإسلامية مع فقدان الثقل السياسي، والاعتصام بتعاليم الكتاب والسنة وبذل أقصى الجهود والوسع في تطبيق الشرع الإسلامي فكريا وثقافيا وحضاريا واجتماعيا وعائليا وأخلاقيا، واستغلال كل فرصة ومناسبة في سبيل نشرالإسلام وتبليغه إلى غير المسلمين وإعداد المناخ الملائم لغلبة دين الإسلام وإعلاء كلمة الله؛ من أهم مبادئ وفروع الفكر القاسمي"[1].

السياق التاريخي لمنطلقات الفكر القاسمي:

ما إن تمكن الإنجليز من بسط سيطرتهم على البلاد الهندية حتى شهدت الهند تقدما ملموساً في نشاطات المؤسسات التبشيرية، التي جمعت إلى نشر النصرانية انتقاداً صارخاً على الثقافة الإسلامية، وزرعت كثيراً من الشكوك في

(١) أسير أدروي، الإمام القاسم النانوتوي حياته وآثاره ومآثره، ص ١٢٥.

قلوب الهنود، وجرى الإنجليز على المبدأ السياسي الخبيث: "فرِّق تسُد"، ونصب رجالًا مأجورين كأمثال الباندت ديانند سرسوتي ورجال المجتمع الآري ليشنوا غارة شعواء على الإسلام ويأتوا باعتراضات وانتقادات ضد الإسلام، وألَّف الباندت ديانند كتابًا باسم "ستيارته بركاش" وهو كتاب حافل بالاعتراضات السخيفة والأقاويل الصبيانية التي تنم عن حقده السافر على الإسلام؛ حتى إنه قام بشرح جديد للديانة الهندوسية، فيه عواطف جارحة وأفكار متطرفة، ومعانٍ عدائية للأمم الأخرى.

وفي هذا السياق لم يكن للإمام بد من اختيار المنهج القويم المؤيد بالدلائل القوية، الذي من شأنه إقناعُ المكابر وطَمْأنةُ المؤمن.

كان الإمام يستغل المسلَّماتِ العقلية والمبادئ الفلسفية ويؤسس عليها براهينه الدامغة، وكان عالمًا بمثالب الديانات الأخرى وما فيها من مواضع الزلل والخلل، فكان يذكرها ويقارنها بالمسلمات العقلية والبدهية، ويثبت بُعْدَ الديانات الأخرى عن العلم والعقل، وعجزها عن إسعاد الإنسانية ومواكبة التطور العقلي.

ومن دلائل شمول هذا المنهج أن الإمام شعر بأن سيادة الفكر الغربي وتطور العلم الحديث (Science) عملَا على النفور من التعاليم الإسلامية، وغرسِ بذور الإلحاد والزندقة، فعاد الإنسان المعاصر ومنه "المسلم المعاصر" قد ضعُف لديه الوازع الديني، وتزعزع في قلبه أساس الإيمانيات والإلهيات، فالتفت الإمام النانوتوي رحمه الله إلى هذا الجانب، وشرح المعتقدات الإسلامية الأساسية في ضوء البراهين العقلية والمنطقية المقنعة.

وفي سياق الرد على الأفكار الهدامة يجب أن نعلم أن منهج الإمام في الرد على النصرانية والهندوسية يختلف تماما عن منهجه في الرد على الشيعة وأهل البدع والطوائف الإسلامية المنحرفة.

فقد شرح المسائل الخلافية شرحا مشبعا، وأوضح الفكر الإسلامي المتوارث بكل تفانٍ واتقان؛ لكنه لم يجعله ذريعة للنيل من شأن الجماعات الإسلامية والحط من كرامتها، ولا يمكن لأحد أن يصفها بأنها أقوال مناظرٍ معاندٍ؛ بل إنها مباحث علمية وتحقيقية، قدَّمها إمامٌ مخلصٌ يسعى للتقريب بين الصفوف الإسلامية ووحدة الأمة الإسلامية.

وقد اعترف كبار العلماء من معاصري الإمام وغيرهم بقيمة منهج الإمام وتأثيره، وأذكر هنا ما قاله الشيخ عبد الرحمن - وكان باحثا جليلا ومعاصراً للإمام-: "إن الإمام قد أفحم الأسقف "تارا جند" في المباحثة الدينية، وفي المهرجان العالمي لمعرفة الرب، المنعقد في شاه جهان فور عام ١٢٩٣هـ والذي شارك فيه علماء الديانات كلها أثبت الإمام بدلائل لاتُرَدُّ صحةَ المعتقدات الإسلامية وبطلان الشرك وعقيدة التثليث؛ مما بهر الجميع وسكَّتهم وأفحمهم. وفي المهرجان الآخر عام ١٢٩٤هـ قام الإمام ليثبت تفاهة معتقدات الهندوسية والنصرانية وتحريف الإنجيل وضرورة عقيدة التوحيد، وأسهب في الكلام حتى اضطرب الباندت ديانند سرسوتي، ولم يُحِرْجواباً، أما أساقفة النصاري فقد ولَّوا أدبارهم تاركين كتبهم وملفاتهم، وفي هذا المهرجان كتب الإمام رسالته الشهيرة "حجة الإسلام"[1].

(١) سيد نفيس الحسيني، الإمام محمد قاسم النانوتوي كما يراه معاصروه،(لاهور: سيد أحمد شهيد اكيدمي، ط١، ١٤٢٤ه/ ٢٠٠٣م)، ص٥٥.

المبحث الأول: المنهج الدعوي الحكيم:

إن من أهم ما يميز منهج الإمام هو جانبه الدعوي وعالمية الأسلوب الخطابي، الناشئ عن تدبرٍ عميقٍ للكتاب والسنة.

فإن القرآن الكريم يطلق دعوته عامة، ويخاطب الناس كافة، ولا يخص طائفةً دون طائفةٍ إلا لحاجة خاصة؛ وذلك أن القرآن الكريم جاء منهاجًا كاملًا للحياة البشرية ودستورًا شاملًا للهداية والسعادة، فهو يناشد الضمير الإنساني ويدعوه إلى الصراط المستقيم. وهذا المنهج الدعوي الشامل اختاره الإمام شاه ولي الله الدهلوي –رحمة الله عليه– في عهد الإمبراطورية المغولية، ثم خلفه الإمام محمد قاسم النانوتوي وطوَّره تطويراً لائقا، فكتب وخطب وناقش وناظر بأسلوب دعوي لتنتشر الدعوة الإسلامية في جميع الطوائف الإنسانية، ولا يحول دون انتشارها حائل ديني أو تعصب عرقي أو تمايز وطني أو تفاضل جنسي، فإن المسلمين جميعهم يدركون الحقائق الإسلامية ومدى إسعادها للعالم والإنسانية، فالإسلام تراث مشترك وبضاعة الإنسانية كلها.

يقول الإمام في مقدمة كتابه "تقرير دلبذير": "وبعد هذا يقول هذا العاصي، قليل العلم لكل من المسلمين والهندوس والنصارى واليهود والمجوس بعاطفة النصح والإصلاح جامعاً أفكاره المنتشرة وراجيا أن يستمع الجميع إلى كلماتي بعيدين عن تعصبهم الديني وهواهم النفسي، فإن أحبوها قبلوا وإلا فأصلحوا وبينوا"[1].

(١) النانوتوي، محمد قاسم، تقرير دل بذير (الهند: مطبع مجتبائي، دلهي، ١٩١٥م) ص٤.

وبنظرة عابرة على مباحث هذا الكتاب يتجلى مافيه من معان عامة وأفكار عالمية شاملة، بما فيها:

١-إثبات التوحيد

٢-إبطال التثليث

٣-تصور وحدة الإله في كتب الهندوسية

٤-إثبات أن الإله لايزول، وهو قديم أبدي وأزلي.

٥-ماهية العقل ومراتبه

٦-الحاجة إلى النبوة.

٧-صفات الله سبحانه لاهي عينه ولاهي غيره.

٨-ماهية الزمن.

وقدَّم مباحث علمية قيمة في هذه المواضيع بأسلوب دعوي مقنع قائم على المسلمات العقلية؛ مما لايمكن لأحد -إذا قرأها بعين الإنصاف- أن ينكرها أو يراها بعيدة عن العقل والعلم.

وهذا المنهج يسري في جميع مؤلفاته، فأسلوب الإمام هو أسلوب موضوعي(Objective)، فهو إذا تحدث عن موضوع من الموضوعات الإسلامية اقتصر بحثه على إطار الموضوع متسماً بالبراهين المقنعة والحجج المسلمة، بحياد تام وموضوعية منصفة.

المبحث الثاني: إنصافه مع المخالفين:

وهذا ديدنه مع من خالفه من الأطياف الإسلامية من البريلوية وغير المقلدين والشيعة فهو لايخاطبهم بلهجة المناظر المتعصب؛ وإنما بأسلوب دعوي

حكيم، وكمصلح مخلص يود بقاء الوحدة الإسلامية والوئام الكامل بين الجماعات الإسلامية، ويكره التفريق والتشتيت، ولا يتذرع بالاختلاف في الفكر إلى النيل من كرامة المخالفين.

ومن نماذج تعامله مع المخالفين ما قاله فى القائلين بالفاتحة خلف الإمام:

"انظرونا كيف لا ننازع القائلين بقراءة الفاتحة خلف الإمام مع ما عندنا من توجيهات علمية قيمة ومع ما نسمع عنهم من أنواع السباب والشتائم؛ بل لا نمارس التعصب قطعاً، ظناً منا أنه من المحتمل خطأُ قول الإمام أبي حنيفة رحمه الله مع عظمة شأنه وصوابُ قول الإمام الشافعي رحمه الله، ولم نتمكن من فهم مغزاه.

"أن قلوبنا تتفطر حزنًا وأسفا عندما نسمع الأقوال البذيئة في شأن الإمام أبي حنيفة عليه الرحمة، وقد يخطر بالبال أن نعارض الكلام بمثله ونجزي السوء بالسوء، إلا أن قول الله تعالى: وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما" وأمثاله من الآيات والروايات تمنعنا من ذلك"[1].

وألف الإمام في الرد على الشيعة كتابين قيمين ماعدا بعض الرسائل القيمة، أولهما هدية الشيعة وثانيهما الأجوبة الأربعون، جرى فيها على نهجه القويم المتسم بالحيادية مع سعة النظر ورحابة الأفق والأسلوب الدعوي الحكيم، فأوضح المسائل بالآيات والروايات، وتجنَّب كلا من التعريض والتهكم والسخرية.

---

(١) النانوتوي، محمد قاسم، الدليل المحكم على قراءة الفاتحة للمؤتم، (الهند: مطبع قاسمي ديوبند، د.ت، د. ط)، ص١٧.

يقول أديب الأردية البارز والباحث الضليع العلامة سيد مناظر أحسن الكيلاني:

"إن من أعظم مؤلفات الإمام الكبير وأضخمها هو هدية الشيعة، الذي أراد فيه تفنيد شبهات الشيعة بإخلاص بالغ وعاطفة صادقة وأسلوب ناعم"[1]

أما بالنسبة للمبتدعين فقد كان أسلوب تعامله معهم قائما كذلك على التوازن والاعتدال، بعيدا كل البعد عن الغلو والجفاء. فلا يعتبر كل شيء جديد بدعةً شرعية، ولا يبادر إلى تكفير المبتدعين.

يقول الإمام بدوره في هذا الباب:

"إن التغير في العقائد هو رأس البدعات، والتغير في الأصول والكليات هي البدعة الكبري، أما الإفراط والتفريط في الفروع والأعمال فنَصِفُه بالبدعة الصغرى، وعلى كل فموقفي من البدع كبدع الشيعة والخوارج والمعتزلة، والتغير في القواعد الكلية أنها بدعة كبرى، نحو إيجاد المآتم ومجالس العزاء وغيرها، والإفراط والتفريط في الفروع بدعة صغرى، فالبدع تَكبُرُ وتصغر بقدر ما فيها من تفريط وانحراف، وقد وقعت الفرق الباطلة في البدع الكبرى نحو الشيعة والخوارج. أما البدع الصغرى فقد تورط فيها بعض الأطياف المنتسبة إلى أهل السنة والجماعة[2].

المبحث الثالث: المنهج العقلي الكلامي:

إن منهج الإمام النانوتوي يمتاز بالجمع بين المعقول والمنقول، وهو في كل مسألة يدرك أغوار معاني الكتاب والسنة، ويثق بتحقيقات العلماء السابقين،

(١) الكيلاني، مناظر أحسن، سوانح قاسمي، ج٢، ص٦٤.

(٢) المصدر السابق، ج٢، ص٤٦.

ويتمتع بكفاءة نادرة وملكة عجيبة في العلوم العقلية وأصولها ومبادئها، وطرق استغلالها في سبيل شرح العقائد الإسلامية وتفنيد الأفكار الزائغة.

وكان عصر الإمام وماحدث فيه جَرَّاءَ سيطرة الفكر الغربي من تطورات عقلية يقتضي المنهج الجامع بين العقل والنقل ليحدث ثورة وانقلابا فكريا.

ونظرا لهذه الضرورة الملحة كان علماء الإسلام استغلوا في الماضي العلوم العقلية والمبادئ الفلسفية. حيث كان العلماء - قبل سيطرة الغرب على العالم الإسلامي- يقدمون أفكارهم وآراءهم في أسلوب المنطق والفلسفة اليونانية، فهو الذي ظَلَّ أسلوبا علميا منذ عدة قرون، ومن ثم تمَّ إدخالُ كتب المنطق والفلسفة في المقررات الدراسية الإسلامية.

ومن أجل ذلك كانت كتب المنطق والفلسفة جزءًا من مقررات جامعة ديوبند، كما قُدِّم اقتراح بإدخال اللغة الانجليزية والهندية؛ ولكنه منهج معدَّل، فإن العلوم العقلية في العهد المغولي قد أخذت قسطا أوفر من المقررات الدراسية، حيث كان العكوف على كتب كل من الشيخ مير سيد شريف والمحقق الطوسي ومير زاهد والتفتازاني يُعدُّ معراج الفضل العلمي وغاية الكمال الثقافي، مما أثر في تأسيس عدد من مدارس العلوم العقلية في الهند كلها؛ من أبرزها مدارس خير آباد وجونفور وعظيم آباد وإله آباد وفرنكي محل ورامفور، وقد كوَّنت هذه المدارس مزاجاً عقلياً في علماء ذلك العصر، فعاد الأسلوب العقلي أسلوبا علميا سائدا في ذلك العصر، وكانت المدارس في عصر الإمام النانوتوي وعلماء الديانات كلها مصبوغة بالصبغة العقلية، ثم المباحث الفكرية أشد احتياجا إلى هذا الأسلوب، كما أن اعتراضات الهندوس والنصارى

على الإسلام جاءت في الزي العقلي، فاحتاج الإمام إلى تبني الأسلوب العقلي الذي يطمئن المؤمن ويقنع الجاحد ويناشد العقل والقلب معاً، وكان الإمام أعرف الناس بمتطلبات عصره ومدى قوة تأثير العلوم العقلية؛ حيث قال الإمام للشيخ بركات أحمد التونكي: "رزقك الله علما عقليا نافعا، ثم ذكر سببه قائلا: فإن الثبات على الدين في هذا العصر عسير بدون إتقان العلوم العقلية"(١).

المبحث الرابع: مراعاة العلوم العصرية:

إن من أهم مايميز منهج الإمام النانوتوي هو تقديمه للفكر الإسلامي بأسلوب عصري سائغ، أكثر قبولا للضمير العصري وأشدَّ ارتباطا بعقلية القرن التاسع عشر، ومن هنا كان الإمام يود أن يتلقى خريجوا المدارس الإسلامية العلومَ العصرية أيضا في الجامعات العصرية، فقد قال الإمام في خطبة له بمناسبة الاحتفال العام في جامعة ديوبند المنعقد في ١٩/ ذي القعده عام ١٢٩٠هـ الموافق ٩/ يناير عام ١٤٧٤ م: "وبعد هذا (أي بعد التخرج في هذه الجامعة) إن تلقى خريجو هذه المدرسة العلوم الحديثة بالالتحاق بالمدارس الحكومية، فهذا يزيدهم كمالا في العلم"، وقال أيضا: "إن تحصيل العلوم الكثيرة في زمن واحد يكون سبباً للنقص في جميع العلوم"(٢).

هذا يعني أنه يريد المرحلية في تحصيل العلوم الدينية والعلوم العصرية. وصدق الشيخ شمس تبريز خان إذا قال: "وبالنظر إلى الأفكار التعليمة للإمام النانوتوي –رحمه الله– يتبين بكل جلاء أنه لو عُمِّر الإمامُ طويلًا لحصل على

(١) المصدر السابق، ج٢، ص٢٨٣.
(٢) المصدر السابق، ج٢، ص٢٨٣.

قسط كبير من العلوم الحديثة، واستفاد منها في شرح الفكر الإسلامي وهذَّبها تهذيبا إسلاميا، فقد أسس مدرسة كلامية جديدة.

وكان الإمام يشعر بتأثير السيطرة الغربية والعلم الحديث والعقلانية في الإنسان المعاصر، فحاول جهده في ترسيخ المبادئ الإسلامية المتمثلة في التوحيد والرسالة واليوم الآخر، مستغلا البراهين العقلية التي لا ترد، وكان هذا ضرورة الفكر الإسلامي آنذاك"[1].

فكانت العصرية هي أبرز مواصفات منهج الإمام، فقد شهد كبار مفكري المسلمين في القرون المتأخرة بأن منهج الإمام هو حصن حصين، يمكن أن يتحصن فيه المسلمون ويأمنون على أفكارهم وتشخصاتهم، كما أنه سلاح أمضى بيد الجيل المعاصر وما لحقه من الأجيال، فهذا المنهج النقلي العقلي الكلامي يفيد أجيال كل عصر ومصر، ويستطيع القضاء على ما يوجَّه إلى الإسلام من اعتراضات وشبهات.

(١) محمد شمس تبريز خان، الامام النانوتوي، حيات أفكار و خدمات،(الهند: تنظيم ابناء قديم دار العلوم ديوبند، ط١، ٢٠٠٥م)، ص ١٣٢؛ سيد محبوب رضوي، تاريخ دار العلوم ديوبند، ج١، ص٢١.

الفصل الثاني:

منهجه في الرد على الشيعة:

المبحث الأول: خطر الشيعة في الهند من البداية إلى عصر الإمبراطورية المغولية:

إن المؤرخين الشيعة ذهبوا إلى أن التشيع قد دخل الهند في القرن الأول الهجري، ونشأ وترعرع في جنوب الهند بشكل باهر، حتى قام له عدد من الدول في ولايات الدكن والكجرات؛ بما فيها الحكومة البهمنية، والحكومة العادل شاهية، والحكومة قطب شاهية، والحكومة النظام شاهية، قامت كل هذه الحكومات في ولايات جنوب الهند، وكانت الحكومة الإيرانية تشرف على هذه الحكومات وتؤيدها وتشجعها على نشر المذهب الشيعي، حتى كان الأمراء والسلاطين ووزراؤهم يتبرؤون من الصحابة رضي الله عنهم بشكل علني، وفي المساجد والمحافل، وكان سفراء إيران من المجتهدين والباحثين الشيعة قد وجدوا الفرصة سانحة، فعاثوا في الأرض فسادا، ودعوا الناس إلى ممارسة أعمال منكرة، لاتمت إلى الإسلام بصلة.

وقد بلغت السطوة الشيعية في الهند منتهاها عند ما قامت في الهند الحكومة المغولية، فكان مؤسسها محمد بابر الملقب بظهير الدين كان يميل إلى التشيع كما أثبته المؤرخون، وخلفه ابنه همايون، الذي هزمه الملك شيرشاه السوري فلجأ إلى الملك الإيراني طهماسب الصفوي، الذي رحب به ترحيبا يليق بملك عظيم، وأنزله خير منزل، فبقي هناك خمسة عشر عاما، يستشير الملك الإيراني ووزرائه بشأن استعادة ملكه الفقيد، وكان الهمايون يشارك في جميع

أعمال ورسوم شيعية؛ حتى اصطبغ كليا بالصبغة الشيعية، وقال همايون في شعره الفارسي:

هستيم زجـان بنـده أولاد عــلي * هستيم هميشه شـاد بـا يـاد عـلي
جون سر ولايت ز علي ظاهر شد * كرديم هميشه ورد خود "ناد علي"

ترجمة: إني مدين في وجودي لأولاد علي وإن وجودي دائم السعادة بذكر علي، ولما ظهر سر الولاية الإلهية من علي وجدتُني أتلو دائما وأردد: ناد علي.

ولما سمع الملك الإ يراني هذه الأبيات سُر به كثيرا، وقال: إن اعتنق همايون الدين الشيعي ووعد بأنه سوف يأمر الخطباء بذكر الأئمة الاثني عشر في خطب الجمع والأعياد، وأنه سيعيد إلي ملك قندهار فإني سأبذل أقصى جهدي في استرداد ملكه الهندي المفقود، ولما سمع ذلك همايون قال: إن حب أولاد علي يجري في عروقي منذ الصبا حتى اليوم، وبهذا السبب يبغضني بعض الأمراء وكامران مرزا"، ولما أدرك الملك الإيراني أن همايون سوف يقوم بنشر حملة التشيع في الهند، ساعده مساعدة قوية، حتى دخل همايون دلهي عاصمة الهند في ٢٠ يوليو عام ١٥٥٥م.

وقد تطور الدين الشيعي في عهده تطورا باهرا، وكان يبالغ في إكرام العلماء والأمراء المتوافدين من إيران، ويفوض إليهم مناصب مرموقة، يقول الشيخ الحكيم محمد موسى الأمرتسيري في مقدمة كتاب تذكره اكابر اهل سنت لعبد الحكيم شرف القادري البريلوي: قد بالغ الملك همايون في إكرام علماء الشيعة، مما أدى إلى أنه نشأ هنا دين مستقل في مقابل دين الإسلام، والحاصل أنه قبل وصول دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب النجدي إلى الهند لايوجد في

الهند إلا مذهبان: مذهب أهل السنة ومذهب الشيعة، وهما ليسا مذهبين؛ بل دينين"[1]

ويقول الشيخ محمد إكرام مؤرخ الهند: تشيع همايون بعد فراره إلى إيران، وقد حصلت له معونات إيرانية بشرط نشر الدين الشيعي في المملكة الهندية، وأظنه خطأ (ولا دليل على هذا الظن)؛ ولكن المعقول أن همايون ربما أفصح عن حبه لعلي وأولاده كما ينسب إليه بعض الأبيات (وقد مر آنفا)، ومن ثم لما رجع إلى الهند، ازداد نفوذ للشيعة العمال في الهند، وحصلوا على حرية أكثر في ممارسة أعمالهم ورسومهم، وكان وزير همايون بيرم خان غاليا في التشيع، وهو في الواقع كان مدبر الدولة يتصرف فيها كيف يشاء"[2].

وبعد وفاة همايون خلفه ابنه الملك أكبر في ١٣ من عمره، وكان بيرم خان الشيعي هو الذي يدبر البلاد و العباد، ثم ابنه عبد الرحيم خانخانان، ومعه مجموعة من أمراء الشيعة الأقوياء نحو علي قلي خان وبهادر خان، وفي آخر عمره قد تغير أكبر فكريا، حتى أنشأ دينا جديدا باسم الدين الإلهي، وكان الهندوس والملاحدة والشيعة هم الذين يزينون مجلس الملك أكبر، ويحظون بمناصب رشيقة في البلاد والولايات، وكان الملك أكبر يقيم التقاليد الشيعية بكل اهتمام.

وبعد وفاته جلس ابنه "سليم" على كرسي الملك، ولقب نفسه بجهانغير، ولم ينقص النفوذ الشيعي في هذا العصر؛ بل تطور هذا النفوذ تطورا عجيبا، وسببه أن الملك جهانغير تزوج مهر النساء المعروفة بـ"نورجهان" بنت

(١) عبد الحكيم شرف القادري البريلوي، تذكره اكابر اهل سنت، ص٤-٥.

(٢) شيخ محمد إكرام، رود كوثر، ص٣٣-٣٤.

مرزا غياث الدين الإيراني وزير الملك الإيراني طهماسب الصفوي، وكانت امرأة داهية، سيطرت على عقل الملك المغولي، وعادت تتصرف في شؤون الدولة كملكة ذات استقلالية مطلقة، ترفع من تشاء، وتخفض من تشاء، وأغدقت أنهارا من العطايا على أقربائها من علماء وأمراء الشيعة الإيرانيين، حتى اتفق المؤرخون على أنه لم تحظ أسرة بعد أسرة البرامكة بهذا النفوذ السريع بمثل ما حظيت به أسرة نورجهان في الحكومة المغولية[1] وقد تجاوز علماء الشيعة كل حد في سب الصحابة رضي الله عنهم التبرؤ منهم، حتى إنهم كانوا يفعلون فعلاتهم هذه على المنابر والمحافل.

وبعد وفاة جهانغير خلفه ابنه شاهجهان في ٤ من فبراير عام ١٦٢٨م، وقد مهد له طريق الحكم الوزير آصف جاه أخو الملكة نورجهان، وكان هذا الملك أيضا يحتفل بأعياد الشيعة، ويهتم برسومها اهتماما بالغا، وتزوج شاه جهان ارجمند بانو المعروفة بـ ممتاز محل، وهي بنت آصف جاه، وكانت أيضا معروفة بالمكر والدهاء، وكانت ساعية بكل تفانٍ وإخلاص في نشر الدين الشيعي، وكان شاه جهان لايتخذ قرارا هاما بدون مشورتها، حتى يسجل اسمها مع اسم الملك على العملة، وبعد وفاتها عام ١٦٣١م قام الملك شاهجهان ببناء قصر فخم، سمي بـ تاج محل، وهو اليوم أحد العجائب السبع في العالم.

---

(١) انظر: البروفيسور قاضي محمد طاهر علي الهاشمي، شيعيت تاريخ وأفكار، (باكستان: اكاديمية قاضي جن بير الهاشمي، هزاره، ط١، ٢٠٠١م) ص٤٨٠.

وكان للملك شاهجهان أربعة أبناء وبنتان: دارا وشكوه وشجاع وأورنك زيب ومراد، وكان دارا أقرب الأولاد إلى أبيه، وكان يتبنى الدين الإلهي ودين القرامطة، وأما الشجاع فكان شديد الالتزام بالشيعة الإمامية.

وبعد وفاة الملك شاهجهان حدثت حروب أهلية عظيمة فيما بين أبناء الملك مما انجلى عن انتصار أورنك زيب، فجلس على عرش الحكومة، وبذل أقصى جهده في القضاء على آثار الدين الإلهي الذين أنشأه جد أبيه الملك أكبر، كما أنه اهتم كثيرا بنشر السنة وإماتة البدعة، وكانت ولاية دكن في ذلك الوقت قاعدة الدين الشيعي، وكان الشيعة في هذه الولاية يتآمرون ويخططون ضد الملك، فأغار عليها الملك، وقضى على كل رهط يسعى في الفساد، مما كوَّن مناخا مناسبا للإسلام وأهله.

ولاشك أنه بجهود الملك المخلص أورنك زيب قد وُضع حد على انتشار الدين الشيعي، ولكن الشيعة قد تقلدوا مناصب عالية في هذا العصر أيضا، فيوجد عدد كبير من أمراء الملك وقواد جيوشه، الذين كانوا على دين شيعي.

ومن كبار الشيعة في هذا العصر:

- العالم الشيعي محمد سعيد أشرف المازندراني، الذي كان سبط العالم الشيعي الشهير ملا باقر المجلسي، ومعلما للأميرة زيب النساء بنت الملك اورنك زيب.
- والكاتب الكبير والشاعر المفلق نعمت خان، الذي كان غاليا في تشيعه، ويميل إلى مذهبه كثير من كتاب وشعراء بلاد الملك أورنك زيب، وكان نعمت خان أكبر مؤرخ في ذلك العصر، ومن لطائف نعمت خان أنه سأله

الملك أورنك زيب في يوم من الأيام: أنت شيعي أم سني؟ أجاب في شعره الفارسي: بارها كفتم بتو اي شهريارجار يارم، جار يارم، جار يار

ترجمة: كثيرا ما قلت لكم: يا جلالة الملك! أحب أربعة أصحاب، أربعة أصحاب، أربعة أصحاب، وهذا جواب قائم على التقية، حيث ذكر أربعة أصحاب ثلاث مرات، أي أحب اثني عشر صاحبا، وهم الأئمة الاثنا عشر[1].

أما الملوك الذين جلسوا على كرسي الحكومة المغولية بعد الملك أورنك زيب فكان معظمهم اعتنقوا الدين الشيعي جهارا، وبعضهم أشرفوا على النشاطات الشيعية، وأيدوها.

الملك بهادر شاه أول: فقد خلف الملك أورنك زيب ابنُه بهادر شاه اول، وقد اختار الدين الشيعي، وقام بدور كبير في نشره، حتى أمر بإجراء كلمة "علي ولي الله ووصي رسول الله" في خطب الجمعة[2].

الملك جهاندار شاه: وبعد وفاة بهادر شاه أول في عام ١٧١٢م في مدينة لاهور خلفه ابنه جهاندار شاه، وفي هذا العهد حصل الأخوان السيدان: حسين علي نائب حاكم ولاية بتنة، وحسن علي عبد الله حاكم إله أباد على نفوذ واسع، وكانا على الدين الشيعي، وهما الذان دبرا قتل الملك جهاندار شاه، ثم أجلسا فرخ سير ابن عظيم الشان ابن الملك بهادر شاه، وبما أن مُلْكَ فرخ سير قام بفضل الأخوين الشيعيين فقد أغدق عليهما النعم والعطايا، وكانا أقوى رجل في الدولة حتى من الملك، وكان الملك رهن إشارتهما، مما فتح طريقا واسعا أمام الدين الشيعي، فأوغل في البلاد.

(١) البروفيسور قاضي محمد طاهر علي الهاشمي، شيعيت تاريخ وأفكار، ص٤٨١-٤٨٥.

(٢) شيخ محمد إكرام، رود كوثر، ص٦١٧.

وقد قام السادات بنهب ثروات البلاد، وتطوير الدين الشيعي بكل إخلاص، فجعلوا دلهي عاصمة البلاد مركزا عظيما للدين الشيعي، وكانوا يقيمون في دلهي مجالس المأتم والعزاء بكل اهتمام، وقد أقاموا مزارات عديدة مصطنعة باسم القدم الشريفة والنعل الشريف، وكانوا أذاعوا أن هذا النقش هو أثر قدم الرسول صلى الله عليه وسلم، كما أقاموا مزارات لشاه مردان و بنجه شريف، وأطاروا أن هذا هو نقش قدم علي رضي الله عنه.

ثم السادات لاسيما الأخوان منهم قاموا بعزل الملك جهاندار شاه بعد تعذيب وحشي له، وبعده أقاموا الملك نيكو سير على عرش الملك، ثم عزلوه سريعا، ثم نصبوا الأمير رفيع الدرجات بن رفيع القدر ملكا للبلاد، ولم يتجاوز العقد الثاني من عمره، فكان ألعوبة بيد الأخوين السيدين، ومات بعد ثلاثة أشهر في ٤/ يونيو/ ١٧١٩م، ثم نصب السادات رفيع الدولة ملكا للبلاد، ومات بعد ثلاثة أشهر أيضا في ١٧/ سبتمبر/ ١٧١٩م، ثم قُتِل الأخوان السيدان بمؤامرة من فئة شيعية تحكم ولاية أوده وولاية دكن، وبهذا يسهل إدراك مدى النفوذ الشيعي في الحكومة المغولية.

وبقتل الأخوين السيدين تنفس الملك محمد شاه الصعداء، ولكن هذا لايعني أن النفوذ الشيعي في البلاط قد انتهى؛ فإنه كان هناك كثير من الأمراء والعلماء الشيعة، وكان هذا الملك شديد الترف، مولعا بإشباع الغرائز، حتى يعرف بـ محمد شاه رنكيلا، أي المترف الداعر.

وكان الملك محمد شاه فاسد التدبير، ضعيف الرأي، قد طالت حكومته إلى نحو ثلاثين سنة، ولكنه أفسد العباد والبلاد، وفي عهده غزا الهندَ الملك

الإيراني نادر شاه الذي قضى على الحكومة الصفوية في إيران، وكان العنصر الشيعي هو الذي يحرض الملك الإيراني نادرشاه على غزو الهند، وسببه أن الملك محمد شاه لم يعترف بحكومته، وكان يجير الفارين من دولة إيران، ولا يعيدهم إلى الملك نادر شاه، ووقع قتال عظيم بين الجيشين، مما أدى إلى هزيمة الملك محمدشاه، وقام الملك نادر شاه وجيشه بنهب مدينة دلهي ثلاثة أيام، ثم رجع إلى إيران، وفي أيامه تزعزع قصر الحكومة المغولية في الهند، ويمكن أن نعتبر الملك محمد شاه آخر ملك مغول مستقل في الهند، فإن من جلس بعده على كرسي الحكم كانوا كلهم ألعوبة بيد الأمراء والوزراء.

وبعد وفاة الملك محمد شاه جلس ابنه أحمد شاه على كرسي الحكم، ولكن لم يكن له من الملك إلا اسمه، فكان الوزراء والأمراء هم الذين يديرون دفة الأمور، وفي أيامه استقلت الولايات عن الحكومة المركزية، منها ولاية الدكن وولاية أوده، وولاية بنغال، وما إليها، وقامت فيها حكومات شيعية كما سيأتي بيانها، ثم خلعوا الملك أحمد شاه، وأجلسوا الأمير عزيز الدين بن معز الدين بن جهاندار شاه على كرسي الحكم، ولقبوه بعالمكير الثاني، ولكن وزيره عماد الملك هو الذي يتصرف في البلاد، وبعد نحو ست سنين قُتل الملك بيد عماد الملك، وفي عهده أغار الإنجليز على مرشد أباد وكان الأمير سراج الدولة حاكم تلك الولاية، وقاتل الإنجليز أشد قتال، لكنه قتل.

وبعده قام عدد من الملوك المغول: نحو محيي السنة بن كام بخش بن عالمكيرثم الملك شاه عالم بن الملك عزيز الدين، ثم الملك أكبر شاه بن الملك شاه عالم، ثم بهادر شاه بن أكبر شاه وهو آخر الملوك المغول في الهند.

كل هؤلاء الملوك كانوا ملوكا بالاسم فقط، وأما الحل والعقد فقد استقل به الأمراء والوزراء، وكان معظمهم من غلاة الشيعة، وأكتفي هنا بذكر مثال واحد، وهو أن نجف خان كان وزيرا للملك شاه عالم بن الملك عزيز الدين بل أمير الأمراء، ويدير الأمر بدون مشورة مع الملك، وقد كرس جهوده في نشر الدين الشيعي، وقام بتعذيب كل من خالفه في الرأي، أو أظهر عصيانه عن أمره، وبقي على منصبه لمدة أحد عشر عاما، وكان العالم الجليل الشيخ مرزا مظهر جان جانان قد تصدى للوزير نجف خان، ورد عليه بأسلوب قوي، فلم يكن من ذلك الأمير الشيعي الوحشي إلا أنه أمر بأحد رجاله فقتل هذا الشيخَ الجليل، وقام هذا الرجل الشيعي الخبيث بمصادرة أملاك الشاه عبد العزيز بن الشاه ولي الله الدهلوي، ونفيه من العاصمة[1].

الولايات المستقلة في الهند وتأثرها بالدين الشيعي:

قد ذكرت أن الحكومة المغولية قد كثر ضعفها واختل أمرها في عهد الملك محمد شاه والعهود المتأخرة، وكان السلاطين المغول ملوكا بالاسم فقط؛ وكان وزراؤهم هم الذين يستبدون بالأمر، ويستقلون بالرأي، ويتصرفون في العباد والبلاد كما يشاؤون، وفي هذه الظروف خرج عدد من الولايات على الحكومة المركزية، واستقلَّت بأمرها، وكان معظمها شيعية الاتجاه والفكرة، وقامت بدور كبير في تطوير الدين الشيعي، ومن المناسب أن أذكر هنا هذه الولايات وإسهاماتها في نشر التقاليد الشيعية، ليمكن الاطلاع الصحيح على مدى تأثير التشيع في عقلية المسلم الهندي في القرون الماضية، وهي كما يلي:

---

١ انظر: البروفيسور قاضي محمد طاهر علي الهاشمي، شيعيت تاريخ وأفكار، ص٤٨٧.

حكومة مرشد آباد:

وقد استقلت إمارة مرشد أباد أولًا بقيادة علي وردي خان، وقد أعلن استقلاله في عهد الملك محمد شاه رنكيلا، وكانت من عواصمها مرشد آباد وعظيم آباد وجهانكير نكر(دهاكه)، وكان النواب[1] وردي علي خان رجلا شيعيا، فأخذ على نفسه ترويج الفكر الشيعي، وكان يوفد علماء الشيعة من إيران، ويقيم لهم مجالس دروسهم بعد صلاة العصر، ويتلى حديثان من كتاب أصول الكافي، ويشرحهما الشيخ محمد علي فاضل[2].

وبعد وفاة علي وردي خان جلس النواب سراج الدولة على كرسي الحكم، وكان رجلا سياسيا بعيد النظر، وقد اضطربت علاقته بالإنجليز، فقتله ابن الأمير الغادر مير جعفر، وهو رجل مضروب به المثل في الغدر والخيانة في هذه الديار، وقد مَالَأَ الإنجليز على الاستيلاء على هذه الإمارة، وقد تتابع على هذه الإمارة عدد من الأمراء بعد الأمير سراج الدولة؛ ولكنهم كانوا لعبة بيد الإنجليز، وقد أصدروا قوانين كلها تخدم مصالح الإنجليز.

وقد وجد الشيعة مرتعًا خصبا في هذه الولاية، فبيضوا وفرَّخوا.

سلطنة ميسور:

قامت سلطنة ميسور بقيادة الأمير الجريء السلطان تيبو، وكان رجلا سُنِّيًّا صحيح العقيدة والفكر، ومن ثم اتَّحد ضده أمراء الولايات الشيعية والإنجليز كلهم، وأرادوا القضاء عليه، وكانت بين سلطان ميسور وسلطان أفغانستان علاقة طيبة، وكان الإنجليز وأعداء السلطان يعرفون أن سلطنة

(١) وكلمة النَّوَاب تعني الأمير باللغة الأردية.

(٢) قاضي محمد طاهر علي الهاشمي، شيعيت تاريخ وافكار، ص٤٩٥.

أفغانستان تساند سلطنة ميسور، وتدافع عنها بأقصى مايمكن، فأرسلوا مجموعة من الشيعة إلى إيران لتخترع أكاذيب وافتراءات على حكومة أفغانستان لتبدأ إيران الإغارة على أفغانستان، وتكسر شوكتها، وفعلا قد شنت إيران الغزو على أفغانستان التي كانت مستعدة للدفاع عن سلطنة ميسور، وكان جيشها مرابطا على الثغر الهندي، فلم تستطع أفغانستان الدفاع عن سلطنة ميسور، وهنا تنفس الإنجليز والشيعة الصُّعَدَاءَ.

ومما يدعو للعجب أن الإنجليز وحكام إيران والأمير محمد علي والاجاه حاكم أركات، ونظام الملك نظام خان حاكم ولاية الدكن وعلماء الشيعة قد اتفقوا على سلطنة ميسور، وقد اشترى الإنجليز بعض رفقاء السلطان تيبو، ومن أشهرهم مير صادق، وغلام علي الأعرج، ومير معين الدين، ومير قمر الدين، وبدر الزمان ومن إليهم، وأقاموا هؤلاء وحدة عجيبة ضد سلطنة ميسور، وقد شهد التاريخ بأنه لولا غدر الغادرين من أمراء الدكن وإيران وعلماء الشيعة ضد سلطنة ميسور لَاضْطُرَّ الإنجليز إلى الفرار من الهند في عام ١٧٩٩م(١)، إلا أن الغدر قد عمل عمله، وخر السلطان تيبو شهيدا في المعركة، وقد ضرب مثالا رائعا للهمة والعزيمة والدفاع عن الدين والدولة. رحمه الله رحمة واسعة.

حكومة أوده (١٧٢٢-١٨٥٨م)(٢)

ظلت هذه المنطقة مركزا عظيما للشيعة، وذات سكانية شيعية كثيفة، وقد قامت هنا حكومة شيعية امتدت لمدة قرن ونصف، وسأذكر في السطور القادمة

(١) المصدر السابق، ص٤٩٧.

(٢) و "أوده" اسم قديم يطلق على مدينة لكناؤ وآكره وما جاورهما من المناطق، وتقع اليوم في ولاية أترابراديش، وهي منطقة خصبة وذات أهمية كبيرة من الناحية الدينية والتاريخية.

الامتداد والتطور الشيعي في ظلال هذه الحكومة. وقد سبق أن الحكومة المغولية لما ضعفت استقلت بعض الولايات، ومنها ولاية أودهـ، وقد أقامها محمد أمين الشيعي الذي لقبه الملك المغولي محمد شاه بسعادت خان وبرهان الملك، ونصبه أميرا لولاية أودهـ؛ ولكنه استغل ضعف الحكومة المغولية، وأعلن استقلال ولاية أودهـ في عام ١٧٢٤م، واستمرت إلى أن تم ضمها إلى الحكومة الإنجليزية في عام١٨٥٦م.

كان رجلا غاليا في تشيعه، وأشرف على جميع النشاطات الشيعية، وظلم أهل السنة والجماعة كثيرا، وهو الذي دعا الملك الإيراني نادر شاه إلى غزو الهند، فغزا الهند وغصبها وأجرى أنهارا من الدماء والأشلاء في دلهي.

وقد تتابع على عرش أودهـ أمراء كلهم متعصبون للتشيع ضد السنة، وهم:

- **نواب صفدر جنك خان**: وهو ابن بنت سعادت علي خان وصهره، تقلد منصب إمارة أودهـ في عام ١٧٣٩م، وقد بلغ من شدته في التشيع إلى أنه كان يعد أمير علماء الشيعة وقائدهم، وهو الذي كان يحرض المراهته وجات من الطائفة الهندوسية المتعصبة على الخروج على الحكومات السنية في روهيله وغيرها. و قد صادر كثيرا من أملاك علماء أهل السنة والجماعة(١).
- نواب شجاع الدولة ابن نواب صفدر جنك: وقد فاق أباه في التعصب الديني، ومد يد الصداقة إلى الإنجليز، وكان صديقه نجف خان الشيعي

(١) انظر: قاضي محمد طاهر علي الهاشمي، شيعيت تاريخ وأفكار، ص٥٠١-٥٠٤.

الذي وضع مخططا خطيرا لكسر شوكة أهل السنة والجماعة، فأرسل جيشه إلى بريلي وروهيل كهند وفرخ آباد، وكانت هناك حكومات سنية، فأحرقوا المدن والقرى، والمساجد والمدارس، وللاطلاع على خسائر فادحة ألحقها بالحكومات والقرى السنية في ولاية روهيل كهند يكفي أن أنقل ما كتبه مؤرخ أودهـ نجم الغني خان في كتابه تاريخ أودهـ: "وبعد فتح شجاع الدولة قد بلغ الوضع الاجتماعي في الولاية إلى أن العاهرات الفاحشات كن يسكنَّ في المساجد نهارا، وفي المسجد المسمى بمسجد محمد رحيم آخون كانت المومسات العاهرات يمارسن الفواحش والمنكرات بشكل علني، ولم يكن مَنْ يتعرض لهن ويمنعهن عن ذلك، بل ويسألهن: لماذا تَفْعَلْنَ هذا في المساجد المقدسة للمسلمين؟(١) وقد نفى هذا الأمير المتعصبُ العالمَ الجليل الشيخ العلامة عبد العلي الملقب بـ بحر العلوم(المتوفى عام١٨٢٠م) والعلامة محمد حسن الفرنكي محلي(المتوفى عام١٧٧٤م) من البلاد لاختلاف في العقائد.

- نواب آصف الدولة بن النواب شجاع الدولة: وهو الذي أقام الجُمَعَ والجماعات المفردة للشيعة، وأسس عددا من الحسينيات في لكناؤ وغيرها من المدن، ووهب لعلماء الشيعة كثيرا من الإقطاعات والبساتين والقصور، ومكَّنهم في الأرض، مما أدى إلى كثير من الأُسَر السنية إلى التحول إلى الدين الشيعي.

---

(١) انظر: المصدر السابق، ص٥٠٦، نقلا عن كتاب تاريخ أودهـ، ج١، ص٢٧١.

- نواب سعادت علي خان: وكان من أقارب الأمير آصف الدولة، وتقلد منصب الحكم في عام ١٧٩٨م، وقد حاول محاولة جادة في نشر الدين الشيعي، حيث أقام عددا من الحسينيات وزينها بشكل باهر، وكان يقيم مجالس العزاء والمأتم بعناية فائقة، وأحاط الحسينية العباسية بمدينة لكناؤ باهتمام عجيب، حيث طلاها بماء الذهب، وأقام فيها منبرا فِضِّيًّا، ووفَّر فيها وسائل كثيرة للترفيه والتزيين، وتوفي عام ١٨١٤م بعد حكومة طالت لمدة ستة عشر عاما.
- نواب غازي الدين حيدر شاه ابن سعادت علي خان: وتولى الحكم عام ١٨١٤م، ولقب نفسه بملك أودهـ، وكان شديد الالتزام بالدين الشيعي، أما زوجته فكانت تفوقه في نشر الدين الشيعي، حتى أسست قبورا مصطنعة للأئمة الاثني عشر، وكانت تحتفل بزواج الأئمة، فتجعل البنات الجميلات زوجاتهم، وتعطيهن كثيرا من المهور والبضائع، وتحرِّم عليهن الزواج مع أحد، وهي التي قامت بإجراء رسم جهتي(Chatti) وهو أن تغتسل المرأة ورضيعها بعد ولادتها للطفل بستة أيام، ثم تتزين بملابس فاخرة، وتقيم حفلة السرور والبهجة، وهذا في الأصل من التقاليد الهندوسية، وبعد اختيار زوجة الأمير قد انتشر انتشارا كثيرا حتى في المجتمعات السنية.
- نواب نصير الدين حيدر شاه ابن الأمير غازي الدين حيدر شاه: وقد جلس على كرسي الحكم عام ١٨٢٧م، وكان كسلفه شيعيا متعصبا، وقد أقام كثيرا من المدارس والمساجد والحسينيات لنشر الدين الشيعي، حتى

أنه يقيم حفلات نادرة في مناسبات ميلاد الأئمة الاثني عشر، وكان يتكلف بنفسه عملية الولادة، ويجلس في بيت الزوجة، ويخرج أصواتا للمخاض وألم الولادة، وبعد عملية الولادة بستة أيام يجلس بعد تزين تام، ويعطي كل زوجة من زوجات الإمام تمثالا ذهبيا للطفل، وكان منقطعا إلى مثل هذه التقاليد، وأما الإنجليز فهم كانوا يتصرفون في أمور العباد والبلاد، وقد توفي عام١٨٣٧م.

- نواب محمد شاه: وبعد وفاة نصير الدين حيدر شاه جلس عمه نواب محمد شاه علي بن النواب سعادت علي خان على كرسي الإمارة، وكان أيضا شيعي الفكر إلى حد التعصب، وقد فوض شؤون الدولة إلى علامة الشيعة ومجتهديهم العلامة دلدار علي، ومن هنا يعد هذا النواب من مجددي الدين الشيعي في القرن الثاني عشر الهجري. وقد أقام أيضا الحسينيات الكثيرة في لكناؤ. وقد توفي عام ١٨٤٢م.
- النواب أمجد علي شاه ابن النواب محمد علي شاه: وخلف أباه في الحكم عام ١٨٤٢م، وقد طور الدين الشيعي تطويرا لائقا، وكان يهتم بإقامة حفلات التبري والمتعة والتعازي والمراثي والفحشاء والدعارة. وكان يعدُّ أهل السنة والجماعة من الهندوس المشركين، صادر أملاك كثير من أهل السنة، ومنحها لعلماء الشيعة، وقد أعلن في إقليمه أنه لايجور لسني أن يمس بيده شيئا من أسماء الله تعالى وأسماء البنجتن والأئمة الأطهار، فتم نصب الشيعة في كل مكتب حكومي.

- النواب واجد علي ابن النواب أمجد علي: وقد عُيِّن حاكما لولاية أودهـ عام ١٨٤٧م بعد أبيه، وهو معروف بالتهتر و الدعارة إلى حد الجنون، ولكنه مع ذلك كله كان غاليا في شيعيته، وقد ألف كتابا باسم المجموعة الواجدية، وفيه باب باسم "أسماء الملعونين والمعلونات إلى يوم القيامة"، وذكر فيه كثيرا من أسماء الصحابة الأبرار رضي الله عنهم، بمن فيهم سيدنا أبوبكر الصديق وسيدنا عمر الفاروق وسيدنا عثمان وسيدتنا عائشة الصديقة أم المؤمنين وغيرهم رضي الله عن الجميع. وألغى الإنجليز هذه الحكومة في عام ١٨٥٦م وضموها إلى حكومتهم(١).

تأثير الدين الشيعي في المجتمع السني في الهند:

ظلت الشيعة علماؤها وعامَّتها تحقد على أهل السنة والجماعة علمائها وعامتها، وقد بلغ بهم الحقد والعداء للسنة إلى أنهم لم يبالوا بقتل كبار العلماء، فقد سجل المؤرخون في الهند أن الأمير نجف علي خان أمر بقتل العالم الجليل ميرزا مظهر جان جانان، وقطع كتف الشاه ولي الله الدهلوي وإخراج العالمين العظيمين: الشاه عبد العزيز الدهلوي والشاه رفيع الدين الدهلوي من مدينة دلهي(٢).

قد استمرت الحكومة الشيعية في لكناؤ لمدة قرن وربع قرن أو يزيد، وكانت تحب التشدد وتكره التسامح، فكرست كل جهودها في نشر التقاليد الشيعية من مجالس العزاء وقبة العزاء(٣) مما جعل التقاليد الشيعية تنتشر في طول

(١) انظر: قاضي محمد طاهر علي الهاشمي، شيعيت تاريخ وافكار.
(٢) سيد محمد ميان الدهلوي، تاريخ علماء الهند المجيد ، ج٢، ص١٠٥.
(٣) قبة العزاء يطلق عليها بالأردية "تعزيه"، وهي قبة تصنع من الخشب، ثم يتم تزيينها بأصباغ وألوان زاهية، وقد نسجت حولها أساطير وعقائد خرافية لا صلة لها بالإسلام.

الهند وعرضها، ويشارك في أدائها كل من السنة والشيعة بتفانٍ، بل يتنافسون فيها، ولم يكن السنيون أقل فسادا من الشيعة، بل كانوا يظنون أن مجالس العزاء من أهم أجزاء الدين الإسلامي، وكانوا يحاربون من يعترض على صنيعهم هذا، والدليل على ذلك ما حدث مع الإمام محمد قاسم النانوتوي رحمه الله، فإنه لما نهض لإصلاح المسلمين بدأ بالقضاء على تقاليد الشيعة في ديوبند، كان في ديوبند رجل صالح اسمه محمد ياسين المعروف بديوان جي(١)، وكان مسجده يعرف بمسجد المحل(٢)، وكانت قبة العزاء توضع فيه، وتُرْفع منه في عاشوراء كل سنة، وكان القائمون على هذا كلهم سُنّة، وكان هذا المسجد نقطة بداية الإصلاح، فقد أعلن الديوان جي أن قبة العزاء لاتُرفع من هذا المسجد هذا العام، قد نزل هذا الإعلان على الناس نزول الصاعقة، وسرى غضب واستياء شديد في السنة فضلا عن الشيعة، فقالوا وهم يستشيطون غضبا: لنرفعن قبة العزاء ولو على حساب رؤوسنا، فقال الديوان جي: والله لن نقبل هذا ولو أفضى إلى موتي، فاتحد المسلمون ضد الديوان جي، ولم يكن معه إلا مجموعة من الرجال ممن سعدوا بصحبة الإمام محمد قاسم النانوتوي رحمه الله، وقد علم الإمام النانوتوي أن القضاء على مثل هذه التقاليد يتطلب التضحية، ولا بد منها، فبرز أمام الناس، وأعلن على الملأ: إن من يريد رفع قبة العزاء فعليه أن

---

(١) وكان الديوان جي من أقارب الإمام النانوتوي وخدامه، فهو ابن خاله، وزوَّجَ الإمام نجله الأكبر الشيخ محمد حافظ أحمد بنتَ الديوان جي، وهي والدة الشيخ حكيم الإسلام محمد طيب القاسمي، انظر: البروفيسور أنوار الحسن الشيركوتي، أنوار قاسمي، ص٣٤٧.

(٢) وهو المسجد الذي يعرف الآن بالمسجد المدني، بالنسبة إلى شيخ الإسلام حسين أحمد المدني لأنه كان يصلي فيه.

يمر بنعش الديوان جي ونعش محمد قاسم، فإنهم لن يتمكنوا من رفعها ونحن أحياء، وكانت هذه الكلمة صدمة عنيفة للمعجبين بقبة العزاء، ففترت همتهم وخَارَ عزْمهم، وغابت هذه البدعة عن ديوبند، فإن المسلمين المجاورين لما علموا أن الإمام ومن معه من علماء الإسلام يخالفون هذا التقليد، رَمَوْا ببقايا قبة العزاء من مساجدهم(١).

يقول الشيخ أسير أدروي تعليقا على القصة المذكورة آنفا: "وبها يتم إدراك الجراثيم الشيعية الفتاكة المتغلغلة في المجتمعات السنية في الهند، فإن قبة العزاء ليست إلا عملية صريحة التعارض مع الإيمان بالله، ومن هنا قامر العلماء بكيانهم للقضاء عليها، وذلك لما يحفها من عقائد فاسدة من الحداد والتعازي والرثاء وسب الصحابة والغلو المحرم في علي -رضي الله عنه- وأولاده،

و كل ذلك نفذ إلى المجتمع الإسلامي، وسرى فيه مسرى الرائحة في الوردة، لايمكن فكاكها منها، فلولا هذه العقائد الفاسدة لما تعرض هؤلاء العلماء لمثل هذه التضحيات للرد عليها، ولكن نرى أن قرية ديوبند كلها تشتعل غضبا وتقوم ولاتقعد للدفاع عنها، وما هو إلا دليل على مدى تأثر المجتمع الإسلامي بالعقائد والتقاليد الشيعية(٢).

ويضيف الشيخ أسير أدروي قائلا: ولا ينتهي الكلام على هذا الحد؛ بل الجراثيم الشيعية متغلغلة في المجتمع الإسلامي، ولا فرق في هذا بين مثقف

---

(١) قاضي محمد طاهر علي الهاشمي، شيعيت تاريخ وأفكار، ص٥٢٣؛ والكيلاني، مناظر أحسن، سوانح قاسمي، ج٢، ص٧٧.

(٢) أسير أدروي، دار العلوم ديوبند: حركة عظيمة لإحياء الإسلام، ص٣٢٣.

وأمي، فكل مسلم اليوم يقول: الإمام حسين عليه السلام، ولابأس به من حيث اللغة، ولكنه يرمز إلى عقيدة الإمامة الشيعية، فالإمامة أهم العقائد الشيعية، بل هي ترجمان دينهم. وكذلك يقولون: مولى علي، وعلي مشكل كشا(كاشف الكربات)، كما أن المصارعين يهتفون: يا علي مدد (انصرني)، وإذا انتشر الوباء يعلقون هذا البيت الشيعي على أبوابهم:

"لي خمسة أطفي بها حر الوباء الحاطمة المصطفى والمرتضى وابناهما والفاطمة"

وكذلك تطبع كل عام كثير من التقويمات التي تنسب إلى هذه الشخصيات، وتدعى بنجتن باك (خمسة نفوس مطهرة).

"ومن ثم لايعقد السنيون حفلات الزواج والسرور في شهر محرم، ظنا منهم أن هذا الشهر و٢٠ يوما من شهر صفر هما شهرا حزن وعزاء.

"وحسبك هذا شاهدا على ما تركت الشيعية آثارا غائرة في المجتمع السني، وكيف كان الشيعة يحترقون عداء للسنة، فهم قتلوا علماء أهل السنة، ونفوا بعضهم من دورهم وديارهم، أما العامة فصادوها في الماء العكر، أطمعوها بالمال والمنصب، وأفسدوا عليها دينها وأخلاقها، ولم يعرفوا أن هذا هو الدين الشيعي الذي ليس له صلة بالإسلام[1].

ذكرت كل ذلك بنوع من التفصيل ليُعرف أن الحكومة الشيعية مازالت ساعية في نشر الدين الشيعي، وتستعمل في ذلك كل وسيلة من وسائل الإقناع والتأثير من الترغيب في المال والمنصب والترهيب من البطش والقتل.

(١) المرجع نفسه، ص٣٠٨-٣١٢؛ وقاضي محمد طاهر علي الهاشمي، شيعيت تاريخ وأفكار، ص٥٢٧.

يقول العلامة مناظر أحسن الكيلاني وهو يتحدث عن خدمات الإمام في إصلاح الشيعة والرد على هفواتها:

"قد ذكرت في مقدمة الكتاب أن الشيعة نجحوا في بسط نفوذهم في الدوائر الحكومية في أواخر الإمبراطورية المغولية، وذلك لأسباب كثيرة، فكان منهم الأمراء والحكام في معظم الولايات الهندية؛ بل كانت الحكومة المركزية هي الأخرى خاضعة لهم؛ فإن السلاطين الذين تناوبوا على عرش الحكومة الهندية بعد السلطان العادل أورنك زيب العالمكير –رحمه الله– كان بعضهم اختاروا الشيعة جهلاً؛ حتي إن الملك "بهادر شاه أول" وريث الملك أورنك زيب يساند الشيعة ويدعوا علماء أهل السنة والجماعة لمناظرة علماء الشيعة، وهوالذي أقدم على إصدار مرسوم ملكي، يقضي بحذف أسماء الخلفاء الثلاثة من خطب الجمعة والعيدين، أما السلاطين الذين لم يكونوا في ظاهرهم شيعة ويُعَدُّوْن سنة كانوا في سلوكهم وتعاملهم وحياتهم الدينية شيعة، وفي تلك الأيام كان الزواج بين السنة والشيعة شائعاً، فكانت الظروف السياسية في الخارج والحياة الزوجية في داخل البيت تعمل عملها في تشييع السنة وتكثيف الصبغة الشيعية، وإذا استفحل الخطر توجَّه إليه الإمام الشاه ولي الله الدهلوي رحمه الله، فجاء في تذكرة الرشيد قول الإمام الكنكوهي: "إن أساتذتنا منذ زمن الشاه عبدالعزيز – رحمه الله –يفتون بتكفير الشيعة، وقال بعضهم: إن حكم الشيعة هو حكم أهل الكتاب، وقضى بعضهم بحكم الردة"[1].

---

(١) الكيلاني، مناظر أحسن، سوانح قاسمي، ج٢، ص٦٢، ينظر: عاشق إلهي الميرتهي، تذكرة الرشيد،(الهند: كتب خانه اشاعت العلوم سهارنفور،) ص٢٨٢.

وإن الإمام النانوتوي بدوره يخبر في إحدى رسائله بأن العالم البارز القاضي ثناء الله الفاني بتي صاحب كتاب "مالا بدمنه" ألف كتاباً باسم "سيف مسلول" خالف فيه الزواج الشائع بين السنة والشيعة[1].

والشيخ القاضي كان خليفة للشيخ مرزا مظهر جان جان، والظاهر أن سبب التأليف هو الرد على الزواج الشائع بين السنة والشيعة[2]

وأفاد العلامة الكيلاني أن العلماء شددوا في أمر الشيعة فكفّروهم وحرّموا الزواج معهم؛ ولكن إذا زال الالتباس وعلم الناس مدى ما بين السنة والشيعة أخذوا الرخصة في الحكم على الشيعة، فإن العقائد الشيعية التي امتلأت بها كتب الشيعة كالقول بتحريف القرآن الكريم واعتبار معظم الصحابة كفرة مارقين من الدين -نعوذ بالله منه- هي عقائد علماء الشيعة. أما العامة منهم فيعتقدون بأن القرآن كتاب الله بلا تحريف، ومن هنا فرَّق الشيخ الكنكوهي بين علماء الشيعة وعامتهم، فقال بتكفير العلماء وتفسيق العامة.

"وذهب الإمام النانوتوي -رحمه الله- إلى أن بعض عقائدهم إسلامية كالنطق بالشهادتين واعتقاد فرضية الصلاة والزكاة وصوم رمضان والحج، وبعض عقائدهم وأعمالهم كفر وفسق، ومنها مخالفة الكتاب والسنة وأنواع البدع والمنكرات فهم بين الإيمان والكفر، ودينهم دين برزخي"[3].

---

(١) النانوتوي، محمد قاسم، فيوض قاسمية،(مخطوط)، ص٢.

(٢) الكيلاني، مناظر أحسن، سوانح قاسمي ج٢، ص٦٢.

(٣) المصدر السابق، ج٢، ص٦٤.

"والحاصل أن الشيعة لعقائدهم الفاسدة كانوا أجدربأن يتوجه إليهم الإمام بعد إصلاح المجتمعات السنية، فاجتهد الإمام في إصلاح الشيعة حق الاجتهاد وكتب في الرد على الشيعة كتاباً، هوأضخم كتبه، وجّه فيه النصائح والتوجيهات إلى الشيعة بقلم متألم ناصح بغيةَ إصلاحهم وتصحيح أخطائهم، وقد ذهب الإمام في هذا الكتاب مذهباً طريفاً غير معهود منه، فهو ينسب كل قول إلى المصادر الشيعية ويستفيد من المصادر الموثوق بها لدى أهل السنة والجماعة. ممايدل على سعة نظره في التاريخ الإسلامي؛ وهذا الكتاب هو "هدية الشيعة"[1].

المبحث الثاني: منهج الإمام في إصلاح الشيعة

إن الجهود العلمية القيمة التي بذلها الإمام النانوتوي في إصلاح الشيعة وبيان مضارِّهم وحماية الأمة المسلمة من أخطار الشيعة، يمكن تقسيمها إلى قسمين:

الجهود العلمية.

الجهود العملية.

والمراد بالجهود العلمية هي كتابات الإمام التي بين فيها حقيقة العقائد الشيعية ومدى صدامها للتعاليم الإسلامية الأصيلة.

أما الجهود العملية فهي المساعي الإصلاحية المشكورة المتمثلة في تجشم مشاقِّ السفر والمخاطرة بالنفس والمشاركة في مجالس الحوار الهادئ والمباحثة العلمية الرامية إلى دفع سوء التفاهم والأغاليط الشائعة بين الجماعتين؛ وقد أثمرت جهود الإمام بشكل واضح. إن من أكبر مأثرة الإمام في جانب الرد على الدين الشيعي هو كتابه "هدية الشيعة" الذي جاء أضخم كتب الإمام وأكثرها

(١) المصدر السابق، ج٢، ص٦٤.

تفصيلًا وأشملها موضوعيةً، يقول الشيخ سيد مناظر أحسن الكيلاني في هذا الكتاب: "ولامانع من أن أقول: "إن من أضخم كتب الإمام الكبير هو هذا الكتاب الذي ألفه الإمام بمدادٍ من قلبه ولوعة كبده، ساعيًا وراء دفع الشبهات والافتراءات وإقناع الشيعة بأسلوب علمي هادئ، وطُبِعَ الكتابُ في أكثر من ثلاث مائة وخمسين صفحة بحجم وسيط، وبكتابة كثيفة، جرى الإمام في كتابه على غير عادته في التأليف؛ حيث يذكر كثيرًا من النصوص والإحالات مما يدل على سعة نظره في مصادر الشيعة والتاريخ الإسلامي"[1].

يذكر الإمام في بداية هذا الكتاب الغرض من تاليفه، فيقول: بعد الحمد والصلاة يقول العاجز الخامل محمد قاسم لقارئ هذه السطور: إنه قدوردت إلي في أواخر رجب عام ٣٨٢١هـ رسالةٌ من مخدوم العلماء مطاع الفضلاء، مجمع الكمالات، منبع الحسنات، زينة الطريقة، حامي الشريعة، مفخرة الأحباب والأصحاب، مرشد الأنام، مرجع الخاص والعام، معلم القانون والطاعة والانقياد، الداعية إلى الله مخدومنا الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي، ضمَّنها بعض الخرافات الشيعية التي بعثها المولوي عمار علي الشيعي إلى المولوى نادر علي المتوطن بمنطقة ألور، وأمرني بالرد على هذه الخرافات، فأرسلها إلي.

وكنت في هذه الأيام مشتغلًا بكتابة إثبات التوحيد والرسالة بدلائل عقلية قوية بطلب من بعض الإخوان المتصلين بي نسبا وعلما، فتعذَّر علي الرد على هذه الخرافات لأسباب، منها تراكم الأعمال والأشغال والكسل الطبيعي، إلا أنها كان من الضروري الامتثال لأمر مولانا الممدوح، فأجَّلت ماكنت

(١) الكيلاني، مناظر أحسن، سوانح قاسمي، ج٢، ص٦٤.

أشتغل به إلى قادم الأيام، وبدأت كتابة الجواب عن الرسالة المذكورة، وما تمكنت من إكمالها في جلسة واحدة، وذلك لقلة الفرصة وتشتت البال، فأكملتها في جلسات متفرقة في ١٥ من شهر صفر ١٢٨٤هـ، وسميته "هدية الشيعة" يبدو أنه كان من المناسب أن أسميه "هدية أهل السنة" لتأييد أبحاثه عقائد أهل السنة والجماعة؛ ولكنه أنفع للشيعة من أهل السنة، أما إفادته لأهل السنة فهو يبعث أقوياء الإيمان منهم على الطمآنينة، وضعفاء الإيمان منهم على اليقين، أما الشيعة فهذا الكتاب يهديهم إلى الإيمان وينجيهم من الغواية"[1].

والحق أن هذا الكتاب مفيد جدا، فهو يتحدث عن أباطيل الشيعة وخزعبلاتهم بأسلوب لين، ملؤه الشفقة والنصح، وأتى بنوادر علمية يجهلها حتى كثيرٌ من العلماء. فإن عامة الناس كانوا يعرفون أن الاختلاف الأساسي بين السنة والشيعة هو مسألة "تفضيل علي" مع أن الحقيقة أن الاختلاف أوسع من ذلك، فهو يتضمن ذات البارئ وصفاته، ورسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وعصمته وختم نبوته، والقرآن الكريم وحملته الأولين، وما إليها، واتجاهاتُ الشيعة في الأمور المذكورة تختلف تماما عن اتجاهات السنة.

ونظراً لهذا بدأ الإمام بحثه في هذا الكتاب بالقرآن الكريم، وأثبت بروايات أئمتهم ونصوص كتبهم الموثوق بها أن الشيعة لايؤمنون بهذا القرآن الكريم، ولا يمكن لهم الإيمان به مع عقائدهم الخبيثة، ولذالك لايوجد فيهم من يحفظ القرآن كاملا. فهو يقول في موضع متحدثا عن عقيدتهم في تحريف

(١) النانوتوي، محمد قاسم، هدية الشيعة، (الهند: مطبع أحمدي، د.ت. د.ط) ص٢-٣.

القرآن: "والكليني (أي كتابه أصول الكافي) أصح الكتب عندكم، فروايته الآتية كذب وافتراء محض:

"عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله أن القرآن الذي جاء به" جبرئيل إلى محمد صلى الله عليه وعلى آله سبعة عشر ألف آيات، وانظروا أن القرآن الذي بين أيدينا يحتوي على نحوستة آلاف، فهذه الرواية تفيد أن نحو ثلثي القرآن قد سُرق وضاع، فكان الأفضل أن لم يكن الله سبحانه وعد بحفظه".

ويقول بعد بضعة سطور: "إن القرآن الكريم- مع الاهتمام البالغ بحفظه وكتابته ووعد الله سبحانه بحفظه – قدتجاوز عند الشيعة في التحريف والتصحيف والضياع حدَّ التوراة والإنجيل، مع أن الله تعالى لم يعد بحفظ التوراة والإنجيل، ولم يكل حفظه إلى أنبياء بني إسرائيل، أما علماء بني إسرائيل الذين كانوا يشترون بآيات الله ثمنا قليلاً ويحرفون الكلم عن مواضعه فكانوا يقرأونه ويعرفون معانيه، ولم يكونوا حفظةً ثقاتاً، فكأن الشيعة يريدون بقولهم: القرآن أفضل من التوراة والإنجيل أنه أزيد منهما في الضياع والتحريف"[1].

واستدل الإمام على صحبة أبي بكر رضي الله عنهما بالآية القرآنية: **إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** (سورة التوبة:٤٠)

(١) المصدر السابق، ص١٨

واحتج بها قائلاً: "فتدبروا هذه الآية بإنصاف دون إجحاف، وأخبِروا مفاد هذه الآية؛ أهي تؤيد أهل السنة والجماعة أم الشيعة؟ وأذكر هنا مقولة العالم الشيعي ميرزا كاظم علي اللكنوي، وكان من كبار علماء الشيعة، وكان قدوة الزمان المجتهد الشيعي مولوي دلدار علي من محبيه وأتباعه، فقال الشيخ كاظم علي: فليقل في أبي بكر من شاء ما شاء؛ ولكن سابَّ الخليفة الأول كافر عندي أيضاً، فاعترض عليه أحد جلساءه، وقال: ماذا تقول يا شيخ! فرأيك خلاف المذهب، فأجاب: لا أقول شيئاً، لا أقول إلا ما قال الله، فلا فرق بين الصاحب وصحابي، فالله سبحانه يشهد بأن أبابكر رضي الله عنه صحابي، فالمراد بكلمة "صاحبه" في القرآن هو أبوبكر الصديق رضي الله عنه باتفاق السنة والشيعة، وهذا الاعتراف هو ديدن أهل الإنصاف وكان مرزا كاظم من علماء الشيعة الشهير في الزهد والتقوى لدى الشيعة، وهل من شيعي في الهند لايعرفه ولا يقول بفضله؟ فتدبروا هذه الآية من أي جانب لاتُفِدْ إلا ما يقوله أهل السنة"[1].

وفي موضع آخر ذكر قول الإمام باقر في فضل أبي بكر رضي الله عنه وهو إمام معصوم لدى الشيعة، فقال:

"إن الإمام الباقر كان يمدح سيدنا أبابكر رضي الله عنه مع أنه كان ممنوعاً عن التقية حسب مذهب الشيعة، فحرم الله عليه التقية؛ ولكن علي بن عيسي الأربيلي صاحب كشف الغمة عن معرفة الأئمة يكتب:

سئل الإمام أبوبكر الصديق فمن لم يقل له الصديق فلا صدق الله قوله في الدنيا والآخرة"[2]

---

(١) المصدر السابق، ص٢٧.

(٢) علي بن عيسي الأربيلي، كشف الغمة في معرفة الأئمة، (بيروت: المجمع العالمي لأهل البيت، د.ط، ٢٠١٢)، ج٢، ١٤٧.

وفي ضوء هذه الرواية أريد أن أقول: إن الشيعة كلهم متفقون على أن علي بن عيسي عالم فذ في العلم والرواية، وثقة في نقل الروايات، ولا يمكن تضعيف روايته حسب زعمهم".

كما أنه ذكر فضائل أمير المؤمنين سيد عمر الفاروق رضي الله عنه بروايات الشيعة، ورد عليهم رداً صارخا، فقال في موضع:

"إن أمير المؤمنين سيدنا عليا رضي الله عنه زوَّج بنته سيدنا عمرالفاروق طوعًا لاكرهًا، وباختيارٍ قلبيٍ منه.

وسئل الإمام محمد بن علي الباقر عن تزويجها، فقال: لو لا أنه رآه أهلا لما كان يزوجها إياه، وكانت أشرف نساء العالمين، جدها رسول الله صلي الله عليه وسلم وأخوها الحسن والحسين عليهما السلام، وأمها فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم وجدتها خديجة بنت خويلد رضي الله عنها.

انظروا هذه الرواية، وأسفًا على دعواهم لحب علي رضي الله عنه، كيف يتهمون عليا بنقص في الدين، يزعمون أنهم يحبون عليًّا، ويعادون الصحابة، ورأيي أنكم تعادون الصحابة أولًا، ومن ثم تضطرون إلى إظهار حب أهل البيت"[1].

وفي موضع آخر ذكر الإمام النانوتوي رحمة الله موقف الشيعة من أهل البيت وتعاملها معهم فقال: "وكل الناس يعرفون موقف الشيعة من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أمهات المؤمنين، مع أنهن أهل البيت أصلا، وهذا القول إن لم يكن يعرفه بعض الناس فالمولوي عمار علي[2] يعرفه جيداً. ثم كلمة

(١) النانوتوي، الإمام محمد قاسم، هدية الشيعة، ص١٦٩.
(٢) وهو صاحب الشبهات المثارة، التي أرسلها إلى الإمام النانوتوي بواسطة.

"أهل البيت" وردت في القرآن الكريم في شأن أزواج النبي ﷺ. أجل! يدخل فيها كل من سيدنا علي وفاطمة الزهراء والحسن والحسين رضي الله عنهم.

أما أولاد الرسول صلى الله عليه وسلم فالشيعة عدو لدود لأكثر أولاد فاطمة رضي الله عنها، ويسبونهم، فهم يسبون زيد بن زين العابدين، وهو عالم ورع تقي قُتِلَ شهيدا بيد المروانيين، وتعتبر الشيعة ابنه يحيي بن زيد مرتداً عن دينه، وتعتبر إبراهيم بن الإمام موسى كاظم كذاباً، مع أنه كان من كبار أولياء الله، وإياه بايع بايزيد البسطامي، كما أن الشيعة تعتبر الحسن بن الحسن المثنى وابنه عبد الله وابنه محمد المعروف بالنفس الزكية ضعفاء الدين، كما تكفر إبراهيم بن عبدالله وزكريا ومحمد باقر و محمد بن عبد الله بن الحسين بن الحسن ومحمد بن القاسم بن الحسن ويحيي بن عمر وهو حفيد زيد الشهيد، وتكفرو تفسق جماعات حسنية وحسينية تعترف بإمامة زيد الشهيد وفضله".

ويقول الإمام بعد أسطر: والسبب ظاهر؛ حيث إن منكر واحد من الأئمة الاثني عشر كمنكر نبوة نبي صادق، وهذا المنكر كما يعرفه الجميع كافر مخلد في النار"[1].

والحاصل أن كتاب "هدية الشيعة "للإمام من حقه أن يُعْتبر "دائرة المعارف" في موضوع الشيعة؛ لاحتوائه على معظم المسائل الخلافية بين السنة والشيعة، كالبداء والإمامة وتحريف القرآن والطعن في أصحاب النبي رضي الله عنهم وشرائعهم المصطنعة كالتقية والمتعة، فيقوم الإمام بذكر عقائدهم من الكتب الموثوق بها عندهم، ثم يفندها بشكل حاسم، كما أنه يتناول اعتراضات

(١) الإمام النانوتوي، هدية الشيعة، ص١٧٤ – ١٧٥.

الشيعة الشهيرة على السنة كقصة قرطاس عمر، وقصة الفدك ثم يرد عليها ببراهين قاطعة وبأسلوب مفحم، يثبت حقية مذهب أهل السنة والجماعة.

ومن ثم ختم الكتاب بقوله:

"ومن اللازم الآن أن نكتفي هنا "فإن المولوي لم يذكر شبهة ولا وهما إلا رددت عليها رداً مقنعا شافياً للنفس"(١)

وللإمام كتاب آخر يحتوي علي ٤٠٠ صفحة، اسمه "الأجوبة الأربعون" وهو كتاب قيم يجيب عن أربعين سؤالا، قدَّمها الشيعة، وكتب الإمام هذه الأجوبة بطلب من الشيخ المولانا محمد يعقوب النانوتوي تلميذه وابن أستاذه الكبير.

فبدأ الكتاب بقوله:

"بعد الحمد والصلاة يقول الفقير إلى الله محمد قاسم لسيده الشيخ محمد يعقوب: وردتني رسالة منكم ليوم الأربعاء في ١٦ أو ١٧ من هذا الشهر، وإذا رأيت أسئلتها ظننتها اعتراضات شيطانية، فاضطربت بالنظر فيها، وقلت في نفسي: ماذا تُجْدي هذه السطور؟ فلا أرجو اهتداء الشيعة، كما قلت: هلَّا أجاب الشيخ مولانا محمد يعقوب عن هذه التُرَّهات؟ ولكن اضطررت إلى كتابة الإجابات عن هذه الأسئلة وفاءً بحقكم علي وحق مرشدنا الحاج"(٢).

(١) المصدر السابق، ص٣٦٠.

(٢) الإمام النانوتوي، الأجوبة الأربعون، (الهند: المطبع الهاشمي، ميروت، د.ط، د.ت) ج١، ص٤٧.

وهذا الكتاب منقسم إلى قسمين، فالجزء الأول احتوى على ٢٨ سؤالا مع الأجوبة عنها، ولكل سؤال جوابان، كتب الإمام أول الجوابين، بينما قام الشيخ المولانا عبدالله الانبهتوي بكتابة ثاني الجوابين، والجزء الثاني من الكتاب احتوى على ١٢ سؤالا مع الإجابات، كتبها الإمام بقلمه.

بدأ الكتاب بقوله: "سيدي! الأسئلة المرسلة وإن كانت تبدو في ظاهرها أنها أربعون؛ ولكن أهل الفهم والبصر يعرفون جيدا أنها سؤال واحد، فكلها يرمي إلى الحط من شأن الصحابة رضي الله عنهم وإطراء علي كرم الله وجهه؛ ولكن ماذا أفعل؟ فقد ذهب العقل والتبصر فلا يوجد من بين جمع حاشد من الناس إلا عدد قليل من العقلاء، فنظراً إلى هذا أذكر أولا جواباً واحداً مجملاً، ثم أتناول كل سؤال بجواب مفصل مقنع، واسألوني عن مرامي هذه الأسئلة، فإن السائل لايهمه الأمر النبوي، ولا إجماع الأمة المحمدية؛ بل لا يعنيه إلا هواه الأعمى، وهو يريد إثبات أن الصحابة ظلموا عليا، فصاروا مجرمين منافقين آثمين، مارقين عن الدين والنظام الإسلامي، جفاة جبناء، فاسدين في النية. (معاذالله)، ولو جازت خلافة غير علي مع وجوده لما جازت خلافة رجال، هذه صفاتهم "[1].

ثم قدم الإمام جواباً مجملا، وبين فضائل الصحابة رضي الله عنهم، في ضوء أربع آيات قرآنية تالية:

(١) وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (سورة التوبة: ١٠٠)

(١) المصدر السابق، ج ١، ص ٤٩- ٥٠.

(٢) **الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ** (سورة التوبة: ٢٠)

(٣) **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ** (سورة الحج: ٣٩)

(٤) **مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا** (سورة الفتح:٢٩)

وفي ضوء هذه النصوص القرآنية المشرقة أثبت أن الله إذا أثنى على الصحابة ومدحهم في أكثر من موضع فكيف يجوز لأحد أن يتخذ رأيا جديداً مغايراً للنصوص القرآنية؟ وإن فعل أحد ذلك فهل يبقى له إيمان وإسلام؟

حيث يقول الإمام: وأقول بعد سرد الآيات المذكورة أعلاه: هل كان الصحابة مصيبين أم مخطئين؟ وماذا تقولون في ترتيب الخلافة الراشدة: خلافة أبي بكر الصديق ثم عمر الفاروق ثم عثمان ذي النورين ثم علي المرتضي رضي الله عنهم؟ فإن وافق هذا الترتيب المزاج الشيعي فبها والا فهم يزعمون أن الصحابة ظلموا عليا، وأحدثوا في الدين الإسلامي ماليس منه، وضيقوا النطاق على علي المرتضي الذي نيطت به الهداية الشاملة.

والمارقون من الدين تمكنوا من عرش الخلافة ظلما وغصبا وصار سائر الصحابة أنصارا لهم وأعوانا.

فإن كان هذا الترتيب خطأ في مزاعم الشيعة، والخلفاء الثلاثة كانوا ظالمين وسائر الصحابة أنصاراً لهم، فهذا يدل على أن الله تعالى مدح إخوان الشيطان بألفاظ لم يمدح بها أولياءه، وبعد هذا إني أسأل الشيعة: بماذا نثق؛ أبقول الله عزوجل أم بمزاعكم الباطلة وتقياتكم المكذوبة؟[1]

وبعد الجواب المجمل عن كل من ٢٨ سؤالا أراد الإمام أن يأتي بجواب مفصل عن كل سؤال، وقد بين في بداية الكتاب أن الجواب المجمل يدركه العقلاء بسهولة، أما الجواب المفصل فهو للسُّذج من المسلمين.

ثم وجه إلى مذهب الشيعة ٤٢ سؤالا، أحاطت بمذهب الشيعة، وأثارت أسئلة معقولة قوية، حول كل من الإمامة والولاية، والإمام الغائب وتحريف القرآن المجيد والفدك ونكاح أم كلثوم وغيرها، مما سأذكر بعضه في آخر الكتاب.

(١) المصدر السابق، ج١، ص٥٣-٥٤.

الفصل الثالث:

موقف الإمام النانوتوي من المسائل الخلافية بين السنة والشيعة ومنهجه في إصلاح الشيعة وإفحامها:

ماكانت الشيعة في يوم من الأيام لتُقَدِّم للإسلام والمسلمين خيراً، فتنشر الإسلام وتجاهد في سبيله، وتضحي في سبيل الدعوة الإسلامية؛ بل كانت في كل عصر ومصر رأس الفتنه وشعلة المحنة، وتاريخُهم في هذا معروف، يعرفه القاصي والداني والصديق والعدو.

ومن سوء الحظ أن دولة إيران ظلت مجالا فسيحا لنموهم وازدهارهم عبر التاريخ الإسلامي. فالحكومات الإسلامية التي تتحمس للعقيدة فتنشر صحيحها وتمحو فاسدها كانت في قلة، بينما اشتهرت معظم الحكومات الإسلامية في عصور الخلافة والملوكية بالتسامح مع المرتدين والملحدين، لاسيما في العراق وإيران، فنمت هذه الفرقة وترعرعت؛ حتي صارت ذات شوكة وعدد وثقل ونفوذ؛ لكنهم كانوا أصحاب مكر ودهاء، ولذا ثاروا في كثير من العصور المختلفة على الحكومة العادلة وملوكها وعلمائها النابغين.

الشيعة هم الذين مهّدوا الطريق في كل زمن لأعداء الإسلام ليفعلوا فعلاتهم الشنيعة مع المسلمين السنة.

الهند دولة دخلها الإسلام عن طريق إيران المتصلة بها، فدخل بعض الجذور الشيعية في السند، وهم لنواياهم الخبيثة وعقائدهم الباطلة التي تزين لهم الكذب والفاحشة ومكرهم المعروف اقتربوا من رجال الحكومة، ودسُّوا السُّموم في صفوف الحكومة، وجالوا وصالوا في البلاد، وانخدع كثير من

المسلمين بعقائدهم الفاسدة، ودخلوا في حوزتهم.

ولما سقطت الإمبراطورية المغولية في الهند تعرَّض المسلمون لعقبات وتحديات كثيرة: ففي جانب كان الإنجليز في تدمير مستمر للبلاد، وامتصاص ثرواتها وخيراتها، وإشعال الفتنة بين سكانها، وفي جانب آخر انتشرت المؤسسات التبشيرية في البلاد تزرع الشكوك في قلوب المسلمين وتسلب وَلاءَهم للإسلام والمسلمين، وفي جانب ثالث قام دُعاة الآرية الهندوسية بالدعوة إلى الآرية بحِيَلٍ من المكر والخداع، وكانوا في بعض الأماكن يعارضون علماء الإسلام ويثيرون الشبهات في الإسلام وشرائعه.

وفي جانب رابع أنشئت طائفة القاديانية ليدعي صاحبُها المشؤوم أنه نبي مرسل، وحاولت سلخ الإسلام من المسلمين بأكثر من حيلة ووسيلة.

وفي جانب سادس وَجَدَت الشيعة أمامهم سبلا مفتوحة، فجهرَتْ بما كانت تخفي صدورهم، وفاضت ألسنتهم بكلمات البغض والكراهية لصحابة رسول الله – صلى الله عليه وسلم، وكشفت عن ستار التقية، وعادت تعلن براءتها من الصحابة والمقدسات الإسلامية جهارا وتكرارا، وتتبجح بدينها المقطوع الصلة عن دين محمد صلى الله عليه وسلم، وفي جانب سابع قامت فرقة جديدة، لتُسَوِّل لعامة المسلمين البدع والمنكرات، وتورطهم في رسوم وتقاليد غير إسلامية، وهي فرقة المولوي أحمد رضا خان البريلوي التي ظهرت لتحيي البدع وتثبت المحدثات وتزينها وتقيم الدلائل عليها.

فهذه المشاكل اجتمعت على المسلمين، وهم في أحرج وقت وأضعفه، فكان كثير من العلماء قُتِلوا وصُلبوا، وكثيرمنهم نُفُوْا إلى خارج البلاد، وكثير منهم صُلبو وعُذِّبُوا.

فانفرط عقدهم تماماً وأصبحوا في هرج ومرج، ففي هذا الوقت الرهيب نهض بعض العلماء الغيارى ليفعلوا للإسلام ما استطاعوا، فحاربوا الإنكليز في معارك نضالية شهيرة، وناظروا أبالسة الإنس من علماء النصارى ودعاة الضلال، ودحضوا أباطيلهم وألفوا الكتب ضدهم، وأقاموا المدارس لنشر الإسلام وتعاليمه الصحيحة، وعلي رأسهم الإمام حجة الإسلام محمد قاسم النانوتوي -رحمه الله رحمة واسعة-.

كان الإمام محمد قاسم النانوتوي رحمه الله مطلعًا على أحوال الدولة، وبصيرا بالاتجاهات الفكرية والعملية التي تسري عليها البلاد والعباد، وأبى الاستسلام للأعداء، وعزم على مواجهة الأوضاع إلى أبعد الحدود، فوقف في كل جبهة ضد أعداء الإسلام، قاتل الإنجليز وناظر دعاة النصرانية والآرية، وأفحم الشيعة والقاديانية، وألف عدداً من الكتب ضدهم، ووقف في المسائل الخلافية موقفاً وسطًا.

المبحث الأول: المسائل الخلافية بين السنة والشيعة كما سردها الإمام النانوتوي:

قد كثر الاختلاف بين السنة والشيعة، وتعدى إلى معظم المسائل العقائدية، الإ أن جماع الأمر في ذلك راجع إلى عدالة الصحابة-رضي الله عنهم-، فإنه لو تم الاتفاق على عدالة الصحابة- رضي الله عنهم- زال كثير من الشكوك والإختلافات في مابينها.

فإن الصحابة -رضي الله عنهم- هم الرعيل الإسلامي الأول وحملة الدين الأولون، هم الذين نقلوا إلينا الدين كله، وحفظوا لنا القرآن الكريم، ونشروا الإسلام في كل مكان، وصاروا أسوة لمن بعدهم.

ومن هنا أجمعت الأمة قاطبةً سوى الشيعة على عدالتهم ونزاهة سيرتهم وطيب سريرتهم، وإذا ثبت هذا ثبت إتقانهم وإخلاصهم في جميع الأمور الشرعية، كاتفاقهم على خلافة أبي بكر – رضي الله عنه – وعلى جمع القرآن الكريم بين دفتين في عهد الصديق وعثمان ذي النورين.

فسقط أساس قضية الإمامة وتحريف القرآن الكريم، وهما من أسس المذهب الشيعي، والحاصل أن عدالة الصحابة قاضية على المذهب الشيعي بتاتاً، ومن هنا ركز الإمام جل اهتمامه في كتابه "هدية الشيعة" على إثبات عدالة الصحابة من خلال النظر في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة التي تؤكد ذالك.

يقول الإمام النانوتوي –رحمه الله– في كتابه «الأجوبة الأربعين» وقد وُجهت إليه أربعون سؤالا من قبل الشيعة:

"سيدي! إن الأسئلة إذا عددناها بلغت أربعين؛ الإأنها في الحقيقة سؤال واحد، وهوذم الصحابة- رضي الله عنهم- وتعظيم سيدنا علي كرم الله وجه"[1].

ولذلك ساق الإمام النانوتوي-رحمه الله- صفحات كثيرة في بيان فضائل الصحابة في كل من كتابيه "هدية الشيعة" و"الأجوبة الأربعون".

المبحث الثاني: فضل الصحابة –رضي الله عنهم- كما سرده الإمام النانوتوي رحمه الله:

إن الإمام النانوتوي رحمه الله أكد على إثبات عدالة الصحابة وطيب سيرتهم، فإنه من شأنه أن يستأصل أساس المذهب الشيعي، ويقلعه من الصميم، فراح يذكر آية بعد آية، داعيا إلى تدبر معانيها والأخذ بما يستفاد منها من دروس في فضل الصحابة وعدالتهم.

(١) النانوتوي، الإمام محمد قاسم، الأجوبة الأربعون، ج١، ص٣.

الآية الأولى في فضل الصحابة رضي الله عنهم

قال الله تعالى: **إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** (سورة التوبة: ٤٠)

قال الإمام: تدبروا هذا الآية ودعوا اللجاج، وانظروا أهي تؤيد السنة أم الشيعة؟

وهنا تذكَّر الإمام قصة مرزا كاظم علي الكهنوي، الذي كان من كبار علماء الشيعة، وقصته أنه قال يوماً لأصحابه: سُبُّوا من شئتم من الصحابة إلا أبابكر؛ فإن من سَبَّه يكفّر عندنا أيضاً.

فذكر أحدُ من حضر أن المذهب خلاف ما تقول، فقال: لست أنا بقائله؛ بل هو قولٌ، اللهُ قائله، فإنه لافرق بين الصاحب والصحابي، فالله يشهد بصحبة أبي بكر فإن المعنيَّ بكلمة "صاحب" في الآية هو أبوبكر بالإجماع.

وهنا يقول الإمام: سبحان الله! هذه صفة رجل منصف(١).

قد ذهبت الشيعة في تفسير هذه الآية مذاهب شتى، وَحَمَّلوا الآية المعاني التي هي منها براء.

وقد شرح الإمام النانوتوي هذه الآية الكريمة شرحًا عجيباً، كشف مغزاها، وأوضح مراد الله تعالى، وأجاب عن هُراء وهفوات الشيعة بشكل لامزيد عليه.

يقول الإمام في تفسير هذه الآية:

"الأول أن لفظ "صاحبه" يرادف في العربية "الصحابي".

(١) النانوتوي، الإمام محمد قاسم، هدية الشيعة، ص٢٧-٢٨.

وثانياً: أن كلمة "لاتحزن" تدل على أن أبابكر الصديق- رضي الله عنه- كان عاشقا صادقًا للرسول ومؤمنا مخلصاً، وإلا فلاداعي للحزن؛ بل كان موضع السرور والغبطة حسب عقائد الشيعة، فكان له أن يخبر كفار مكة بوجود الرسول- صلى الله عليه وسلم-.

وإن كانوا لايرضون بهذا فلا مندوحة لهم من الاعتراف بأن أبابكر لايخاف على نفسه؛ بل يحزن على رسول الله- صلى الله عليه وسلم- وما سيلقاه من أذى لوصادفه مشركو مكة، فعزَّاه الرسول وطيَّب خاطره بقوله: لاتحزن إن الله معنا.

وقد سلك الشيعة في تفسير هذه الآية مسالك لايرتضيها العقل والدين.

أقوال الشيعة في الآية والإجابات عنها:

يقول الإمام النانوتوي: إن أناساً ظلمة يقولون: إن أبابكر كان يخاف على نفسه دون الرسول، فأجاب الإمام بقوله: إن مثار التفكير أن هذا القول الباطل يستلزم جهالة رب العالمين باللغة العربية الفصيحة (عياذا بالله من ذلك).

وذالك أنّ المعنيين بالعربية لا يخفى عليهم أن كلمة الحزن تُستعمل في مواضع الهمِّ وفراق المحبوب والأماني، وأن الخوف يُستعمل في مواضع يخاف فيها الإنسان على نفسه.

ومن هنا إذا ذهب موسى إلى الطور وسأله ربُّه: **وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَامُوسَى (*) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (*) قَالَ أَلْقِهَا يَامُوسَى (*) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى** (سورة طه: ١٧-٢٠)، وإذا رأى موسى عصاه وقد تقلبت حية تسعى، فرَّ فرار الآبق.

فدعاه ربه بقوله: **أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ** (سورة القصص:٣١) والظاهر أن خوف موسى كان على نفسه، فخوطب بقوله: لاتخف، دون قوله: لاتحزن.

وكذلك تماماً إذا قتل موسى قبطياً، وهمَّ رجال فرعون بقتله، وهرب موسى خائفاً، جاء التعبير القرآني عن هروب موسى بقوله: "**فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**" (سورة القصص:٢١).

وهناك عشرات المواضع الأخرى في القرآن الكريم، التي إذا كان منها الخوف على نفسه استعمل "الخوف" وإذا كان الخوف على غيره استعمل "الحزن".

وجاء في القرآن: " **تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا**"(سورة حم السجدة: ٣٠)، فلو كان الخوف والحزن مرادفين لما أُفرِدا بالذكر، فالصحيح أن الحزن شيء والخوف شيء آخر، ثم عاد الإمام ليضحك على عقول القوم، فقال: إني لأستحيي من أن يقول أحد: الفرق بين الهم والحزن ليس من المعاني التي يجب لها هذا الشرح؛ ولكن ماذا أصنع؟ أتعامل مع قوم لا أظنهم فهموا حتى الآن، فإن اعتبار الخطأ صواباً والصواب خطأ قاعدة مطردة لدى الشيعة. ولذالك سمَّوْا كل حفيظ أمين خائنًا وسارقاً.

ونظراً إلى ما طُبِعت عليه الشيعة من سوء فهم وتاويل باطل وتحريف في النصوص حيث ظنوا الخوف والحزن مترادفين، وأن أبابكر كان يخاف على نفسه دون النبي -صلى الله عليه وسلم- وقف الإمام النانوتوي رحمه الله هنا وقفة تأمل، ليفند شبهات الشيعة على سبيل التسليم والنزول.

وأفاد أنه إن خاف أبوبكر على نفسه فعلى افتراض صحة هذا القول لم يكن خوفه على نفسه أيضا؛ إلا لأن الكفار كانوا يعتبرون أبا بكر عدوًا لهم،

وكانت هذه العداوة قائمةً بسبب الدين الذي دان به أبوبكر، وأخلص له كامل وده وولائه للرسول -صلى الله عليه وسلم- ومن أجل ذلك قال الرسول عليه السلام! لاتحزن، وهذا دليل على إيمان أبي بكر وإخلاصه للدين، فالآية تؤكد أن الله مع الرسول -صلى الله عليه وسلم- وأبي بكر، والله لايكون إلا مع المؤمنين، فأبوبكر مؤمن صالح، وباذلٌ في سبيل الدين نفسه ونفيسه.

وقول الله تعالى: "ثاني اثنين" كفي به شاهداً على مشاركة أبي بكر فيما عمله الرسول -صلى الله عليه وسلم- من هجرة إلى المدينة وتحمل المكاره؛ بل استطابتها في سبيلها ونصرة الدين المتين.

ومن غرائب الهفوات الشيعية في المقام أنهم قالوا: إن الكفار لم يُـخْرِجوا أبابكر، وإنما اصحطحبه الرسول -صلى الله عليه وسلم- فصحب أبوبكر تقيةً منه ليخبر قريشاً بأمر الرسول-صلى الله عليه وسلم-.

فأجاب الإمام النانوتوي بوجه فيه نوع من التفصيل، حيث قال: كان يليق بالشيعة أن لايبلغوا من السفه والحمق هذا المبلغ، فكل كلمة قرآنية تقضي على أساس هذا الوهم الشيطاني.

أما أن كفار قريش لم يـُخْرِجوا أبابكر الخ فإن كان المراد بالإخراج هو دفع المهاجِر بالضرب والطعن إلى الخروج فهذا لم يحدث مع النبي -صلى الله عليه وسلم- أيضا، وإن كان المراد هو تضييق الخناق على الـمُهاجر، وتعريضه لأنواع الأذى والمشاق فهذا أمر حصل لأبي بكر كما حصل لغيره؛ بل كان الكفار ضربوه ضربا مبرحاً وأخرجوه من مكة سابقاً، فكان من ابن الدغنة أن يجيره ويتكلم مع كفار قريش بشأنه.

أما أنه صحب الرسولَ تقيةً منه للتمكن من إخبار قريش بما هو كائن فمع فساد القول ونتن المعنى لم يكن الرسول ليصطحب غير أمين، ليفشي سره ويزيده ألما إلى ألم.

من العجائب الداعية إلى البكاء والانتحاب أن يُنسب مثل هذا الهُراء والجمل الساقطة إلى أفضل الناس بعد الأنبياء، الذي تحمَّل مع الرسول-صلى الله عليه وسلم- في سبيل الدين مالم يحتمله غيره، وأنفق في سبيله مالم ينفق غيره، حيث أعتق ضعفاء المسلمين كبلال بن أبى رباح ونصح للأمة وقدم للدين ما هو مسجَّل في التاريخ بحروف ذهبية.

والحق أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- كان يعلم أن الكفار يعلمون قرب أبي بكر إليه وحبه له، فهم يعاملونهما معاملة واحدة، فاصطحبه شفقةً عليه ودرءاً للوحشة عن نفسه، وما إليها من الإيحاءات الكامنة في اختيار أبي بكر رفيق الهجرة، والتي يدركها عاقل بأدنى تأمل.

فإن اختيار أبي بكر رضي الله عنه في هذه الرحلة وبهذه العناية شرف عظيم يفوق شرف رقدة سيدنا على -رضي الله عنه- على فراش النبي ﷺ.

ومَن أسفهُ وأحمقُ ممن يجترئ على اعتبار من شهد القرآن الكريم بإيمانه وصدقه ووفائه خائنًا وفاجرًا، ثم يَعُدُّ نفسَه في مصافِّ المؤمنين؟[1]

المبحث الثالث: خلافة سيدنا أبي بكر رضي الله عنه:

بعد إثبات ما لأبي بكر من فضل وشرف في الإسلام شَرَعَ الإمام في إثبات أحقيته بالخلافة وتفسير ما أثير ضده من شكوك وشبهات.

(١) المصدر السابق، ص٣٦.

يقول الإمام النانوتوي-رحمه الله-: "قد يشك هنا أحد في أن فضل أبي بكر رضي الله عنه على سائر صحابة الرسول عليه السلام لا يستلزم كونه أحق بالخلافة؛ فإن سيدنا علي المرتضى هو صهره وابن عمه، وهو أحق بالخلافة. فمن لأبي بكر أن يخلف الرسول؟ ثم إذا صار إليه أمر الخلافة كان يجب عليه أن يولّي عليًا الخلافة، لكنه لم يفعل؛ بل عهد إلى عمر بتولية القيادة الإسلامية.

أجاب الإمام النانوتوي عن هذه الشبهة فقال: لاتُقاس الخلافة على السلطنة؛ فالخلافة ركن عظيم من أركان الدين، والسلطنة أمر قبيح من أمور الدنيا.

وإذا قام التفاوت بين الدين والدنيا، فما ظنك بتفاوت بين أعظم أركان الدين وأقبح أمور الدنيا؟

والخلافة شيء يقوم على أساس الاستعداد والمؤهلات، وإليه يشير لفظ الخلافة، الذي مفاده القيام مقام الأصيل عن جدارة، وإذا اجتمعت صفات النيابة والخلافة في أشخاص كان أكثرُهم استعداداً وأوفاهم بالشرائط والصفات هو الأحق بالخلافة.

وإذا ثبت فضل أبي بكر - رضي الله عنه- على سائر الصحابة ثبتت أحقيته بالخلافة.

نعم؛ لاننكر أن عليًّا -رضي الله عنه - يتمتع بصفات تؤهله للخلافة؛ لكن الأفضل هو الأولى بالخلافة.

تقول الشيعة: أبوبكر اغتصب حق عليٍّ في الخلافة، أقول: إن كان أبوبكر اغتصبها فلاعجب إيضا؛ اغتصب حقه لاغير.

وثانياً: يعلم المطلعون على التاريخ والسير جيداً أن أبابكر -رضي الله عنه- لم يرتضِ بكونه خليفة؛ بل أراد أن يدفعها عن نفسه إلى أحد من عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما.

ولكن عمر رضي الله عنه قاطع كلامه، وذكَّر الصحابةَ كيف كان الرسول ﷺ يقدم أبابكر على غيره في إمامة الصلاة، فمن تطيب نفسه أن يتقدم على أبي بكر رضي الله عنه؟ ولم يكن من الأنصار إلا أن قالوا قولة رجل واحد: نعوذ بالله أن نتقدم أبابكر[١]

وتقديم عمر أبابكر لتولي الخلافة ناشئ عن فهمه السديد بأن الخلافة ليست شيئاً موروثاً، يرثه الأبناء عن الآباء.

وثالثاً: إن كانت الخلافة مما جرى فيه الإرث كانت فاطمة الزهراء والحسن والحسين أحق بالخلافة من علي -رضي الله عنه - وكون فاطمة امرأة وكون الحسنين صغيرين لايمنع من الخلافة؛ فإن ضرورة السلطنة قد تقتضي تولية المرأة والغلمان ولو أشرف على أمورهم رجال خبراء.

الحاصل أن الخلافة لوكانت شيئا موروثا لما كان علي رضي الله عنه أحق بالخلافة أيضا لا عند وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ولا عند خلافته هو ما دام ابناه الحسن والحسين على قيد الحياة.

وإذا كانت الخلافة مما لايجري فيه الإرث وإنما يتولاها من يتولى عن استعداد وشورى لم يكن أبوبكر في تولية عمر القيادة الإسلامية مخطئاً، فعمر هو عمر الفاروق"[٢].

(١) الإمام أحمد بن حنبل، مسند أحمد،(بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م) رقم الحديث: ١٣٣، باب مسند عمر رضي الله عنه.

(٢) النانوتوي، الإمام محمد قاسم، هدية الشيعة، ص:٤٤-٤٥.

المبحث الرابع: قصة القرطاس ودفع الطعن في عمر رضي الله عنه:

إن من مطاعن الشيعة في سيدنا عمر الفاروق –رضي الله عنه– هو أنه حال دون كتابة وصية الخلافة لعلي–رضي الله عنه– عند ما أراد الرسول ذلك فطلب القرطاس، والرواية في ذلك مايلي:

أخرج الإمام البخاري بسنده عن ابن عباس –رضي الله عنه– قال: لـمَّا حُضِرَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفِي الْبَيْتِ رِجَالٌ فِيهِمْ (مِنْهُمْ) عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هَلُمَّ أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَابًا لَا تَضِلُّوا بَعْدَهُ، فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ غَلَبَ عَلَيْهِ الْوَجَعُ وَعِنْدَكُمُ الْقُرْآنُ، حَسْبُنَا كِتَابُ الله، فَاخْتَلَفَ أَهْلُ الْبَيْتِ فَاخْتَصَمُوا، مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: قَرِّبُوا يَكْتُبْ لَكُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كِتَابًا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ مَا قَالَ عُمَرُ، فَلَمَّا أَكْثَرُوا اللَّغْوَ وَالِاخْتِلَافَ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قُومُوا، قَالَ عُبَيْدُ الله: فَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقُولُ: إِنَّ الرَّزِيَّةَ كُلَّ الرَّزِيَّةِ مَا حَالَ بَيْنَ رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبَيْنَ أَنْ يَكْتُبَ لَهُمْ ذَلِكَ الْكِتَابَ مِنِ اخْتِلَافِهِمْ وَلَغَطِهِمْ[1]

قال الإمام النووي في شرح الحديث: اتفق قول العلماء على أن قول عمر "حسبنا كتاب الله" من قوة فقهه ودقيق نظره؛ لأنه خشي أن يكتب أمورا ربما عجزوا عنها، فاستحقوا العقوبة لكونها منصوصة، وأراد أن لاينسدَّ باب الاجتهاد على العلماء، وفي تركه–صلى الله عليه وسلم– الإنكار على عمر

(١) الإمام البخاري، صحيح البخاري،(بيروت: دارق طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ) رقم الحديث٥٦٦٩، باب قول المريض قوموا عني.

إشارة إلى تصويب رأيه، وأشار بقوله "حسبنا كتاب الله" إلى قوله تعالى: ما فرطنا في الكتاب من شيئ، ويحتمل أن يكون قَصَدَ التخفيف عن رسول الله– صلى الله عليه وسلم– لما رأى ماهو فيه من شدة الكرب، وقامت عنده قرينة بأن الذي أراد كتابته ليس مما لا يستغنون عنه، إذ لوكان من هذا القبيل لم يتركه– صلى الله عليه وسلم– لأجل اختلافهم، ولا يعارض ذلك قولُ ابن عباس: إن الرزية كل الرزية الخ؛ لأن عمر كان أفقه منه قطعاً.[1]

هذه حقيقة الرواية ومحملها الصحيح؛ ولكن الشيعة أقاموا هنا كومةً من الاعتراضات والافتراءات، ليصبُّوها على الصحابة الأبرار لا سيما على أشدهم في دين الله: عمر، فقالوا: إن الذي أراد الرسول صلى الله عليه وسلم كتابته هو وصية علي بالخلافة لاغير، فعمر صار بمنعه ومعارضته الرسولَ فاسقًا مرتداً كافراً، نعوذ بالله منه!

وقد تناول الإمام النانوتوي هذا المطعن ببيان شافٍ لما في الصدور، حيث أثبت أولًا أحقِّية الخلفاء الثلاثة بالخلافة بعد الرسول –صلى الله عليه وسلم–، ثم أراد الحديث الضافي عن قصة القرطاس وحقيقة منع سيدنا عمر – رضي الله عنه– فإن الإمام يرى هذا الطعن سببا لمطاعن كثيرة، فَبِانْدِفاعِه تندفع تلك المطاعن، يقول الإمام:

"أولا: لم يثبت برواية صحيحة أن عمر هو المانع الأول عن الكتابة؛ بل لما أراد الرسول –صلى الله عليه وسلم– أن يكتب للصحابة ما لم يضلوا بعده، اختلف أهل المجلس وفيهم عمر، فمنهم من شاء الكتابة، ومنهم من نظر إلى

(١) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري(بيروت: دار المعرفة، د.ط، ١٣٧٩ه)، ج٨، ص١٣٤.

شدة الوجع، فمنع عن الكتابة، وكان عمر في الفريق الثاني، فارتفعت الأصوات وعلا اللغط.

فسيدنا عمر ليس هو المانع الأول؛ بل كان فريقًا من الصحابة، فالطعن على عمر ليس بسديد، وإن كانت عند الشيعة رواية تثبت أن عمر هو المانع لاغير ولم يكن هناك لغط وضجيج فليأتوا بها صحيحة.

ورأى سيدُّنا عمر الفاروق -رضي الله عنه- أن هذا القول من قبيل التربية والشفقة، وليس من قبيل الوجوب، فإن الله تعالى سبق أن أنزل في القرآن الكريم "**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا**" (سورة آل عمران: ٣)، والمعنى أن الأمر النبوي لم يكن يحمل أمرًا دينيًا جديداً؛ بل قديكون فيه تفصيل الأحكام السابقة. وهذا ليس مما لا بد منه في الحالة الحرجة التي يعانيها الرسول-صلى الله عليه وسلم-، إن رسولنا أراد التغلب على الوجع وكتابة بعض الأمور شفقةً على الأمة، فهل كان من المعقول أن نستطيب هذا الأذى لرسولنا -صلى الله عليه وسلم؟ بل من واجب الأدب أن ندفع عنه الأذى بما نستطيع، فإن كان الأب يشعر بجوع شديد ويؤثر ابنه على نفسه في الطعام، فهل من المناسب أن يأكله الابن ويترك أباه في طوى شديد؛ بل المناسب أن يعصي أباه، ويراعي راحته.

كان عمر الفاروق -رضي الله عنه- يحرص على راحة الرسول -صلى الله عليه وسلم- وقطع اللغط الذي يسبب أذاه. فقال: "حسبنا كتاب الله".

الحاصل أن المعترضين على عمر -رضي الله عنه- قدطُبِعوا على قلة الفهم وفقدان العقل ونقصان البصيرة.

وإذا تدبرنا موقف الرسول صلى الله عليه وسلم وجدنا رأي عمر صواباً، فإن الأصوات إذا ارتفعت قال الرسول صلى الله عليه وسلم: قومواعني، فإن كانت الكتابة شيئاً لازماً يجب تبليغه لم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم ليمتنع عن هذا؛ بل يؤكد على الكتابة مراراً وتكراراً، ولولا أن تُؤذيه الأصوات المرتفعة لما قال: قوموا عني، فثبت صدق فقه عمر ونور بصيرته؛ بل يجب أن نقول: إن أقوال عمر كما وافقت رضا الله عزوجل في كثير من المواضع مع مخالفته الظاهرة لرأي الرسول-صلى الله عليه وسلم- وافق قوله هذا أيضا رضوان الله ومشيئته، ومن أجل ذلك لم ينزل في القرآن مايرفض قول عمر.

أما إذا قال أحد: لماذا لم ينزل في القرآن مايصدِّق عمر؟ فالجواب أن آية "اليوم أكملت لكم دينكم الخ دلَّت على أن الكتابة لم تكن عن أمر ضروري من أمور الإسلام، ثم لم يكن من العقل والبصيرة في شيء أن يُشْغَلَ بالُ الرسول فيما لا يعنيه في أواخر حياته، وهو منقطع إلى ربه تحميداً وتسبيحاً.

وإن كان من المعترضين الأشقياء من يرى الكتابة أمرًا لازماً منوطاً به أمر الهداية والضلالة، فالاعتراض لايتَّجه إلى عمر فحسب؛ بل إلى جميع أهل البيت والصحابة؛ بل أهل البيت شركاء في الجريمة بشكل أكثر، وذلك لوجوه تالية:

الوجه الأول: أن المريض إذا خاطب كان كلامه مسوقاً لأهل بيته أمراً ونهياً، أما عمر فكان من خارج أهل البيت، وإنما جاء يعود الرسولَ- ﷺ- لمدة ساعة وساعتين، وكان على أهل البيت أن يكتبوا- بعد ما خرج عمر من البيت- ما أراد الرسول - عليه السلام- كتابته، فكان الرسول - صلى الله عليه وسلم- حياً لمدة بضعة أيام بعد هذه القصة، وإذا تركوا ذلك ساروا سَيْرَ عمر.

بل هذا الاعتراض يرد على الرسول الكريم -ﷺ- أيضاً. فعلى الرسول تبليغ ما أنزل إليه من ربه، وإن كان أمر الكتابة وحياً من عند الله كان يجب تبليغه، وإذا لم يفعل فقد قصّر. نعوذبالله من هذا.

فإن كان المعترضون على عمر رضوا بالاعتراض على أهل البيت بل على الرسول الكريم- ﷺ- نداقع عن عمر بمثل ما يدافعون به عن أهل البيت وذات الرسول عليه الصلاة والسلام- ﷺ-.

ثم الأمر بالكتابة لايشير من قريب أو بعيد إلى الوصاية بخلافة علي، فالظاهر يقتضي أن رسولنا -ﷺ- كان يريد أن يكتب خلاصة الشريعة الإسلامية وأهم الأركان الإسلامية، فقوله: "مالن تضلوا بعده" نص في الأمر، فإن تعيين الخليفة لايستلزم الهداية الدائمة، أما التأويلات الباردة فلكلٍّ لسانٌ وهوايةٌ، وإذا كانت خلافة علي تمنع الأمة عن الضلالة فماذا بعد علي- رضي الله عنه-؟ أليس الحديث بالقائل: "مالن تضلوا بعده أبدا"؟

وإن سلمنا أن خلافة علي رضي الله عنه لها هذه الخصائص فما الدليل على أن النبى -ﷺ- يريد أن يكتب خلافة علي؟ مع أن هناك شواهد كثيرة مابين معقول ومنقول على أن الرسول يريد أن يخلفه أبوبكر لاغير.

أما المنقول فهو ما أخرجه الإمام مسلم في صحيحه عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ لِى رَسُولُ اللهَّ -ﷺ- فِى مَرَضِهِ: ادْعِى لِى أَبَا بَكْرٍ وَأَخَاكِ حَتَّى أَكْتُبَ كِتَابًا؛ فَإِنِّى أَخَافُ أَنْ يَتَمَنَّى مُتَمَنٍّ: وَيَقُولَ قَائِلٌ أَنَا أَوْلَى، وَيَأْبَى اللهُّ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلاَّ أَبَا بَكْرٍ[١].

(١) أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، باب من فضائل أبي بكر الصديق،(بيروت: دار الجبل) رقم الحديث: ٦٣٣٢.

والغرض من الحديث أن النبي ﷺ لوكتب كتب لأبي بكر دون علي.

أما المعقول فالعقل يقضي بأن الرسول الكريم– صلى الله عليه وسلم–لعله خطر بباله أن علياً ربما يفكر في الخلافة لقرابة في النسب، ويسعى له سائر بني هاشم، فلا تصل الخلافة إلى من هو أهلها، وهو أبو بكر، ومثل هذه الخطرات والهواجس لا يمكن أن تحدُث في أبي بكر، فلا توجد هنا قرينة ولا إرث.

فأراد أن يقطع الشبهة ويكتب لأبي بكر، فالاعتراض على عمر إن ورد يجب أن يورده أهل الصديق دون شيعة علي. فالرسول – صلى الله عليه وسلم – أراد أن يكتب لأبي بكر، وعمر منع عن هذا"[1].

المبحث الخامس: آيات تقرر للصحابة منزلة سامية:

قد ذكر الإمام محمد قاسم النانوتوي في أكثرَ من موضع أن أساس مذهب الشيعة هو الطعن في الصحابة رضي الله عنهم، وتجريح شخصياتهم الكريمة، فإثبات فضل الصحابة أمر يقضي على المذهب الشيعي، ويستأصل بنيانه، ولذلك قد أثبت الإمام فضائل الصحابة رضي الله عنهم ببسط وتفصيل، يُقْنِع المارد ويُطَمْئِن المؤمن.

سرد الإمام آيات قرآنية عديدة تبين للصحابة فضلًا وسبقا في الإيمان والعمل الصالح، وكان أول آية بنى عليها كلامه، هي آية في سورة الفتح، وهي قول الله عزوجل:

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ

(١) النانوتوي، الإمام محمد قاسم، هدية الشيعة، ص٥٢-٥٦.

السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (سورة الفتح: ٢٩)

قال الإمام: إن هذه الآية أفادت أمورًا كثيرة، تدل على عظمة الصحابة –رضي الله عنهم– وفضلهم على سائر الأمة.

إن الله تعالى ذكر الصحابة بعد الرسول عليه الصلاة والسلام فَدَلَّ على أن مكانة الصحابة تلي مكانة الرسول ﷺ وعلى هذا القياس يكون الوصف الذي مُدِح به الرسول ﷺ يليه الوصف الذى مدح به صحابة الرسول ﷺ.

أما مدح الرسول فقد تمَّ بوصف الرسالة لاغير، "محمد رسول الله"، أما مدح الصحابة فقد كان بقوله: "أشداء على الكفار رحماء بينهم"، فدل على أن مكانة الحب في الله والبعض في الله تتبع مكانة الرسالة، فالبغض في الله يعني العداء لأجل الله، وهذا عين الشدة على الكفار، و الحب في الله يعني التراحم فيما بين المؤمنين.

وإلى هذا يشير الحديث الذي رواه أئمة السنة في سننهم عن النبيﷺ قال: مَنْ أَعْطَى لله وَمَنَعَ لله وَأَحَبَّ لله وَأَبْغَضَ لله وَأَنْكَحَ لله فَقَدْ اسْتَكْمَلَ إِيمَانَهُ[١].

سبحان الله! انظروا كيف أحاديث أهل السنة توافق القرآن الكريم، أما أحاديث الشيعة فهي في واد، والقرآن في واد، وكفى به دليلا على تفاهتها وسخافتها.

(١) أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، سنن الترمذي(بيروت: دار الغرب الإسلامي، د.ط، ١٩٩٨م) رقم الحديث: ٢٥٢١

وهناك لطيفةٌ ذكرها الإمام: وهي أنه كلما جاء فى الحديث ذكر الحب في الله والبغض في الله قُدِّم الحب في الله على البغض في الله، وفي كلام الله قُدِّم "أشداء على الكفار" على قوله: "رحماء بينهم".

والسر في ذلك أن الحب في الله والبغض في الله كلاهما من آثار كمال الحب الإلهي، فإن الحب الإلهي إذا اكتمل وتغلغل في أحشاء الإنسان ظهرت آثاره في الجوانب الأربعة فكل شيء له علاقة خاصة بالله -عزوجل- تعلق به حب هذا الإنسان.

فمثلاً إذا كان رسولنا محمد -صلى الله عليه وسلم- أحبَّ خلق الله إليه، فمن رُزِق الحبَّ الإلهي الكامل وعلم مدى علاقة الرسول بالله عزوجل، يكون حب النبي - صلى الله عليه وسلم - بعد حب الله أشد وأعمق.

وأي شيء له علاقة خاصة بالله -عزوجل- بعد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يكون حبه له كذلك، وهلم جرا.

إن الكعبة المشرَّفة من أخصَّ الأمكنة وأشرفها عند الله، فصاحب الحب الإلهي يحب الكعبة أكثر من حبه لغيره من الأمكنة، ويأتي بعد الكعبة المسجدُ النبوي ثم البيت المقدس، فهكذا حب الأشياء ذات الصلة بالمحبوب جزء من حب المحبوب.

أما العداء لأعداء المحبوب فهو لازم لحب المحبوب، وليس من جزئه، كما أن الظل لازم للشمس إذا وُجد حائل.

وبناءً على هذا يلزم لمن أحب الله ورسوله معاداةُ أعداء الله ورسوله، فمعاداة أعداء الله غير حب الله، إلا أنها لازم له، أما حب أولياء الله فهو من حب الله لاغير.

ومن هنا عندما ذكر الرسول عليه السلام الحب في الله والبغض في الله قدَّم الأهم فالأهم، وجعل المقدَّم مقدماً والمؤخر مؤخراً؛ ولكن الله تعالى لم يذكر تعريف الحب في الله والبغض في الله، وإنما أثنى الله -سبحانه- على الموصوفين بهاتين الصفتين، والمألوف أنه عند ذكر الأوصاف يبدأ بصفة عامة ثم بصفة خاصة أوبصفة صغيرة ثم بصفة كبيرة جليلة، حتى يبقى لكل صفة معنى ومغزى. فإن البداية إذا كانت بأكبر صفة وأعظمها لم يبق معنى لصفات صغيرة.

فوصَفَ اللهَ تعالى صحابة الرسول -عليه الصلاة والسلام- أولًا بصفة أدنى وهي الشدة على الكفار.

وفيها معنى آخرهام، وهو أن الحب سهل؛ فإن الإنسان إذا أحب آخر، أحبه الآخرُ أيضا، وليس فيه نوع مشقة، فلا يستقيم الإيمان بالحب في الله فحسب، أجل! إن العداوة أمر صعب، فهي ترقى بصاحبها المرتقَى الصعب، فالإنسان الذي أحب في الله إذا قرن حبَّه في الله بالبغض في الله كان دليلًا على كمال إيمانه وصدق يقينه.

ثم إذا كان البغض في الله يمارَس مع الأقارب والعشائر يكون أكثر دلالةً على سموالإيمان ورقيه كما كان في الصحابة.

فذِكْرُ الصحابة بعد رسول الله مباشرة دليل على أنَّ مكانة الصحابة متصلة بمكانة الرسول -صلى الله عليه وسلم- فالصحابة هم المخلصون بدرجة أن الشياطين لا يستطيعون إغواءهم وإضلالهم؛ بل إذا كان الصحابة أشداء على الكفار، والشيطان رئيس الكفار فشدتهم على الشيطان أكثر وأغلظ(١).

---

(١) النانوتوي، الإمام محمد قاسم، هدية الشيعة، ص٦١-٦٥.

ثم ذكر الإمام النانوتوي شيئًا هو في غاية الأهمية، فإنه كان بالإمكان أن يستبعد إنسانٌ أدرك فضائل الصحابة أن يصدر عنهم ذنب أوخطأ، فقال الإمام النانوتوي: إن "أشداء على الكفار" وصف ذكره الله تعالى في معرض الثناء على الصحابة بشكل يشير إلى أن هذا الوصف يلي وصف الرسالة؛ ولكن هذا الوصف ليس مما يستحيل معه صدور الذنوب؛ فإن هذا الوصف لايجعل صاحبه يبقى على حالة واحدة، فإن الموصوف قد اجتمع فيه وصفان متضادان، وحسبهم أن لا يتسلط عليهم الشيطان، فإن الله يصرف عنهم السوء، وليس من اللازم استحالة صدور الذنب عن الصحابة الأشداءِ على الكفار، وإنما اللازم أن لايكون في عباداتهم فتور ورياء، فهم طُلَّاب رضوان الله وعُشَّاق ثوابه وحده. ومِن هنا قال الله تعالى بعد ذلك: تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا [1].

وبعد هذا السياج المنيع حول شخصيات الصحابة رضي الله عنهم قال الإمام النانوتوي: "وإذا تقرر هذا أقول للشيعة: إن كثيرا ما يخطئ حتى كبارُ الناس في فهم الأشياء، فيتصورونها على عكس ما هي عليه، كما أن الخضر إذا عاب سفينةً لغرضٍ صحيحٍ كرهه موسى وقال: أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (سورة الكهف: ٧١): إمرا أي كريهًا، مع أن العمل كان صائبا كما بيَّنه خضر، وعليه فإذا كان بعض أئمة الشيعة اعتبروا أعمال الصحابة الخلفاء كإرث الفدك وما إليه خطأً لنقصٍ في الفهم، فليس ذلك بغريب، فيمكن أن أخطأتْ السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها في فقه القضية.

(١) المصدر السابق، ص٦١.

فصدور خطإٍ لاينافي شأن الصحابة، ولايرضى العقل بمحاسبتهم على صغار الذنوب؛ بل في الآية إشارة إلى ذلك، وإذا أثنى الله على جماعة الصحابة مع إمكانية صدور الذنوب عنهم فمعناه أنهم مغفور لهم، فلا يمكن أن يمدح الله الجماعة ثم يلقيها في النار، وإذا ثبت ذلك لايضر الصحابةَ تطاولُ الأعداء عليهم وإلصاق ألوف التُّهَمِ بهم.

وفي قول الله تعالى: "ليغيظ بهم الكفار" مايجعل أعداء الصحابة يتحرقون حقداً وغيظاً عليهم، وكان الله يعلم بما هو كائن، فأبداه قبل أوانه، وأظهر أن الصحابة لهم هذه المحاسن والمناقب وأن لهم أعداء يغيظون بهم.

وإنما قال: "الكفار" ولم يقل: الأعداء إشعاراً بأن عداوة الصحابة ليست من شأن المؤمنين؛ وإنما هي دأب الكفار المطبوعين على الكفر ورذائل الأخلاق.

وكيف يُتصوَّر مِن مؤمنٍ أن يذم جماعة الصحابة التي أثنى عليها الله تعالى وغفر لها زلاتها، مع أن أعداء الصحابة يعرفون جيداً أن للصحابة عليهم منةً وفضلا عظيماً؛ فإن الإسلام الذي يدينون به وكلمة الإسلام التي يتلونها كل ذلك مدين للصحابة.

فلولا جهاد الصحابة وجهودهم في سبيل الإسلام لما كان للإسلام هذا الشيوع وللقرآن هذا الانتشار.

فإن كانت الشيعة لاتعرف للصحابة فضلًا وأدباً فمن تحترمهم وتتأدب معهم؟ ولذلك عُدَّ أعداء الصحابة في مصافِّ الكفار دون المؤمنين[1].

---

(١) المصدر السابق، ص٦٩-٧٣.

وكان ربنا –سبحانه– يعرف بما سيحدث ضد الصحابة من هفوات وافتراءات، فأوضح المسألة بتمامها بقوله: وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (سورة الفتح: ٢٩)

ومعنى الآية على سبيل إلزام الشيعة أن هذه الجماعة المؤمنة (التي نمدحها نحن وتذمونها أنتم) إن كانت هذه الجماعة كما تزعمون فلا بأس أيضا؛ فقد سبق لهم وعد بالمغفرة والأجر العظيم. وكيف لا؟ وهم أشداء على الكفار رحماء بينهم، ركَّعٌ سجَّدٌ يبتغون فضلًا من الله ورضوانا، بلغوا في إيمانهم وأعمالهم الصالحة شأوًا بعيدًا، لا يُبارَى ولا يُجارَى.

آية أخرى في فضل الصحابة – رضي الله عنهم:

قال الله تعالى: **وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** (سورة التوبة: ١٠٠)

يقول الإمام النانوتوي –رحمه الله– بعد ذكر هذه الآية: إن هذه الآية تقضي على الجذور الشيعية بتاتا، فإن من تدبَّر هذه الآية ورُزق نوعا من الإنصاف اضطُرَّ إلى الصدع بالحق والاعتراف بفضل الصحابة لاسيما الخلفاء الثلاثة، ولو كان شيعياً متعصبا تمكَّن منه التشيع كل التمكن؛ فإن الله تعالى لم يَدَعْ لأعداء الصحابة سبيلاً للحيلة والشك؛ فإن رضوان الله سبحانه ليس منوطاً في الآية بالإيمان والعمل الصالح، فتقول الشيعة: المطلوب هو الإيمان والأعمال الصالحة، وتقول: إنهم قد خرجوا من الإيمان وصالح الأعمال عياذا بالله! بل هو منوط بالهجرة والنصرة واتِّباعهم، ولا يخفى على أحد سَبْقُ الخلفاء الثلاثة والزبير بن العوام وطلحة ومن إليهم من المهاجرين الأولين في الهجرة.

ولايمكن لأحد أن يقول: إن هجرتهم مزعومة وليست بصحيحة لاسيما هجرة خليفة رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فهجرته سابقة على هجرة علي –رضي الله عنه– أيضا، فهو في الحقيقة المهاجر الأول، وبما أن الفضيلة نيطت بالسبق في الهجرة فأبوبكر أول المهاجرين، فينطبق عليه كل ماجاء في هذه الآية، من فضيلة وشرف[1].

ولما ثبت سبْقُ الخلفاء الثلاثة في الهجرة ثبت كونهم أجدر برضوان الله، ورضوان الله شرف لاشرف بعده، فإن رضوان الله عنهم يعني رقي إيمانهم وسمو أعمالهم. وقد شهد الله لهم بالإيمان والعمل الصالح في الآية السابقة: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (سورة الفتح: ٢٩)

فلا مجال للشك في كونهم مغفورا لهم حسب الوعد الإلهي في القرآن.

وفى آية التوبة أخبرالله تعالى بأنه أعدَّ لهم جناتٍ خالدة، وليست جنات يومٍ وأيامٍ. فإن شك أحد في إيمان وولاية هذه الجماعة فليس إلا نوعاً من الجنون والسفه؛ بل هم يكذِّبون اللهَ في وعده وإخباره، فهم كفرة وفسقة بلاشك.

فإن من وصف الشمسَ بالظلمة فقد وصف عينه بالعمى، ولا يضير الشمسَ قولُه.

وإن قال معاند مكابر: إن الله قد رضي عنهم أولا، ثم إذا خالفوا الأمير علياً فسخط الله عليهم، وأما إعداد الجنة فمعناه أنه سيدخلهم جهنم، أو لايدخلهم في جنات ذات أنهار وثمار.

(١) لا يخفى أن الهجرة إلى الحبشة ليست بمرادة هنا بإجماع المفسرين. هدية الشيعة، ص٨٠.

فالجواب عن مثل هذه الشبهة لايليق بذكره، فإن بإمكان الخوارج أن يتقوَّلوا مثل هذه الشبهة في حق الأمير عليرضي الله عنه بل ولهم أن يقولوا في آيات المغفرة: إن المغفرة يسبقها عذاب من الله تعالى.

يجيب الإمام عن هذه الشبهة قائلاً: إن هذه الشبهة باطلة وذلك لوجوه.

أولاً: إن الله تعالى قال في سورة التحريم:

يَوْمَ لَا يُخْزِى اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (سورة التحريم: ٨)

فلم يبق للشيعة بعد هذا أن يشكُّوا في إيمان الصحابة، حيث هو مصرّح به في القرآن، فإن الله تعالى أعلن: **فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ** (سورة التوبة: ٩٦)

ومن جانب أعلن رضوانه عن جماعة الصحابة، فلا شك في إيمانهم وكونهم أولي عزة واحترام وتقدير يوم القيامة، محشورين مع النبي ﷺ.

وثانياً: قال الله تعالى: **إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ** (سورة الأنبياء: ١٠١)، ومعنى الآية أن الله تعالى لا يخلف وعده، فمن وعدله بالجنة وقال فيه خيراً سيدخل الجنة، ولا يظن فيه ظنَّ السوء إلا الأشقياءُ الشيعة، الذين يَتَلَوَّنون كالحِرْبَاء تسترا بالتقية.

حتى إن سيدنا علياً اعتبر من خالفه في قصاص عثمان كسيدنا معاوية ومن معه مؤمنين، فقال سيدنا على رضي الله عنه "لَكِنَّا إِنَّمَا أَصْبَحْنَا نُقَاتِلُ إِخْوَانَنَا فِي الْإِسْلَامِ عَلَى مَا دَخَلَ فِيهِ مِنَ اَلزَّيْغِ وَ اَلِاعْوِجَاجِ وَ اَلشُّبْهَةِ وَ اَلتَّأْوِيلِ"[١]

(١) أبو حامد عز الدين بن هبة الله بن محمد بن محمد بن أبي الحديد المدائني، شرح نهج البلاغة (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٨م)، ج١، ص٢١٤٨.

وهذا يدل على أن علياً كان يعتبرهم مؤمنين، فإن كان الشيعة تريد التمسك بالمذهب فعليها أن تنكر مثل هذه الروايات أوتكذبها. وهذا لابأس به فإن ثالث الخلفاء الراشدين سيدنا عثمان بن عفان قدحذف من القرآن أحد عشر ألف آية تؤيد وصاية علي وفضله على من سواه كما تزعم الشيعة، فماذا يضير الشيعة أن تكذِّب قولًا من الأقوال، يصف معاوية ومن معهم بالإيمان والأخوة، ولا يصفهم بالكفر والفسق، فالإيمان بخلافة علي رضي الله عنه بلا فصل هو ركن من أركان الإيمان عند الشيعة.

الحاصل أن الآية "والسابقون الأولون" الخ قضت على الشيعة من الصميم، وأقامت عليهم ويلاً وثبوراً، فليس لهم أن يقولوا: إن الآية نزلت قبل إسلام الخلفاء الثلاثة؛ فهي من سورة التوبة التي هي آخر سورة نزلت كاملا على الرسول، ولايجوز لهم أن يربطوا كلمة "بإحسان" بالمهاجرين والأنصار؛ فهو متعلق بقوله تعالى: "اتبعوهم".

الرد على عقيدة الإمامة من خلال الآية:

يقول الإمام النانوتوي: إن الآية قد قلعت أساس الشيعة الإمامية، وقضت على عقيدة، هي من أهم عقائدهم.

وهي أن الأئمة أفضل من الأنبياء، والشاهد في الآية أنها تثبت فضيلة الصحابة الذين هاجروا ونصروا وجاهدوا في سبيل الله على غيرهم، ولا تُفَرِّقُ في ذاك بين الإمام وغيرالإمام، فدل على أن هؤلاء الأئمة غير سيدنا علي والحسنين رضي الله عنهم لم يبلغوا ما بلغه الصحابة الأبرار؛ أما الآية التي أثبتت دعوى أهل السنة وفندت مزاعم الشيعة فهي قول الله تعالى: **الَّذِينَ آمَنُوا**

وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (سورة التوبة: ٢٠)

ولايسع الشيعة بعد هذه الآية إلا أن يقولوا الحق، ويميلوا إلى مذهب أهل السنة والجماعة أويقولوا ما قالوه في كثير من المسائل من أن الله تعالى قد بدا له في هذه الآية، أي أخطأ، وقال ذلك من غير علم ثم علم فرجع إلى الحق، عياذا بالله منه.

المبحث السادس: الشيعة والقرآن:

قد مرَّ أن الشيعة تعتقد بتحريف في القرآن الكريم، وإن كانت بعض الروايات الشيعية تفيد عدم التحريف في القرآن؛ ولكن الشائع عندهم هو عدم التمسك بالقرآن الكريم، ومن أظهر دلائله أنهم لا يهتمون بحفظ القرآن الكريم، وإن حفظ بعضهم لايستمر في الحفظ، بل سرعان ما ينساه، وذلك لعدم عنايته المطلوبة بالقرآن، وأنى لهم هذه العناية، وهم يتبرؤون من الصحابة الذين حملوا القرآن، ونشروه في العالم.

قد ساق الإمام النانوتوي صفحات عديدة حول هذا الموضوع، ولم يأت فيها بتدقيقات علمية، بل سرى على أسلوب واضح، يناشد كل عقل، وينادي كل ضمير.

يقول الإمام: إن مذهب أهل السنة والجماعة يوافق الثقلين: كتاب الله وعترة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومذهب الشيعة يخالفهما تماما، ويظهر ذلك بالنظر فيما قاله أئمة الإسلام وعلماؤه في الشيعة، وهو من الكثرة والسعة

على حال يضيق عنها صفحات هذا الكتاب، ولكن أكتفي بذكر مثال أو مثالين هنا:

قال الله تعالى: **الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** (سورة البقرة: ١٢١)

ومعنى الآية الكريمة أن الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته، ويؤمنون به، ومن كفر به فهو خاسر ضال، وهذه الآية جاءت دليلًا واضحا على حَقِّيَّة مذهب أهل السنة والجماعة، وبطلان المذهب الشيعي، والأية وإن وردت في بعض أهل الكتاب؛ لكنها حصرت الحق والإيمان بالكتاب فيمن يتلونه حق التلاوة، وإذا انحصر الحق فيمن يتلو الكتاب، فمِن أمارة الإيمان بالكتاب أن تكثر تلاوة كتاب الله، أيا كان ذلك الكتاب من التوراة والإنجيل والقرآن الكريم، ومثاله ما إذا كان الرجل الذكي يفقه بعض الأمور الدقيقة بعقله فيمدحه الناس قائلين: الأذكياء يفقهون بعقولهم، فالكلام وإن سيق لذلك الرجل؛ لكن الكلام يشمل جميع الأذكياء، فهكذا تلاوة القرآن التي جاءت أمارة الإيمان بالكتاب لاتوجد في غير أهل السنة والجماعة، أما الشيعة فأصبحوا مضرب المثل في عدم حفظ القرآن، ومعنى هذا أنهم لايتلون الكتاب حق تلاوته، ولايجتهدون في حفظه حق الاجتهاد، أما تلاوة أهل السنة فأظهر من أن يذكر، وهذه الآية الكريمة تشير إلى أن المذهب الحق يوجد في الجماعة التي تحفظ كلام الله وتتلوه حق تلاوته، وإلا يلزم أن يمدح الله سبحانه أهل الباطل، ولاشك أن جماعة أهل السنة والجماعة تمتاز من بين الطوائف الإسلامية بتلاوة القرآن الكريم حق التلاوة وبذل مجهودات مناسبة في هذه السبيل، حتى ما

سمعنا حتى الآن شيعيًا أو رافضيًا حفظ القرآن الكريم، ولا يوجد في الهند فرقة إسلامية أخرى غير الشيعة، فهم موجودون بكثرة كاثرة في كل مدينة وقرية كبيرة، على أن مدينة لكناؤ ودولة الدكن ومديريات السند تعد مراكز للشيعة، فهم مع كثرة عددهم يحظون بسلطة وإمارة، وبذلك انتشر المذهب الشيعي في هذه البلاد، ويوجد في كل مدينة ألوف من علماء الشيعة ومجتهديهم؛ أما حافظ كتاب الله فلم يوجد ولم يُسمع، وإن كان الشيعة ادعوا أن هذا حافظ لكتاب الله فينا، فسمعناه يقول: كنت حفظت الكتاب ثم ضعف حفظي، فلا أستطيع تلاوته عن ظهر القلب الآن، وإن كان البعض يريدون التلاوة فلا يزيدون على أن يتلوا جزءا بعد جزء، ولا يستطيعون أن يتلو الكتاب في جلسة أو جلستين.

كان في دلهي رجل شيعي، اسمه مولوي جعفر علي، وكان يشغل منصب الإمامة في أحد جوامع دهلي، وكان يعد من كبار علماء الشيعة ومجتهديهم، فوجدناه في دلهي قبل ثورة ١٨٥٧م، يتلو القرآن الكريم نظراً في حفلة تلاوة القرآن الكريم المنعقد في مسجد النواب حامدعلي خان، وكذلك يفعل جميع علماء الشيعة، ثم أخطأ في موضعين في هذه التلاوة نظراً، ومن قدرة الله تعالى أن حفاظ أهل السنة والجماعة يأتون في نفس الجلسة، ويتلون القرآن الكريم عن ظهر القلب بدون خطأ أو بدون تعقيد؛ ولكنهم لم يأخذوا منهم شيئا من العظة والاعتبار(١).

في بعض المدن والقرى الكبيرة يسكن الشيعة بعدد أهل السنة والجماعة، ويوجد في السنة مئات من حفظة كتاب الله، أما الشيعة فلايوجد فيهم من يحفظ

١ النانوتوي، هدية الشيعة، ص٦-٨.

كتاب الله، وهذه هي حالهم في سهارنفور وباني بت وكيرانه، مع أن أهل السنة والجماعة يطعنونهم في ترك حفظ كتاب الله، وكان من مقتضى هذا الطعن أن يُقْدِمَ الشيعةُ على حفظ التفسير الكبير فضلا عن القرآن الكريم؛ ولكنهم طُبِعُوْا على ترك تلاوة الله حق تلاوته، والسبب كما يظهر والله أعلم بالصواب أن الطبائع تختلف، فمن رجل يحب الحلو، ومن آخر يحب المر، وشيء واحد يحبه أحد ويكرهه آخر، وكذلك أرواح بني آدم من حيث الغذاء الروحي تختلف اختلافا كبيرا، فقد يحب هذا ما يكرهه الثاني، ويلتذُّ به الثالث، ويموت عليه الرابع، والشيعة يرون حفظ كلام الله موتًا لهم، ومن سنة الله أن الطالب الذي يكون غير متأدِّب مع أستاذه يُحرم العلمَ في غالب الأحوال، فإن الشكر على النعمة سبب لزيادتها، كما قال تعالى: **لَئِنْ شَكَرْتُم لَأَزِيْدَنَّكُم**، ومعناه أن الكفران سبب لحرمان النعمة، كما جاء في الحديث: "من لم يشكر الناس لم يشكر الله"، ولا شك أن المنعم الحقيقي هو الله سبحانه؛ ولكن نعمة العلم تحصل بواسطة الأستاذ، وأساتذة النعمة العظمى: نعمة القرآن هم الصحابة الأبرار رضي الله عنهم، فكيف تحصل لهم هذه النعمة العظمى، مع سوء أدبهم مع الصحابة؛ بل مع التبرؤ منهم(1).

إن الشيعة قد بلغوا من سوء ظنهم بالقرآن منتهاه، فقد روى الكليني في كتابه الكافي -وهو أصح الكتب بعد كتاب الله عندهم- رواياتٍ، تضع من قيمة القرآن الكريم، وتصفه بما لاينبغي؛ بل بطلان القرآن عندهم يفوق بطلان التوراة والإنجيل، ولا أدلَّ على هذا من أن القرآن الكريم يسمونه بالبياض

---

(1) النانوتوي، هدية الشيعة، ص ٩.

العثماني، وبذلك يعترفون بأنهم تركوا التمسك بأحد الثقلين: الكتاب المبين، ثم أسلوبهم في القراءة يدل على أن تلاوة الكتاب أحط درجة من تلاوة قصائد الرثاء والتعازي، فيبيحون التدخين في مجلس التلاوة، ولايبيحونه في مجلس العزاء، فقول الله تعالى "**الذِيْنَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَتلُوْنَه حَقَّ تِلَاوَتِه أُولِئِكَ يُؤمِنُونَ بِه**" يدل على أن أهل السنة والجماعة مصداق لهذه الأية، وأما الشيعة فهم مصداق لقول الله تعالى: "**وَمَن يَكفُر بِه فأُولئكَ هُمُ الخَاسِرُوْن**"(١).

وإن قال شيعي: إن هذه آية قرآنية، ولا ثقة عندنا بالقرآن الكريم، فقد حدث فيه نقصٌ وزيادةٌ، فمن المحتمل أن هذا الجزء من زيادات أهل السنة في القرآن، والجواب عنه من وجوه:

الأول أن مذهب الشيعة نحو القرآن ينحصر في قولين: القول الأول أن القرآن لم يحدُثْ فيه تغيير ولا تبديل ولانقص ولازيادة، كما يقوله الكليني صدوق الشيعة وثقتهم، والقول الثاني أن القرآن حدث فيه نقص ولم تحدث زيادة، فعدم الزيادة أمر مجمع عليه(٢).

ولكن أذكر هنا جوابًا آخرَ، و ذلك أن الشائع لدى الشيعة أن القرآن قد حدث فيه نقص وزيادة، وهذا القول بدوره دليل على بطلان مذهب الشيعة، فإن القرآن الكريم هو أول مصادر الشريعة الإسلامية، وإذا بطل هذا القرآن عند الشيعة بطل كل ما يثبتونه بالقرآن، واتفق أهل السنة والشيعة على أن المتمسك

(١) سورة البقرة: ٢١.

(٢) النانوتوي، هدية الشيعة، ص ١٣.

بالثقلين: القرآن والعترة هو ناجٍ من الضلال، وإذا فقدت الشيعةُ التمسك بالقرآن وهو أعظم الثقلين، خسرو النجاة والهداية كما يشهد به العقل السليم"(١)

يقول الإمام: إن كانت الشيعة أظهروا هذا الاحتمال فهو ينقلب حجة عليهم لا لهم، ويخفف لوعة قلوبنا، ثم إذا كان القرآن قابلا لهذا القدر من التغير والتبدل، فالذي نسميه قرآنا ليس بقرآن حسب تصريحات الشيعة، فما يذكرونه من دعاوي التلاوة والحفظ لايتعلق بالقرآن"(٢)

ثم يتقدم الإمام خطوة ليقول: فوا عجبا للشيعة كيف ينكرون هذا القرآن الذي كان جميع أهل البيت يتلونه ويعملون به، ويستدلون به، ويفسرونه، حتى إن كتاب التفسير المنسوب إلى الإمام حسن العسكري هو تفسير لهذا القرآن، وكان أهل البيت كلهم يُعلِّمون أولادهم وعبادهم وإمائهم هذا القرآن، ويتلونه في الصلوات وغيرها، وكان على الرسول صلى الله عليه تلاوة هذا القرآن على الناس وبيانه لهم، وكان جميع المسلمين في العصر النبوي وما لحقه من العصور يتلون هذا القرآن، وقد تلقاه من الرسول صلى الله عليه وسلم ألوف من أصحابه، حتى استُشهد سبعون صحابيا في بعض الغزوات، وهذا القرآن هو الكتاب المقدس الذي يتلوه المسلمون في كل مكان، يتلونه في عباداتهم وغيرها، وبه يبدؤون تعليم الصغار، وعلى كل فالقرآن الكريم ليس ككتب الكليني والتهذيب، التي يسترونها في صندوق مقفل تقيةً، وقد يقرؤونه خفيةً خوفا من حضور السني، بل القرآن منتشر انتشار الشمس والهواء في كل قرية

(١) النانوتوي، الإمام محمد قاسم، هدية الشيعة، ص١٢-١٤.
(٢) المصدر السابق، ص١٣.

يوجد بعدد الآلاف ومئات الآلاف، أما كتب الكليني فإذا ذهبتَ تبحث عنها في الهند سوف لاتجدها إلا في بعض الأماكن وبعد تعب وجهد بالغين، ثم إن وجدت نسخة أو نسختين تجدها يكثر فيها الاختلاف، وتتعارض فيها المعاني والمدلولات، وأما القرآن الكريم فهو متواجد في كل مكان وفي كل بيت، وذلك بكثرة لاتُقَدَّرُ، ولم يَحْظَ كتابٌ في الدنيا من السعة والانتشار بمثل ما حظي به القرآن الكريم، ويهتم المسلمون بحفظه بشكل خارق للعادة، وهو كتاب معدودة حروفه وحركاته، وقد أُلِّفَتْ ألوف من الكتب في حركاته ورسم خطه كما هو المعلوم، فبعد كل هذا هل يعقل عاقل أن كتاب الكليني والتهذيب كتاب سليم من الأخطاء والتغير والتبديل، حتى يعتبره الشيعة موثوقا به من كل الوجوه وأصح الكتب، أما القرآن الكريم فهو معرَّض للخطأ والتغير والتبدل كما يقوله الشيعة، أوليس هذا غاية في السخافة العقلية؟ كيف يفكر عاقل في إمكانية التغير في القرآن الكريم، وهو منتشر في الدنيا انتشار الشمس والهواء، فإن كان رجل أحدث تغييرا في القرآن كما يظن الشيعة بالخليفة الثالث سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه فما ظنكم بنُسَخِ القرآن المنتشرة في البلاد الإسلامية كلها، والتي تناقلته الصدور قبل أن تتناقله السطور؟

ثم إذا وجدنا القرآن الكريم بدوره يأتي بدلائل واضحة على أنه كتاب محفوظ، محفوظ من كل تغير وتبدل، ونقص وزيادة، وحسبك آية "**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**" (سورة الحجر: ٩)، تدبروا هذه الآية ومعانيها، أوَ بعد هذا الوعد الموثق المؤكد بعدد من التأكيدات اللفظية والمعنوية كما يعرفها أهل المعاني والبيان اجترأ الخليفة الثالث عثمان على إحداث تغيير في القرآن؟ وهل

قدر على ما لم يقدر عليه رب العالمين حتى غيَّر الآيات والسور؟ عياذا بالله منه، وإن قدمت الشيعة احتمال أن الله تعالى وعد به، ثم أخلف وعده، فهو مستحيل، فإن الله تعالى يقول في القرآن: إن الله لا يخلف الميعاد"(١).

يقول الإمام: "بعد بطلان جميع الاحتمالات لم يبق للشيعة إلا أن ينكروا ما جاء في الكافي برواية هشام بن سالم عن أبي عبد الله أن القرآن الذي جاء به جبريل إلى محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم سبعة عشر ألف آيات"، فإن القرآن المحفوظ الموجود عندنا هو محتوٍ على نحو ستة آلاف آية، ومعنى هذه الرواية أن ثلثي القرآن قد ذهب أو سُرِق، وبذلك أثبتت الشيعة من التحريف في القرآن فوق ما ورد في التوراة والإنجيل من التحريف، فإن المحققين من العلماء ذهبوا إلى أن التحريف في التوراة والإنجيل قليل، ثم هو يتعلق بالمواضع التي تفيد المسلمين أو الأحكام التي تضر أمراء اليهود والنصارى، فحرَّفوا تلك المواضع بأخذ الثمن القليل، والله أعلم بحقيقة الحال، فمفاد روايات الشيعة أن القرآن الكريم قد فاق التوارة والإنجيل في التحريف وكونه غير محفوظ على الرغم من الوعد الرباني بحفظه، مع أن الله تعالى لم يعد بحفظ التوراة والإنجيل، ولا أحد من رسله، نعم! إن علماء السوء الذين كانوا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا لم يكونوا حملته وحفظته؛ وإنما كانوا يتلونه ويعلمونه، ولعل اعتقاد الشيعة بأن القرآن أفضل من التوراة والإنجيل معناه أنه أكثر منهما في التحريف"(٢)

(١) المصدر السابق، ص١٦.
(٢) المصدر السابق، ص١٦-١٧.

يضيف الإمام قائلا: "من الممكن أن تذكر الشيعة هنا احتمالين: الأول أن القرآن الكريم بتمامه محفوظ في لوح محفوظ، والثاني أن الإمام المهدي الغائب في غار سر من رأى حافظ للقرآن، والجواب أن الاحتمال الأول غاية في الوهن؛ فإنا لو فرضنا أن معنى آية "وإنا له لحافظون" أنه حافظ له في اللوح المحفوظ، فلا معنى لوعد الله بحفظه، فإن ما يفيدنا هو أن يحفظ الله سبحانه هذا القرآن الذي بأيدينا حتى لايبقى شك فيما يحويه من أحكام الله سبحانه، ثم لاحاجة إلى حفظه في لوح محفوظ، فإنه لايستطيع أحد أن يحدث نوعا من التغيير في اللوح المحفوظ، وثالثا أن الله تعالى ذكر أولا تنزيل القرآن ثم ذكر حفظه، وهذا يدل على أن الحفظ يتعلق بالقرآن المنزَّل دون القرآن المدون في اللوح المحفوظ، ورابعا أن هذا الأمر لايخص القرآن، بل يعم التوراة والإنجيل وسائر الأشياء، فما فائدة اختصاص القرآن بحفظه"؟......... وأما الاحتمال الثاني فغياب الإمام المهدي في غار سر من رأى نوع من الأساطير والقصص الشعبية، فإن القرآن الكريم مع هذا التواتر إذا لم يبق موثوقا به، فكيف الثقة ببضعة روايات يرويها الماكرون؟ ثم هي تعارض العقل والمنطق، فإن حفظ القرآن من دأب أهل السنة، فما بال الإمام المهدي يتشبه بالسنة دون الشيعة؟ [1]

المبحث السابع: عقيدة البداء عند الشيعة

قد ذكر الإمام أن الشيعة عند ماعجزوا عن تأويل آيات قرآنية تتحدث بإسهاب عن فضل الصحابة يقولون: إن الله تعالى قد بدا له أي كان هذا عندما كان الله تعالى لايعلم حقيقة الأمر ثم ظهر له غيرُ ماقال.

(١) المصدر السابق، ص١٨-١٩.

وهذه عقيدة خطيرة تنسب الجهل إلى الله تعالى، عياذًا بالله من ذلك.

وقد سلكت الشيعة الإمامية في مسألة البداء مذاهب عدة؛ ولكن الإمام نقل كلام الشيخ أبي الفتح كراجكي في كنز الفوائد وغيره من كتب علماء الشيعة:

فنقل معنى البداء من كلام الطبرسي الشيعي أنه قال: معنى قولنا: بدا له تعالى: أنه ظهرله من الأمر مالم يكن ظاهراً.

ويقول الملا نظام الدين الشيعي: إن الله تعالى يعلم الأشياء المستحدثة بعد خلقها.

وذهب الملا نظام الدين الطوسي إلى أن البداء له ثلاثة أقسام:

الأول: البداء في العلم: أي أن الله تعالى علم شيئًا لم يكن يعلم.

الثاني: البداء في الإرادة: أي إن الله أراد شيئًا ثم ظهر أن هذه الإرادة ليست بسديدة.

الثالث: البداء في الأمر: أي أمر أولًا بشيء ثم ظهر أن الأمر السابق خطأ فأمر بأمر جديد، لايشتمل على مضار الأمر الأول.

وتطلق الشيعة على البداء في الأمر "البداء في التكليف"، وعلى البداء في الإرادة "البداء في التكوين" وعلى البداء في العلم "البداء في الإخبار".

يقول الإمام: إن البداء في التكليف يشتمل على البداء في الإرادة، فإن البداء في الإرادة يعني التغير عن الإرادة السابقه لمصلحة خاصة نافعة.

وهكذا تغيير الأمر إنما يتم لمصلحة خاصة، وإذا تغيرت المصلحة تغيرت الإرادة والعلم. ثم البداء في الإرادة يحتوي على البداء في الإخبار. فإن البداء في الإرادة

يعني العلم بتغير المصلحة، وبذلك يتغير العلم، وهذا بداء في الإخبار، فلا يمكن لشيعي أن يختار بعض أقسام البداء، ويترك البعض الآخر، فهي كلها متلازمة. (١)

يقول الإمام: إن الشيعة عندما يرون في النصوص القرآنية والحديثية فضائل الصحابة- رضي الله عنهم- يضطرون إلى القول بالبداء، أي هذا شيء كان ثم تغير علم الله، ولم يبق لفضائل الصحابة شيء يذكر.

فإذا كان الأمر كذلك لايفيدهم عقيدة البداء، فإنه يمكن لنا أن نقول على سبيل الإلزام لا على سبيل التحقيق والاعتقاد: إن البداء إن سلمنا صحته يضر بفضائل الأئمة أيضاً.

فإنه قد يمكن أن يتغير علم الله فيهم، ويعزلهم عن مكانتهم السابقة لاسيما فيما يتعلق بالإمام الغائب الثاني عشر.

فإن الإمام الغائب قد طال انتظاره، وكثر اشتياق الشيعة إلى ظهوره، والإمام- حسب عقائد الشيعة- معصوم من الخطاء، يعلم ماكان ومايكون، حياته وموته بيده، لايضره أعداؤه، فماذا يمنعه عن الخروج مع توافر الفرص والأسباب وانتظار الأحبة، وكان رسول الله ﷺ خرج لمنازلة قريش ومعه ثلاث مائة وثلاثة عشر رجلاً، ثم غلب قريشاً وهزمهم هزيمة ساحقة.

وكان هذا العدد القليل –حسب عقائد الشيعة- كافرا منافقا مارقا عن الدين والملة، ولم يكن مخلصاً كإخلاص الإمامية اليوم.

أما الإمام الغائب فله عظمة لا تدانيها عظمة، وله فضائل تفوق فضائل الصحابة، ثم له أتباع بعدد مئات الألوف بل في الملايين؛ ولكن مع هذا لايخرج

(١) النانوتوي، الإمام محمد قاسم، هدية الشيعة، ص٨٦.

عن غار "سُرَّ من رأي" فما الذي يحمله على هذا البطء والتسويف، وإلى أي شيء يشير عمله هذا؟.

فنحن مضطرون إلى أن نقول: إما أن الإمام لايعلم ماكان ومايكون أو أن الشيعة مخطئة فى حسن الظن بالأئمة.

و هل من المعقول أن يكون إمام الأمة المحمدية مستترا، وحال الأمة إلى فساد ودمار، حلَّ البياض العثماني محل الكلام الرباني، وحلَّ دين أبي بكر محل دين محمد، وظهر الأئمة الأربعة: أبوحنيفة ومالك والشافعي وأحمد محل الأئمة الاثني عشر المعصومين، وهل من ضلالة فوق هذا؟

فتوجيه هذا الفساد لايمكن إلا أن نقول حسب عقائد الإمامية: إن الله تعالى قد بدا له في أمر الإمام الغائب، وعزله عن منصبه، ومن هنا قد مرّ على الإمام أمد طويل فوق مايُتصور، وهو لم يظهر بعد.

عقيدة البداء من منظور قرآني:

أفاد الإمام أن الشيعة اعتقدت بأن المعصوم لايخطئ، ولو اعتقدوا بإمكانية بل بوقوع صدور الخطأ عن الله، عياذا بالله من عقابه.

وهنا أراد الإمام أن ينقض كلام الشيعة بنصوص قرآنية، فقال: هذا موسى كليم الله من الأنبياء المعصومين الذين لا يخطئون، وهو يقول بشأن الله تعالى: **لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى** (سورة طه: ٥٢)

وهذه آية صريحة تضرب على عقيدة البداء في الصميم، فلا يجوز نسبة النسيان والضلالة إلى الله تعالى.

ثم هذا قول يتحدث عن صفة الله تعالى، ولا يمكن أن تتغير وتتبدل.

والعجيب من أمر الشيعة أنهم كيف ينسبون إلى الله تعالى مالا ينبغي، إن غُصِبَ الفدك فالغاصب هو أبوبكر، وإن ظَلَمَ عمر في منع القرطاس فهو

الظالم دون غيره؛ ولكن ما دعاهم إلى الافتراء على الله تعالى وتفريطهم في شأنه العظيم، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

رواية الكليني ضد عقيدة البداء:

من عادة الشيعة إنكار الروايات التي تخالف عقائدهم المزعومة إلا ماجاء عن أئمتهم المعصومين، ولذا حرص الإمام على نقل روايات عن أئمة الشيعة حتى لا تبقى لهم حجة، فقد نقل الإمام روايةً عن الكليني في كتابه الكافي، تقضي على عقيدة البداء، فروى الكليني بسنده عن منصور بن حازم عن أبي عبدالله، قال: منصور سأله هل يكون شيء لم يكن في علم الله، قال: لا، من قال هذا فأخزاه الله، قلت: أرأيت ماكان وماهو كائن إلى يوم القيامة ليس في علم الله، قال: بلى! قبل أن يخلق الخلق[1].

وأفادت هذه الرواية أمرين هامين:

الأول: أن عقيدة البداء خطأ، فإن البداء -وفق منظور شيعي- يستلزم معرفة المجهول، وهذا يعني الزيادة في علم الله تعالى، وهذا ما تردُّه الرواية.

الثاني: أن الإمام جعفر الصادق دعا على من يقول بالبداء، فهنيئا للشيعة دعوة إمامهم عليهم.

فالبداء عقيدة يرفضها الكتاب والسنة وروايات الكليني أيضاً.

آيات قرآنية احتج بها الشيعة في البداء:

إن الإمام في كتابه "هدية الشيعة" نقض أوهام الشيعة في احتجاجهم بالآيات القرآنية على عقيدة البداء وهي آيات تالية:

---

(١) المصدر السابق، ص٨٩.

الآية الأولى:

قال تعالى: **الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ** (سورة الملك: ٢)

ومعناها –كما يزعمون– أن الله تعالى خلق الموت والحياة ليعلم من هو أحسن حالا، والامتحان يجري فيمن لا يُعلم عاقبتُه، ثم الآية: يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (سورة الرعد: ٣٩)

وبذلك تبين لدى الشيعة أن الله تعالى لا يعلم حقيقة الشيء؛ بل يقرر الأمر دونما علم وبصيرة، فإذا تبين لله تعالى خطأ ماقَضَى وقدَّر غيَّره إلى أمر آخر، وهذا هو البداء، فاستحكم أمر البداء عند الشيعة.

بعد ذكر هذا يقول الإمام: وترسخ بذلك الخطأ الأول في فهم الآية: ليبلوكم أيكم أحسن عملاً.

وكيف لايخطئون؟ فالإنسان بلا أستاذٍ يُرْشِدُه ويُقَوِّمه سرعان مايضِل. أما الشيعة فهم عدو لدود للماهرين في الكتاب والسنة، حيث كان الصحابة– –تلامذة النبي فهم أكثر الناس فقها في القرآن ويليهم في الفقه في الدين من تخرَّج عليهم من التابعين، فأنى للشيعة أن يفهموا القرآن الكريم؟

فإن كانت الآية الكريمة: ليبلوكم أيكم أحسن عملاً" تدل –على سبيل الافتراض والتقدير– على أن الله تعالى لايعلم الأشياء قبل خلقها، فلا شك أنه يعلمها بعد خلقها، وهذا أيضاً أمر لايقول به الشيعة، ثم يظهر من الآيات العديدة التي تنص بأن الله تعالى بصير بعباده وبما يعلمون أن الله تعالى إن كان

لايعلم قبل الخلق- كما يقولون- فهو عليم بكل شيء بعد خلقه بلا شك، ولا يمكن أن ينسى شيئًا بعد علمه؛ فهو القائل: ولا ينسى.

فالآية: "ليبلوكم أيكم أحسن عملاً"، أو الآية: "يمحوالله مايشاء ويثبت" محمولة على مصالح هامة، وعلى أن الله يقضي مايشاء متى شاء. وحرام عقلا وشرعا أن تُجعل الآية دليلاً على جهل البارئ –سبحانه- وهذا كتعيين "كرام كاتبين" لإحصاء الأعمال الإنسانية مع أن الله تعالى يعلمها جيدا بالاتفاق، وإجراء الحساب يوم القيامة إنما كانت لمصالح خاصة لاتخفى على العلماء، فإجابات الشيعة عن هذه الأمور هي نفس إجاباتنا عن الآيات المذكورة.

المحامل الصحيحة للآيات التي استدل بها الشيعة في إثبات عقيدة البداء.

الآية الأولى: **وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (*) يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ** (سورة الرعد: ٣٨-٣٩).

ومعنى الآية أنه لا يستطيع نبي ولا رسول أن يأتي بآية تثبت رسالته ونبوته إلا بإذن الله، فالله عنده لكل أجل أي مدة كتابٌ يمحو الله من الكتاب مايشاء ويثبت مايشاء، وعند الله تعالى أم الكتاب، وهو أصل الكتب كلها، هذا حاصل ما في الآية.

والرجاء من أصحاب الفقه والفهم أنهم إذا أدركوا معنى قوله تعالى: لكل أجل كتاب، وقوله تعالى: وعنده أصل الكتاب وعلموا كذلك وقوع الجملة: "يمحوالله مايشاء ويثبت" بعد جملة "لكل أجل كتاب" يفقهون جيداً أن الله عنده كتابان، كتاب كبير وهو المراد بقوله تعالى: وعنده أم الكتاب، وكتاب صغير تشير إليه جملة "لكل أجلٍ كتاب"، ووقعت بعدها جملة

"يمحوالله مايشاء ويثبت"، إشارة إلى أن المحو والإثبات إنما يقعان في الكتاب الصغير دون الكبير، وهذا عين مايعتقده أهل السنة والجماعة. فهم يعتقدون أن الكتاب الكبير الذي يوافق علم الله تعالى أو هو علم الله تعالى عينه لايجري فيه محو ولا إثبات، فكيف تزعم الشيعة أن البداء ثابت بالكتاب.

فإن استدلالهم بالكتاب يماثل استدلال سفيه بأن ترك الصلاة ثابت بقول الله تعالى: **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى**(سورة النساء: ٤٤.)

وإن سأل سائل: ماهذا الكتاب الذي يجري فيه المحو والإثبات؟ قلنا: ولما علمنا أنه غير علم الله تعالى، فلا حاجة لنا إلى الإجابة، ولكن أذكر الجواب المقنع بإذن الله، وهو أن الواقع أن الله وحده يعلم هذه الأمور؛ ولكن على سبيل الاحتمال أقول: إن العالم كله بمثابة كتاب علم الله تعالى، إلا أن البعض منه أوراق، والبعض الآخر نقوش وحروف.

ولإيضاح الحقيقة أذكر أن الشمع وما يماثله من الأشياء اللينة يمكن أن نصنع منها صوراً كثيرةً، ولايمكن أن تجتمع صورتان في وقت واحد، فإنها إذا جاءت صورة جديدة ذهبت صورة قديمة، فالأشكال والصور هي بمنزلة النقوش والحروف، والشمع هو بمثابة الأوراق، وإذا تمَّ ذلك أقول: إن الإجسام كلها يعتريها تغيُّرٌ في الأشكال والصور، إن ما يخرج من الأرض يكون جزءً لجسد الإنسان، ثم يتغير شكله الأول ثم تجري فيه تغيرات كثيرة؛ حتى يصير الغذاء في المعدة شيئًا آخر، ثم يكون نطفة ثم يكون له شكل آخر وما إلى

ذلک، وقس على ذلك الأجسامَ كلها، ومايحدث للأجسام من حرارة وبرودة، وآثارها ليس إلا من هذا القبيل.

وهكذا الأرواح يعتريها أحوال مختلفة كالسرور والحزن والخوف والأمن، فالذي يتغير في كل حال كالأشكال والصور هو بمنزلة حروف الكتاب ونقوشه. أما الأجسام والأرواح التي تبقى في كل حال فهي بمنزلة الشمع وأوراق الكتاب، فالأشكال التي ذهبت جرى فيها المحو، والتي وردت جرى فيها الثبت والإثبات، وبما أن لكل شكل من الأشكال أجلا مسمى فقال الله تعالى: لكل أجل كتاب، فالأشكال تأتي لمدة ثم تذهب، وليست الأشكال كالأوراق التي تبقى دائماً.

ثم هذه الأشكال يتم حفظها في الكتاب الكبير، الذي قال الله عنه: وعنده أم الكتاب.

فمعنى الآية –كما يذكره الإمام– أنه لا يجوز لنبي أن يأتي بمعجزة تثبت صدقه في النبوة إلا بإذن الله، فإن الله سبحانه قدَّر لكل أجل نقوشاً معلومة لايجري فيها المحو والإثبات، وليس فيه مايتمسک به الشيعه القائلة بالبداء.

وإن سلمنا أن الله تعالى يغير الحكم الشرعي فليس هذا ناشئا عن جهل الله– عياذاً بالله من ذلك– فمثله كطبيب يصف الدواء للمريض، ثم إذا تغير حال المريض من مرض إلى الصحة، وصف دواءً آخر أنفع لصحته وأقطع لدائه، وهذا موافق لقانون الطب، وليس فيه مايدل على جهل الطبيب بالدواء الناجع أول مرة.

وكل هذه المحامل صحيحة معقولة بمنطق العقل والروح، ولله الحمد، ولا يجحدها إلا مكابر.

الآية الثانية: ووعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر الخ.

يقول الإمام: رأيت بعض الشيعة يستدلون على البداء بالآية المذكورة أعلاه زاعمين أن الله تعالى لم يكن يعلم الميقات الحقيقي ثم بدا له زيادة عشرة أيام، فأتم الميقات بعشرة أيام، فصار أربعين يوما، وهذا تأويل باطل ناشئ عن الجهل الفاحش بعظمة الله وكلامه المجيد.

ولكن الناظر في القرآن الكريم ممن رُزِقُوْا حظًا من الفهم السليم والعلم العميق يعرف جيداً أن المراد بالميقات المقرر من الله هو الأربعون يوماً، وسبب هذه الزيادة –كمايظهر– أن الله تعالى قرّر ثلاثين يوماً ثم زاد عليه عشرة أيام تكملةً للثلاثين.

وفصَّل الإمام هذه الأمور تفصيلاً لائقا، ويدل كلام الإمام أن الأمركان مشروطاً بثلاثين صوماً فإذا حدث نقص في الشرط جاء التاخير في الإيفاء، فتم له ميقات أربعين ليلة.

إفحام الشيعة في موضوع البداء

إن الشيعة تعتقد ثبوت البداء لله تعالى، نيلاً من علمه سبحانه وتذرعا إلى إثبات عدم الثقة بعلم الباري سبحانه، ومن جهة أخرى فإنهم يعتقدون أن أئمتهم يعلمون جميع ماكان وما سيكون إلى يوم القيامه، وهذا شين عظيم.

وجعل الإمام النانوتوي رحمه الله دلائلهم في إثبات علوم الأئمة تتقلب حجةً عليهم لا لهم، وذلک كما يلي:

الدليل الأول: حديث في الكافي وأمالي الصدوق عن أمير المؤمنين: لولا آية في كتاب الله لأخبرتكم بما يكون إلى يوم القيامة، يريد بالآية قوله تعالى يمحوالله مايشاء ويثبت.

يقول الإمام: انظروا في هذا الدليل الذي تستدل به الشيعة على إثبات العلم المحيط؛ ولكنه في الوقت ذاته دليل على أن علم الله تعالى أكبر وأشمل من علم أمير المؤمنين وأن علم الأمير ليس بأكثر من علم الله سبحانه.

وأن البداء الذي جعل عِلمَ الله سبحانه غير موثوق به هو نفسه جعل الأئمة لا يثقون بعلومهم، فما الذي دعا الشيعة إلى عدم الثقة بعلم الباري سبحانه وثقتهم العمياء بعلوم الأئمة، مع أن بداء الله سبحانه كان يقلق منه أئمتهم المعصومون كما ظهر بالرواية السابقة.

وهذا أمر يثير قلقاً عظيماً لدى الشيعة، فإنه إذا حدثت إشكالية في علوم الأئمة تصدَّع للشيعة بُنيان، وزُلزل لها أركان؛ والأمر السار أن هذه الرواية تجعل ماجاء في كتب الشيعة من نجاسات ومغلظات يذهب هباءاً منثوراً، إلى جانب ما فيها من انقطاع في السند ومطاعن في الرواة.

المبحث الثامن: عقيدة التقية عند الشيعة:

من عقائد الشيعة "التقية" وهي مخالفة الظاهر للباطن، أي إظهار ما ليس في قلبه خوفاً من لحقوق الأذى.

وهي عقيدة شنيعة مرفوضة عقلاً ونقلاً. إن الإمام محمد قاسم النانوتوي رحمه الله قد تناول هذه العقيدة أيضاً بالبيان الكافي وكشف عوارها:

ومما أفاد الإمام في هذا الباب أنه قال: "إن الشيعة بلغوا من الوقاحة منتهاها، فهم إذا رأوا أئمتهم يشيدون بالصحابة وما بذلوه في سبيل الدين من تضحيات جسام حملوا كلامهم على التقية، ومعناه أن كلام الأئمة غير موثوق به؛ فهم كانوا يتقون بكلامهم، ويلبسون الحق بالباطل.

وإذا كان مثل سيدنا علي -رضي الله عنه-وهو من هو في القوة والشجاعة- يخاف الخلفاء الثلاثة فلم يُبد ما هو الحق لا في عصورهم ولا في عهده، فما ظنك بالآخرين من أئمة الشيعة؛ مما يؤكد عليَّ ضرورة كشف الغبار عن حقيقة التقية"(١).

يقول الإمام: إن من أنشأ هذه الفرقة كان مفرطا في الدهاء والمكر والخيانة، فإن عقائدها الصبيانية وتعاليمها البشعة لم تكن لتنتشر إلا عن طريق البداء والتقية.

فإذا كان أهل السنة يستدلُّون بكتاب الله يقول الشيعة: إن الله قد يبدو له غير ما بدا له سابقاً، وإذا احتجوا -أهل السنة- بأقوال الأئمة قالوا: هذا تقية، والتقية في الحقيقة كذب بوَّاح، ولَبْسُ الحقِّ بالباطل، وهو أمر لا يرتضيه عقل سليم ولاديانة في الدنيا، وقد رُويَ عن أئمة الشيعة حثُّهم على الصدق وتركهم الكذب والنفاق.

فقي نهج البلاغة- الذي هو أصح الكتب عندهم- قال الإمام علي -رضي الله عنه-: "علامة الإيمان إيثارك الصدق، حيث يضرك على الكذب حيث ينفعك"(٢).

---

(١) المصدر السابق، ص١٢١.

(٢) انظر: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، تحقيق: عبد الكريم النمري (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٨م)ج١، ص٥٨٦٨.

يقول الإمام: وهذه الرواية قاطعةٌ أساس التقية، ودليل على أن من آمن بالتقية فلا إيمان له، فإن الإيمان هو إيثار الصدق ولو أتى بضرر كثير.

إن الشيعة يحملون كلام أئمتهم في فضائل الصحابة –رضي الله عنهم– على التقية، أي: قالوا هذا خوفاً من الخلفاء وصيانة لدمائهم وأعراضهم.

والمعنى أن الأئمة كانوا في غاية من الضعف والخور حيث كتموا الحق ولم يستطيعوا أن يجهروا به، إن قيل هذا في إمام من الأئمة فلا بأس؛ ولكنه لا يصح بحال في أسد الله الغالب علي بن أبي طالب، فهو لا يخشى أحداً إلا الله، وكان لا يبالي بالدنيا كلها إذا خالفته.

فجاء في نهج البلاغة قول الأمير: إِنِّي وَ الله لَوْ لَقِيتُهُمْ وَاحِداً وَ هُمْ طِلاَعُ اَلْأَرْضِ كُلِّهَا مَا بَالَيْتُ وَ لاَ اسْتَوْحَشْتُ، وَإِنِّي مِنْ ضَلاَلِهِمُ اَلَّذِي هُمْ فِيهِ وَالْهُدَى اَلَّذِي أَنَا عَلَيْهِ لَعَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ نَفْسِي وَ يَقِينٍ مِنْ رَبِّي، وَإِنِّي إِلَى لِقَاءِ الله مُشْتَاقٌ وَلِحُسْنِ ثَوَابِهِ لَمُنْتَظِرٌ راجٍ[1].

يقول الإمام: فمن بلغ في قوته وجرأته هذا المبلغ لايجوز أن يبدي الباطل ويكتم الحق تقيةً وخوفاً.

ثم الشيعة تعتقد أن الموت والحياة بيد الإمام، وقد أثبته الكليني وأجمعت عليه الإمامية.

والأئمة يعلمون ما كان وما سيكون، فما الذي دعاهم إلى الخوف والتقية؟

إن كانت التقية جائزةً أوسنةَ علي كان يعمل بها الحسين –رضي الله عنه– في كربلاء، حيث عاد بلا ماءٍ ولا طعامٍ، وأحيط بثلاثين ألف جندي، وكان

(١) المصدر السابق، ص٤٩٢٥.

المطلوب منه أن يبايع يزيد بن معاوية، ولم يكن المطلوب شاقًّا؛ لكنه ترك التقية وجهر بالحق ولم يرض بالباطل، وكأن الإمام بتركه التقية حسب عقائد الشيعة حمل على أكتافه قتل نفسه وذويه وأصحابه، وأصبح ممن خسر الدنيا والآخرة، عياذًا بالله من ذلك.

إن كان هذا يلزم بقول الأصدقاء فالأعداء خير منهم بكثير.

ولكن الله عالم الغيب والشهادة يعلم أن سيدنا الحسين بن علي رضي الله عنه في عقيدتنا من كبار الشهداء والمخلصين والصديقين وتركُه التقية في أحرج أوقاته دليل على حرمة التقية، وأن عليا والحسين رضي الله عنهما لم يكونا ليكتما الحق خوفاً من فلان وفلان[١].

وقد سبق أن ذكرتُ[٢] روايةً تدل على أن الأمير علي بن أبي طالب رضي الله عنه لا يبالى بأعدائه و لوكانوا سكان الدنيا كلها.

وها هي رواية ثانية حكاها الراوندي شارح نهج البلاغة في كتابه "جرائح الجوائح" عن سلمان الفارسي -رضي الله عنه- أنه قال: إن عليًّا بلغه عن عمر أنه ذكر شيعته، فاستقبله في بعض طرقات بساتين المدينة، وفي يد علي قوس، فقال: ياعمر! بلغني عنك ذكرك لشيعتي، فقال: اربع على صلعتك(٣)، فقال علي: إنك لههنا، ثم رمى بالقوس على الأرض، فإذا هي ثعبان كالبعير فاغرا فاه، وقد أقبل نحو عمر لتبلعه، فقال عمر: الله الله! يا أبا الحسن! لاعدتُ

(١) النانوتوي، الإمام محمد قاسم، هدية الشيعة، ص١٢١-١٢٥.

(٢) قائله الإمام النانوتوي.

(٣) يقال: اِرْبَعْ على نفسك: أي تمهل وانتظر، وفي نفس المعنى: اربع على صلعتك، والصَّلْعَةُ: انحسار الشعر عن الرأس، ولكن في بحار الأنوار للمجلسي: اربع على ظلعك، وهو المثل الصحيح في هذا المعنى: أي انتظر وارفق.

بعدها في شيء، وجعل يتضرع إليه، فضرب بيده إلى الثعبان، فعادت القوس كما كانت، فمضى عمر إلى بيته الخ.(١)

انظروا إلى هذا الحديث كيف قصم ظهر التقية؛ فإن عمر هو أشد الخلفاء الثلاثة كما هو المعروف، ولم يخشه علي؛ بل جعله هو الذي يخشى هيبة الأمير علي، فثبت بذلك أن سكوت سيدنا علي -رضي الله عنه- على صنيع أبي بكر رضي الله عنه في حديقة الفدك ومبايعته كلًّا من الخلفاء الثلاثة وتزويج ابنته عمر الفاروق وصلاته خلف الخلفاء الثلاثة دليل على اعتقاده بحقِّيَّة خلافة الخلفاء ورضاه عن خدماتهم في سبيل إقامة الدين ورعاية الأمة المسلمة في كل مكان، ولم يكن كل هذا تقيةً من إمام جريء مقدام كسيدنا علي -رضي الله عنه- الذي ظل مرهوب الجانب، قوي البطش بالأعداء.

ولا يرضى حتى أرذلُ الناس وأنذلُهم -مع هذه القوة والهيبة- بتزويج ابنته الحبيبة ألد أعدائه، فما بال علي يزوِّج بنته عمر الفاروق؟ وكان من أبنائه سيدنا الحسين بن علي الذي واجه في كربلاء جندًا عظيماً بالغاً ثلاثين ألفاً، وكلهم رضوا بهذا الزواج ولم ينكروه.

فالتقية عقيدة تبطلها الروايات الشيعية. وفيما ذكرت كفاية للعاقل؛ لكن الإمام أراد أن يذكرها بمزيد من التفصيل إتماماً للحجة"(٢).

---

(١) النانوتوي، الإمام محمد قاسم، هدية الشيعة، ص١٢٦ ، وما عثرت على كتاب جرائح الجوائح للراوندي؛ بيد أن الرواية ذكرها علامة الشيعة ومحدثها العلامة المجلسي في كتابه بحار الأنوار، ينظر: المجلسي، بحار الأنوار، ج٣١، ص٦١٤.

(٢) انظر: النانوتوي، الإمام محمد قاسم، هدية الشيعة، ص١٢٤-١٢٦.

مثل التقية عند الإمام النانوتوي:

الأئمة عند الشيعة بُعِثوا ليقيموا العدل ويدعوا الناس إلى الحق ويصلحوا عقائدهم وأعمالهم ويقوّموا أخلاقهم، فهم من الناس بمنزلة معلم من تلاميذه.

ولكنهم ظلوا طول حياتهم يتسترون بالتقية، ولم يجرؤوا على مواجهة الباطل كما تعتقد الشيعة.

ونظراً إلى ذلك ساق الإمام النانوتوي لهم مثلاً عجيباً مضحكًا، حيث قال:

"إذا نظرنا إلى التقية من منظور عقلي فوجدنا تقية الأئمة كالمعلم الذي عُيّن لتعليم الصغار وتهذيب أخلاقهم؛ ولكنه بدل أن ينحو منحى التهذيب والتقويم يسير سير الصبيان ويحذوحذوهم في إتيان المنكرات وإحداث الضجات وممارسة الألعاب.

أما كون التقية فرضاً على الأئمة من الله عزوجل فمثله كمثل مدير الكتَّاب يوصي المعلمَ بأنك في خيرة من أمر التدريس، فلا عليك درَّست أم لا، وحرام عليك أن تضربهم أوتؤبخهم؛ ولكن واجب عليك أن تلعب معهم إذا لعبوا، وتشتغل معهم إذا اشتغلوا.

والله! لا فارق بين شأن هذا المعلم وشأن الأئمة في التقية. هل في الدنيا عاقل يرضى بهذا الصنيع؟

ثم تقية الأئمة صدرت- كما تزعم الشيعة- في أحرج وقت؛ حيث فسد الدين، وضلَّت الأمة، ولحِق بعِرْض الأئمة عارٌ؛ ولكنهم تمسكوا بالتقية، ولم يصدعوا بالحق.

ثم تدعي الشيعة أن مذهبها هو الأوفق للعقل، أجل! أوفق لعقول واهية كالشيعة.

وإذا نظرنا إلى التقية من منظور نقلي عثرنا على مئات من الآيات الشريفات، تقضي على التقية وترد عليها، وتثبت كل فضل وشرف لمن جهروا بالحق، ولم يكتموه حتى في أخطر حالاتهم.

وإن كانت الشيعة عميت أو تعامت عن تدبر القرآن الكريم فلنُرِهم من القرآن مايسوءُهم ولا يسرهم، وذاك فيما يلي:

قول الله تعالى في سورة البقرة: **أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ** (سورة البقرة: ٢١٤) قال الله تعالى في سورة آل عمران: **وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ** (سورة آل عمران: ١٤٦)

وبنظرة عابرة في الآيتين يتبين لذي عينين أن الله يحب من صبر على الحق ولم يضعف ولم يستكن، ولا يحب من ضعف عن الحق وكتمه، فلا يجوز لمن آمن بالله ورسوله ممارسة التقية في حال فضلاً عن جوازها للأئمة والرسل؛ حيث تُحَرِّمُ الآيةُ الأولى الجنةَ على من مارس التقية؛ أما الخوف من الأذى فيقطعه قول الله تعالى: ألا إنَّ نصر الله قريب.

والآية الثانية احتوت على ثلاث كلمات: فما وهنوا وما ضعفوا وما استكانوا، كل منها يقضي على التقية قضاءً لا يُبقِيْ ولا يذرُ.

والآيتان تتحدثان عما ابتُلي به الأنبياء السابقون وأصحابهم في سبيل الدين ليسير أصحاب محمد –صلى الله عليه وسلم– والتابعون على خطاهم وينالوا مرضاة الرب، ويبتعدوا عن التقية وكتمان الحق.

فالحاصل أن أصحاب التقية هم مورد العتاب الإلهي؛ ولكن هذه الطائفة الشقية تجعل من التقية دينا لها وديدنا؛ وتُثْبت للأنبياء والأئمة هذه التقية الذميمة.

مع أن الله تعالى قال: وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ الله مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (سورة البقرة: ١٢٠)

فالله تعالى ينهى كل مسلم عن ممارسة التقية، والشيعة تثبتها للخاصة، وتقول: مارس النبي –صلى الله عليه وسلم– وأهل بيته التقية مع الصحابة –رضي الله عنهم–، الذين فدوه بنفوسهم ونفوس آبائهم وأمهاتهم.

والتقية ليست إلا كتمانا للحق وإشعاراً بالكذب، وقال الله تعالى: **الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ الله وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللهَ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيبًا** (سورة الأحزاب: ٣٩) فلتنظرِ الشيعة في الآية وتراجعْ عقيدتَها ودينَها هل الأنبياء يمارسون التقية أم لا؟ وهذا بالنسبة للأنبياء، وقال الله سبحانه في نبينا محمد –عليه الصلاة والسلام: **فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ** (سورة الحجر: ٩٤)

وقول الله تعالى: **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ الله كَثِيرًا** (سورة الأحزاب: ٢١) زاد الأمر إيضاحاً؛ حيث عهِد إلى الأمة كافةً باتباع الرسول في جميع مناحي الحياة، ودأبُ

الرسول هو الصدع بالحق والابتعاد الكلي عن الباطل، فأنى لمؤمن أن يختار التقية فضلاً عن الأئمة الذين يعتقدهم الشيعة في مرتبة تساوي النبوة؟

ومن جهة أخرى كان الأئمة نُوَّاب الرسول -كما تزعم الشيعة- ومهمات الأنبياء وورثتهم هو التبشير والإنذار لاغير. فأنى لهم التقية التي هي عبارة عن الكذب الصُّراحُ والكفر البَوَّاح.

فالتقية تقضي على الهدف الأسنى الذي بُعث لأجله الرسول وأُنزل القرآن، وهو إظهار الدين الحنيف على كل الأديان، قال تعالى: **هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا** (سورة الفتح:٢٨)

فإن النبي لدى بعثته يكون وحيداً، ثم يقوم بأمر الدعوة بقوة العزيمة وشدة الشكيمة، فتنفذ دعوته إلى قلوب الناس، ويزداد أتباعه، فإن كان النبي مارس التقية ولا يدعو قومه إلى الحق، فكيف أدَّى مهمة التبليغ؟ وكيف تمَّ إظهار الدين على الأديان كلها؟ وقال الله سبحانه: **يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ** (سورة المائدة:٦٧) وأمر الله تعالى أمة محمد قائلاً: **وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** (سورة آل عمران: ١٠٤)

وقد قام رسولنا –صلى الله عليه وسلم– وأصحابه وأتباعه في كل زمان ومكان بمهمة التبليغ، ولم يضعفوا، فنصرهم الله نصراً عزيزاً مؤزراً، وفتح لهم فتحا مبينا وأنجز وعده، فلم يبق حاجة ومبرر للتقية الذميمة.

فلوكانت التقية فرضاً على الأنبياء -كما تزعم الشيعة- لما رضي أبو الأنبياء سيدنا إبراهيم عليه السلام بإلقائه في النار وهجرته من الوطن، ثم لوكان الأمر كذلك لما تعرض الرسول – عليه الصلاة و السلام- للمصائب والمحن التي تعرض لها هو وأصحابه، فلم تكن مقاطعة ولا الهجرة من مكة إلى المدينة؛ ولم تكن غزوات ومعارك، ولكن كل هذا قد كان.

وهكذا خاض أمير المؤمنين سيدنا علي بن أبى طالب في غمار المحن والشدائد، وقاتل الأمير معاوية والخوارج ولوكانت التقية فرضاً عليه لما حدثت هذه الحوارث.

أما محنة سيدنا الحسين بن علي فأشهر من نار على علم، حيث قاتل بقلة عَدَدِه وعُدَدِه جيشاً عظيماً، ولم يرض بالدُّوْن، وكان المطلوب منه أن يبايع يزيد بن معاوية، ويرفض مخالفته، فلوكانت التقية فرضًا لما كان الحسين -رضي الله عنه- ليترك الفريضة ويجهر بالعداوة.

ولا يخفى كذلك على دارس للتاريخ الإسلامي ما تعرض لها الأئمة والمصلحون في كل عصر ومصر من أنواع المحن والفتن بأيدي الحكام الظلمة؛ ممايؤكد على أن التقية لوكانت جائزة لسلكوا سبيلها فضلاً عن أن تكون فريضة.

ولوكانت التقية جائزة لما وردت للصبر هذه الفضائل الكثيرة، أجل! إذا تعرض المؤمن لحالة خطيرة، يضطر فيها إلى أن يقول بلسانه خلاف مايبطنه وقلبه مطمئن بالإيمان فلا بأس به؛ ولكن الأفضل هو الصبر على الأذى ولو قُتِلَ في سبيل الله"[1].

(١) المصدر السابق، ص١٢٦-١٣٠.

تفسير آية استدل بها الشيعة على إباحة التقية:

وهي قول الله تعالى: **لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ** (سورة آل عمران: ٢٨).

استدل الشيعة بالآية الكريمة على جواز التقية، وذلك لجهل منهم أو تجاهل، فالآية لا تدل على أكثر من النهي عن موالاة الكفار مطلقا، وأخذ الحذر منهم بكلام لطيف وسلوك محبَّب إذا دعت الحاجة إلى ذلك.

واتقاء أذى الكفار لا يعني بالضرورة إباحة التقية التي هي كذب صريح ولبس الحق بالباطل؛ بل يمكن تبديل المجلس ونحوذلك من الصور.

وشرح الآية: لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أي لا تجعلوهم بطانة وأولياء، فولاية الكفار تجلب ضرراً خطيراً على عقائدكم وأعمالكم وأخلاقكم. ومن يفعل ذلك باتخاذهم أولياء من دون المؤمنين على الرغم من النهي الرباني الصريح، فليس من الله في شيء أي فليس له نصيب في الإسلام؛ لأن إيثار ولاية الكفار على ولاية المؤمنين دليل على فقدان الإيمان في القلوب، وبذلك يخرج الإنسان من الإسلام.

إلا أن تتقوا منهم تقاةً، أي يجوز لكم أن تتخذوا أسباب الحذر اتقاء لشرهم، ويحذركم الله نفسه. وإلى الله المصير. أي إنكم ترجعون إلى الله تعالى دون الكفار، فاتقوا الله وحده، ولا تخشوا غيره.

ومعنى قوله تعالى: "إلا أن تتقوا منهم تقاة" أن المسلم إذا عاد أسيراً لدى الكفارأو معذوراً كالأعمى والأعرج والـمُقْعَد أوضعيفا كالنساء

والأطفال، وهدده الكفار بقتل أوقيد أو ضرب مبرح يعود على النفس بضرر، يجوز له أن يختار من السلوك والأعمال ما يتقي به شر الكفار ولايقع عرضة لفتنتهم[1].

غلو الشيعة في أئمتهم وموقف الإمام النانوتوي:

إن غلو الشيعة في أئمتهم أمر يفوق الشك والارتياب؛ فدينهم يعطي الأئمة استقلالية مطلقة في الدين، لهم أن يحلوا ما يشاؤون ولهم أن يحرموا ما يشاؤون.

وقد أنكر الإمام النانوتوي على الشيعة صنيعهم هذا، وردَّ على غلوهم في أئمتهم بصراحة، وتارة بتعريض وكناية.

يقول الإمام في كتابه هدية الشيعة وهو يتحدث عن موقف الشيعة من القرآن ويرد على الاحتمالات الباردة التي قد يوردها الشيعة على أهل السنة: "على الشيعة أن يتنازلوا عن اعتقادهم الزائد بشأن الأئمة، الذي يبيح لهم تغيير أحكام الله، ويمحوا هذه الرواية التي وردت في كتاب النوادر: عن محمد بن سنان عن أبي جعفر قال: كنت عنده فأجريت اختلاف الشيعة، فقال: يا محمد! إن الله تعالى لم يزل متفردا بالوحدانية، ثم خلق محمدا وعليا وفاطمة والحسن والحسين، فمكثوا ألف دهر، فخلق الأشياء وأشهدهم خلقها، وأجرى طاعتهم عليها، وفوض أمرهم إليهم، يحلون ما يشاؤون، ويحرمون ما يشاؤون"[2]، ومعنى هذا أن محمد بن سنان كان حاضرا عند أبي جعفر وهو الإمام الباقر،

---

(١) المصدر السابق، ص١٣٥-١٣٦.

(٢) الكليني، أصول الكافي، ج١، ص٤٤١.

فذكر ما يجري بين الشيعة من خلافات، وسأله: لماذا تختلف الشيعة في الدين هذا الاختلاف، فقال: اسمع، كان الله متفردا بالوحدانية، ثم خلق محمدا وعليا وفاطمة والحسن والحسين، ثم خلق الأشياء كلها بعد ألف دهر، ثم جمعهم أمام "بنجتن"، وألزمهم طاعة البنجتن، وفوض أمرهم إلى هؤلاء الخمسة، فلهم أن يحلوا ما يشاؤون، ويحرموا ما يشاؤون، فهذه الرواية تفيد أن سبب اختلاف الشيعة هو أن أحدا من هؤلاء الخمسة أحل شيئا، بينما جاء الثاني ليحرم نفس الشيئ، وقد اتبع بعض الناس الأول، بينما اتبع الثاني الآخرون، وهنا حدث اختلاف كبير"[١]

ويضيف الإمام قائلا: "وكذلك على الشيعة أن يتركوا رواية الكليني في كتابه الكافي: عن أبي عبد الله قال: سمعته يقول: إن الله أدَّب رسوله صلى الله عليه وسلم حتى قوَّمه على ما أراد، ثم فوَّض إليه دينه، فقال: ما آتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا، فما فوضهم الله تعالى إلى رسوله صلى الله عليه وسلم فقد فوضه إلينا[٢]، وحاصل هذه الرواية أن محمد بن الحسن سمع الإمام جعفر الصادق يقول: إن الله أدَّب رسوله، وأمر الجميع باتباع رسوله، فقال: وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا، ثم فوَّض هذا المنصب إلينا، فالرواية الأولى كانت تفيد أن منصب تغيير أحكام الله يتعلق بالبنجتن (سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم وعلي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم)، أما هذه الرواية فقد فتحت الباب على مصراعيه، وجعلت للأئمة كلهم

(١) النانوتوي، محمد قاسم، هدية الشيعة، ص٢١.
(٢) الكليني، أصول الكافي، ج١، ص٢٦٦.

قدرة على تغيير أحكام الله، وإن كان شيعي يؤوِّل الرواية بأن المراد به بيان الأحكام الشرعية بالاجتهاد، كما أن علماء أهل السنة والجماعة أيضا يجتهدون، أو يقول: إن الله تعالى أعطى الأئمة استعدادا خاصا، يؤهلهم لهذا المنصب، نقول: إن العقلاء يدركون أن الاجتهاد شيء لاصلة له بتغيير أحكام الله من تحليل وتحريم، وكذلك الاستعداد الخاص لايتعلق بهذه الرواية، ثم كون الأئمة مجتهدين منقصة عظيمة للأئمة، فأقوال الأئمة عندهم وحي من السماء، وإن أقمنا هذا المعتقد على أساس الاستعداد كان من اللازم أن يسند إلى كل إمام ما يلائم طبعه واستعداده، دون أن يسند إلى الجميع أمر التغيير والتبديل"(١)

المبحث التاسع: اطلاعه على مكر القوم ومزاجهم الديني:

يقول الإمام النانوتوي في بداية كتابه "الأجوبة الأربعون" وهو يرد على أسئلة الشيعة: "لا أرجو أن يرجع السائل إلى الصواب، فأسلوب الأسئلة يدل على ذلك، أقول ذلك مخلصا، نعم! إن الله قادر على كل ذلك؛ ولكن التجربة والحكايات القديمة عن القوم شاهدة على أن القوم غاية في اللجاج والخصومة، ومثال ذلك كمثل قطرة البول، التي تُنَجِّسُ وحدها البئر كلها، ولكنها لا تطهر إلا بماء كثير مثل النهر، وكذلك الشبهة الواحدة تكفي لضلال الناس، ولكن أهل الضلال لايهتدون حتى بدلائل لامتناهية، انظروا إلى بني إسرائيل كيف منَّ عليهم موسى عليه السلام بالتعليم والنصح والتلقين، ونجَّاهم من عذاب فرعون، ولكنهم مع ذلك لم يُسْلموا نفوسهم أمام نبي الله موسى، حتى أنذرهم الله تعالى بإنزال الجبل عليهم ليطيعوا الله ورسوله فقد أطاعوا وما كادوا

(١) الإمام النانوتوي، هدية الشيعة، ص ٢٢.

يفعلون، وقد أراهم موسى معجزات كثيرة، لكنهم لاينتفعوا بها، أما السامري فقد أراهم شيئا عجيبا، أضلهم به، فأين هذا من معجزات موسى عليه السلام؟ بل بعد تدبر نتوصل إلى أن هذا الشيء العجيب لم يحدث إلا بفضل موسى، فلو أن جبريل لم يحضر لنصرة موسى ولم يتصل حافر فرسه بالتراب لما استطاع السامري أن يحدث شيئا من خرافاته، ثم بنو إسرائيل كانوا من أبناء الأنبياء، وكانوا يعرفون الحق من الباطل، ويميزون الصحيح من السقيم؛ لكنهم مع كل ذلك فُتنوا بخرافات السامري، وخسروا الإيمان والهدى، ولم يؤثر فيهم معجزات موسى، وهكذا هنا، فقد أثَّرت خرافات السامريين من الشيعة في عقول القوم، فلم يبق إذاً معنى لدلائل وبراهين، أُوْرِدها أنا أو يوردها غيري من علماء أهل السنة، بل لا أرجو التفات علماء الشيعة إلى مثل هذا الكلام"[1]

وبذلك أوضح الإمام أنه لاسبيل إلى إرشاد القوم، فإن كان سامري واحد أضل بني إسرائيل، فالشيعة يملكون عددا من السامرين، ينافسون في صيد العقول والقلوب، ويتمهرون في عرض الحق في صورة الباطل، وإلباس الباطل لباس الحق.

هل فر علي رضي الله عنه من غزوة من غزوات النبي ﷺ؟

جاء كتاب الأجوبة الأربعين حاملا لأربعين سؤالا، وجهها الشيعة إلى عالم سني، فقام الإمام بعد إلحاح من رفقائه ليرد على هذه الأسئلة الواهية، وكان السؤال الحادي عشر: **هل فرَّ علي من غزوة من غزوات النبي صلى الله عليه وسلم؟**

---

(١) الإمام النانوتوي، الأجوبة الأربعون، (الهند: المطبع الهاشمي، ميروت، د.ط، د.ت) ج١، ص٣.

تناول الإمام هذا السؤال بجواب رائع، فقال: إن سيدنا عليا كرم الله وجهه لم يفر من غزوة، وكيف ذلك؟ فهو أسد الله الغالب، وليس من ديني أن أسب أحداً بلا سبب، لاسيما الصحابة سلف الملة الإسلامية، هذا الوصف لايتهيأ إلا للشيعة، الذين يزوِّرون الكلام ويزخرفونه، ثم يجعلونه عقيدة فاسدة، ويدافعون عنها بأقصى ما يمكن، إن كتبنا مليئة بأن الخلفاء الثلاثة وسيدنا عليا رضي الله عنهم ثبتوا في المعركة ثبوت الرجال، أما كتب الشيعة بما فيها كتاب الكليني التي تثبت أن الأئمة قادرون على موتهم وحياتهم فهي تنكر فضائل علي رضي الله عنه في الثبات والاستقامة، وتُثْبِتُ فضائل الخلفاء الثلاثة شعروا أم لم يشعروا، وذلك أن الشيعة لم يعتبروا الخلفاء الثلاثة أئمة لهم، فلم يكونوا قادرين على موتهم وحياتهم، ومع ذلك كانوا يتفانون في سبيل إعلاء كلمة الله، ويقاتلون قتالا مستميتا، ولا أدل على طاعة الله ورسوله من هذا، وبذلك كانوا مصداقا لقول الله تعالى: **إِنَّ اللهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ ۚ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** (سورة التوبة: ١١١)

وإن كانت الشيعة تستدل بهذه الآية على قدرة الإمام على الموت والحياة، بحيث لا يجري البيع والشراء إلا في ملك الإنسان، فنسلِّم هذا، ولكني أقول: إن الله تعالى أطلق هنا كلمة المؤمنين، ووصفهم بــ "يقاتلون في سبيل الله"، وهذا الوصف لايخص أئمة الشيعة؛ بل يعم جميع المؤمنين، ثم المالك لشيء لايجب أن يكون قادرا على التصرف فيه، فالذي يملك العبد والأمة أو البقرة والشاة لايقدر

على إماتتها وإحيائها، فإنه لو كان الأمر كذلك لم يمت عبد ولا أمة ولا بهيمة من بهائمه، فدل وبكل وضوح على أن هناك فرقا كبيرا بين الملك والقدرة"[1].

هل أغضب أبوبكر النبيَّ صلى الله عليه وسلم؟

كان السؤال الذي نصه "ما حكم مَن أغضب النبي صلى الله عليه وسلم؟" من بين الأسئلة التي وجهها عالم شيعي إلى الإمام النانوتوي ليجيب عنها، فقد أجاب الإمام عن هذا السؤال بشكل لا مزيد عليه، وهذا بدوره دليل على مدى معرفة الإمام بمزاج القوم ودسائسه.

فقد قال الإمام: إن إغضاب النبي ﷺ عن عمد كفر، وأحمد الله على أنه لم يقع في هذا أحد من الصحابة رضي الله عنهم، وإن كان السائل ينوي بغض أبي بكر، ويرمي إلى أن فاطمة غضبت على أبي بكر ، وقال الرسول ﷺ: فاطمة بضعة مني، من أغضبها لقد أغضبني"[2]، وبما أن أبابكر أغضب فاطمة فقد أغضب النبي صلى الله عليه وسلم فعلى من يقول هذا أن يسكِّن جأشه ويهدِّئَ ضميره، فلن يدخل سيدنا أبوبكر رضي الله عنه في هذا الوعيد؛ نعم! إنه وَفْقَ عقائد الشيعة قد يدخل فيه أمير المؤمنين علي رضي الله عنه (ونعوذ بالله منه)، فإن أبابكر رضي الله عنه كان متمسكا بالحديث النبوي: لا نورث ما تركناه صدقة، فأي شيء يضير أبابكر طالما يتمسك بالحديث، وعلى الشيعة أن تقول: لماذا غضبت فاطمة رضي الله عنها بلا سبب؟ أما أهل السنة فليسوا بقائلين بأن سيدتنا فاطمة رضي الله عنها غضبت على أبي بكر رضي الله عنه، نعم! قد يجري

---

(١) الإمام النانوتوي، الأجوبة الأربعون، ج١، ص٤١-٤٢.

(٢) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، باب مناقب قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنقبة فاطمة عليها السلام بنت النبي صلى الله عليه وسلم، رقم الحديث: ٣٧١٤.

بين الأحباب والأقارب من المشادة الكلامية ما يعتبره السذج من الناس نزاعا وخصومة، وما هي بخصومة، وأظن أن فاطمة الزهراء رضي الله عنها بعد ما طلبت إرث الفدك ندمت على ما فعلت، وقللت من اللقاء، ومن جهة أخرى كان خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم يحضر بيت السيدة فاطمة تطييبا لقلبها، لعلها قد أصابها شيء من القلق، فاعتذر إليها، وقد زال ما بينهما، فلم يكن بينهما إلا هذا القدر، وقد اعتبره بعض الناس السذج سخطا وغضبا، بينما حمله البصراء والعقلاء على الندم، فأرأيتموني ماذا بقي إذاً؟ فسؤال السيدة فاطمة عن إرث الفدك شيء يسير فلم تكن تعلم هذا الحديث، نعم! ندمت على فعلها بعد اطلاعها على حقيقة الأمر، وهذا هو ديدن الكبار من الناس، ثم أبوبكر رضي الله عنه قد بالغ في التأدب مع السيدة فاطمة بضعة النبي صلى الله عليه وسلم، فكان له أن يرفض لقاءها، ويتبجح في نشوة الخلافة؛ ولكنه لم يفعل ذلك، بل ذهب للقائها واطمئن على صحتها وأمرها، فلم يتجه سوء إلى أحد منهما، لا إلى سيدنا أبي بكر ولا إلى السيدة فاطمة رضي الله عنهما"(١).

وأكبر من ذلك أن عليا والعباس رضي الله عنهما قد شهدا بصحة ما قاله أبوبكر رضي الله عنه كما جاء في صحيح مسلم، فسكتت الزهراء، ولم يتكلم بشأن الإرث طوال حياته؛ ولكن الشيعة لايقع بصرهم إلا على السوء من القول والعمل، كالجائع الذي يَعُدُّ اثنين في اثنين أربعة أخبزة، نعم! قد أخطأت السيدة فاطمة رضي الله عنها في فهم الحديث، وإن كنتم تخافون من نسبة الخطأ إلى السيدة فاطمة رضي الله عنها، فاعتبروا بقصة موسى والخضر عليهما السلام،

(١) الإمام النانوتوي، الأجوبة الأربعون، ص٤٤.

فكان موسى نبيا جليل القدر، وبذلك يتبين أن الكبار قد يقعون في الخطأ في الفهم، وأما السيدة فاطمة رضي الله عنها فليست بنبية؛ وإنما هي ولية.

نعم! إن المذهب الشيعي قد يجعل سيدنا عليا يُغْضِبُ فاطمة وبالتالي يُغْضِبُ النبي ﷺ، ونعوذ بالله منه، وبيانه أن سيدنا عليا ﷺ قد أراد نكاح بنت أبي جهل، مما شكته السيدة فاطمة رضي الله عنها إلى النبي ﷺ، فقال رسول الله -ﷺ: فاطمة بضعة مني، من أغضبها فقد أغضبني"، فبينوا لي، من يقول له النبي ﷺ هذا القول؟ نعم! إذا كان أبوبكر أغضب فاطمة فيؤيده حديث "لانورث ماتركناه صدقة"، أما علي ﷺ فما الذي حمله على نكاح بنت أبي جهل وإغضاب السيدة فاطمة رضي الله عنها؟ أما نحن فنقول: إن الحياة الزوجية قد تحتوي على مثل هذه الخلافات، ولايطلق عليها الإغضاب، ففي اليوم الذي لقَّب الرسول ﷺ فيه سيدنا عليا المرتضى بأبي تراب، كان المرتضى ساخطا على السيدة ونام في المسجد[1].

المبحث العاشر: سؤالات وجَّهها الإمام النانوتوي إلى الشيعة:

في نهاية كتاب الأجوبة الأربعين كتب الإمام النانوتوي أسئلةً يبلغ عددها إلى ٤٢، وجَّهها إلى الشيعة إفحامًا لهم، ومن المناسب أن أذكر بعض هذه الأسئلة، ومنها:

١- إن عقيدة الإمامة جزء من الإيمان عندكم، فهاتوا برهانكم عليها، فلا يوجد لها أثر ولا خبر في القرآن الكريم ولا في الأحاديث المتواترة، فنطالبكم بجواب صريح لاغموض فيه ولا إبهام.

---

(١) المصدر السابق، ص٤٤.

٢- إن كانت آية ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ (سورة المائدة: ٥٥) تدل على إمامة الأمير سيدنا علي رضي الله عنه فهي في نفس الوقت دالة على بطلان إمامة غيره من الأئمة، وذلك لاحتواء الآية على كلمة الحصر المتمثلة في "إنما".

٣- هل من كتاب موثوق به في اللغة أخبر بأن الولي يأتي بمعنى الحاكم؟ وإن دلَّ فأي ضرورة تدعونا إلى ترك معناه المألوف المعروف، ثم إذا جاء الاحتمال اشتبه المدلول، فلم يعد الكلام صالحا للاستدلال لهذا الموضوع الذي هو من ضروريات الدين الشيعي.

٤- ما الذي يمنع إمام الزمان عن الخروج وتائيد الدين المحمدي؟ فإن كان سببه هي التقية أي اتقاء شر الدولة السنية فقد قامت للشيعة دولة وبلغ عددهم في إيران والهند والدكن والسند مئات الألوف، إلا أن يكون الإمام لايثق بشيعته فهذا أمر آخر.

٥- إن كان نصب الإمام يرمي إلى هداية الأمة وتجنيبهم الخطأ والضلال فلماذا يستتر الإمام عن الأمة، وإن كان له غرض آخر غير هذا، فما الحاجة إلى زيادة جزء لاغٍ ثالث في الإيمان؟

٦- إن كان كلام الله محفوظا -ولاشك أنه كذلك- فما الجواب عن تعارض روايات الكليني والقول المتفق عليه في المذهب؟ وإذا ثبت عندكم أن القرآن محفوظ ولايعتريه نقص ولا زيادة، فما الذي يمنعكم عن الإيمان بآياتٍ تثني على الصحابة، نحو "**وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ**

لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ" (سورة التوبة: ١٠٠) و **"الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ"** (سورة التوبة: ٢٠) وكذلك آية **"مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ"**(سورة الفتح: ٢٩)، وإن تكلمتم في إيمان الصحابة فبينوا مصداق هذه الآيات وما الدليل على بقاء ذلك المصداق على الإيمان؟ اذكروا دليلا يفحم الخوارج؛ لأنهم ينكرون إيمان الأمير أيضا.

٧- وإن كان كلام الله غير محفوظ فما معنى قوله تعالى: **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** (سورة الحجر: ٩)؟ وهذا يدل على أن الشيعة فاقدة التمسك بالثقلين.

٨- لماذا أدخلت التقية في الدين؟ إن كان النبي والإمام بعثا لبيان الدين فما معنى لستر الدين؟ وإن كانوا بعثوا لإخفاء الدين فأي معنى لقوله تعالى: **فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ** (سورة الحجر: ٩٤)

٩- من كان صاحِبَ النبي ﷺ في الغار؟ إن كان أبوبكر -وأرجو أن تقولوا ذلك- فلماذا لاتَعُدُّوْنه من الصحابة وقد شهد الله سبحانه في القرآن بأنه صحابي، حيث قال: **إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ"** (سورة التوبة: ٤٠)

١٠- قال الرسول صلى الله عليه وسلم في شأن أبي بكر: إن الله معنا، فأبوبكر رجل ينصره الله، فمالكم لاتنصرونه؟

١١- هل ورد في شأن علي رضي الله عنه وأئمتكم الآخرين مثل قول الله: إن الله معنا"؟

١٢- جعل النبي صلى الله عليه وسلم أبابكر -رضي الله عنه- إماما في الصلاة، فإن كان أبوبكر كافرا أو فاسقا فلماذا فعل ذلك؟

١٣- لماذا صلى الأمير (سيدنا علي رضي الله عنه) خلف الشيخين وسيدنا عثمان رضي الله عنهم، وكيف تصرف في العبيد والإماء، المجلوبة في غزوات عهد الخلفاء الثلاثة، فإنهم إما أن يكونوا كفارا كما تزعمون فلم تصح الصلاة خلفهم ولا الجهاد معهم، ولم تحل الغنائم والسبايا، أو أن يكونوا مسلمين فكيف صاروا مسلمين بدون الإيمان بالإمامة، نرجو إجابة معقولة مقنعة.

١٤- إن كان الشيخان على كفر، فلماذا زوَّج سيدنا علي بنتَه أم كلثوم سيدَنا عمر الفاروق، وإن كانوا مسلمين فلماذا تتبرؤون منهما.

١٥- هاتوا دليلا من الكتاب والسنة على براءتكم من الخلفاء الثلاثة ومن معهم من الصحابة، وإن لم تجدوا ولن تجدوا فاتقوا الله في هذه الأكاذيب والافتراءات، التي تتصادم مع النصوص الصريحة الواضحة.

١٦- إن كانت التقية فرضا أو مستحبا أو مباحا فلماذا لم يمارسها سيد الشهداء، وعمل بها دفع الكثير من أصحابه إلى القتل ظلما، وحمل عبئهم على كتفه؟ وإن كانت التقية ليست فرضا ولا مباحا فلماذا رضي سيدنا الحسن بن علي رضي الله عنهما بالصلح مع الأمير معاوية رضي الله عنه، وهدم الدين حسب زعمكم؟ وإن كان قد أقام الصلح بسبب العاقبة السيئة لكونه إماما عادلا يحب السلام فهل كان سيدنا الحسين رضي الله عنه لا يعرف العاقبة أو لم يكن إماما؟

١٧- إن كان الأئمة يعرفون ما كان وما يكون فما معنى الآية الكريمة: قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ(سورة النمل: ٦٥) وغيرها من الآيات الكثيرة الواردة في هذا المعنى؟ وإن كانوا لايعلمون ما كان وما يكون فما الجواب عن رواية الكليني.

١٨- إذا كان الأئمة لهم الخيرة من حياتهم ومماتهم فما معنى قول الله تعالى: **فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ** (سورة الأعراف: ٣٤)؟[١]

الحاصل أن الإمام النانوتوي قد كرَّس جهده في الرد على الشيعة، وكان منهجه في الرد منهجا علميا، يتسم بقوة الدليل، ووضوح المعنى وعاطفة النصح، كما أن كتبه في الرد على الشيعة تدل على مدى اطلاعه على عقائد القوم واتجاهاتهم الفكرية، لكنه يؤثر أسلوب النصح والإرشاد على أسلوب التنكيت والتبكيت.

(١) الإمام النانوتوي، الأجوبة الأربعون، ج١، ص٨٠- ٨٥

المصادروالمراجع

- ❖ الندوي، أبو الحسن علي. رجال الفكر والدعوة في الإسلام. دمشق: دار ابن كثير، ط٣، ١٤٢٨ه/ ٢٠٠٧م.
- ❖ الندوي، أبو الحسن، إذا هبت ريح الإيمان، بيروت: مؤسسة الرسالة،ط١٠. ١٩٨٥م.
- ❖ سير سيد أحمد خان. أسباب بغاوت هند.الهند: مطبع مفيد عام، ١٩٠٣م.
- ❖ سيد محمد ميان. علماء هند كا شاندار ماضي.باكستان: جمعية ببليكيشنز، ط٦،٢٠١٠م.
- ❖ شيخ محمد إكرام. موج كوثر. باكستان: اداره ثقافت اسلامية لاهور، ط٢٢، ٢٠٠٣م.
- ❖ جواهر لال نهرو، اكتشاف الهند، ترجمة: فاضل جكتر. دمشق: منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، ط١، ٢٠١١م.
- ❖ النمر، عبد المنعم. تاريخ الإسلام في الهند. القاهرة: دار المعهد الجديد للطباعة، ط١، ١٩٥٩م.
- ❖ مستر ميكلم لوينس، السياسة الهندية.
- ❖ أنور الجندي، الإسلام والاستعمار. القاهرة: دار الأنصار.
- ❖ الكيلاني، سيد مناظر أحسن، سوانح قاسمي. الهند: مكتبة دار العلوم ديوبند، د.ط، د.ت.
- ❖ أسير أدروي. الإمام محمد قاسم النانوتوي حياته ومآثره. الهند: أكاديمية شيخ الهند، د.ت، د.ط.

❖ محمد أويس الصديقي النانوتوي، الإمام الأكبر محمد قاسم النانوتوي وجهوده في إعلاء كلمة الله. الهند: أكاديمية الإمام محمد قاسم النانوتوي، سهارنفور، ط١، ٢٠١١م.

❖ الكاندهلوي، نور الحسن راشد، قاسم العلوم حضرة مولانا محمد قاسم نانوتوي احوال وآثار باقيات ومتعلقات. الهند: مكتبة نور، كاندهله، ط١، ٢٠٠٠م.

❖ محمد يعقوب النانوتوي، سوانح عمري(الإمام محمد قاسم النانوتوي كما رأيته)، ترجمة: عارف جميل القاسمي. الهند: أكاديمية شيخ الهند الجامعة الإسلامية دار العلوم ديوبند، ط١، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

❖ سر سيد أحمد خان، آثار الصناديد. الهند: اردو اكاديمي دهلي، د.ط، ٢٠١١م.

❖ سيد نفيس الحسيني. الإمام النانوتوي في نظر معاصريه. باكستان: سيد أحمد شهيد اكاديمي، ط١، ٢٠٠٣م.

❖ محمد أشرف علي التهانوي، قصص الأكابر.الهند: المكتبة الأشرفية دلهي. د.ت، د.ط.

❖ سيد محبوب رضوي، تاريخ دار العلوم ديوبند. باكستان: الميزان ناشران وتاجران كتب، لاهور، د.ط، ٢٠٠٥م.

❖ أشرف علي تهانوي، أرواح ثلاثه. الهند: مكتبة إمداد الغرباء بمدينة سهارنفور. د.ت، د.ط.

❖ محمد أسعد التهانوي، مولانا محمد قاسم كي ديني وعلمي خدمات كا ايك تحقيقي مطالعه. باكستان: قسم القرآن والسنة بجامعة كراتشي، ٢٠٠٥م.

❖ الإمام محمد قاسم النانوتوي، كفتكوء مذهبي (الحوار الديني)، ترتيب: محمد هاشم علي ومحمد حيات.
❖ محمد قاسم النانوتوي، روداد ميله خدا شناسي(تقرير عن مهرجان معرفة الإله). الهند: مطبع قاسمي، ديوبند، ١٩٦٥م.
❖ الإمام محمد قاسم النانوتوي، فيوض قاسمية. الهند: مطبعة يحيى سهارنفور.
❖ عبد الحميد خان السواتي. الإمام النانوتوي ومؤلفاته، مقال منشور في كتاب نكارشات أكابر(كتابات العلماء): ترتيب: محمد نعمان ارشدي. الهند: مجمع حجة الإسلام، ط١، ٢٠١٨.
❖ النانوتوي، محمد قاسم، آب حياة. الهند: مطبع مجتبائي دلهي، ١٣٢٣هـ / ١٩٠٥م.
❖ الإمام محمد قاسم النانوتوي، مناظره عجيبة، الهند: مطبع كلزار إبراهيم مرادآباد.
❖ أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: السيد أبو المعاطي النوري. بيروت: عالم الكتب، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.
❖ الكليني، محمد بن يعقوب، أصول الكافي. إيران: دار الكتب الإسلامية، طهران، ط٥.
❖ القمي، سعد بن عبد الله أبي خلف الأشعري. المقالات والفرق. إيران: مطبعة حيدري طهران.

❖ الشهرستاني. محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد. الملل والنحل. بيروت: دار المعرفة، ط١، ١٤٠٤هـ.
❖ ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم الحراني. مجموع الفتاوى. بيروت: دار الوفاء، ط٣، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.
❖ الطوسي، أبو جعفر محمد بن الحسن، رجال الكشي، تحقيق: جواد القيومي الأصفهاني. إيران: مؤسسة النشر الإسلامي قم، ط١، ١٤٢٧هـ.
❖ محمد ابن جرير الطبري، تاريخ الطبري. بيروت: دار التراث، ط٢، ١٣٧٨هـ.
❖ د. سامي عطا حسن. عبد الله بن سبأ اليهودي اليماني بين الحقيقة والخيال. المملكة الأردنية الهاشمية: جامعة آل البيت ،المفرق.
❖ البروفيسور طاهر علي الهاشمي، شيعيت تاريخ وأفكار. باكستان: أكاديمية قاضي جن بيرا الهاشمي هزاره، ط١، ٢٠٠١م.
❖ ابن حجر، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي. لسان الميزان. مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط٣، ١٤٠٦هـ.
❖ الفيروز آبادي. مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى. القاموس المحيط.مؤسسة الرسالة، بيروت، ط.٢، ١٤٠٧ه١٩٨٧م.
❖ ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري. النهاية في غريب الحديث. لبنان: المكتبة العلمية بيروت، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.
❖ الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبى بكر أحمد الشهرستاني. الملل والنحل. بيروت: مؤسسة الحلبيي، د.ت، د.ط.

❖ الكليني، محمد بن يعقوب، أصول الكافي. إيران: دار الكتب الإسلامية، طهران، ط٥.
❖ محمد بن الحسن الحر العاملي. الفصول المهمة في أصول الأئمة. مؤسسة معارف إسلامي امام رضا، ط١، ١٤١٨ه.
❖ خير الدين الزركلي، الأعلام .بيروت: دار العلم للملايين، ط١٥، ٢٠٠٢م.
❖ بن حجر العسقلاني، تقريب التهذيب. سوريا: دار الرشيد، ط١، ١٩٨٦م.
❖ ابن خلكان البرمكي. وفيات الأعيان. بيروت: دار صادر، ط١، ١٩٧١م.
❖ الخطيب البغدادي. تاريخ بغداد . بيروت: دار الكتب العلمية.
❖ شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء. القاهرة: دار الحديث، ١٤٢٧ه / ٢٠٠٦م.
❖ الشيخ الصدوق ابن بابويه، الاعتقادات. إيران: دار المفيد للطباعة والنشر، ط٢، ١٩٩٣م.
❖ كاشف الغطاء. أصل الشيعة وأصولها. إيران: مؤسسة الإمام علي قم.
❖ هاشم البحراني. مقدمة البرهان في تفسير القرآن. بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات. ط٢، ١٤٢٧ه/ ٢٠٠٦م.
❖ السيد مرتضى العسكري. مرآة العقول. طهران: دار الكتب الإسلامية.
❖ الشيخ محمد رضا المظفر، عقائد الإمامية.
❖ أبو جعفر محمد بن الحسن بن فروخ الصفار. بصائر الدرجات الكبري.
❖ محمد هادي الطهراني، ودائع النبوة. العراق: مؤسسة كاشف الغطاء.

❖ أبو الفتح. برهان الدين الخوارزمي الْمُطَرِّزِيّ، المغرب في ترتيب المعرب (بيروت: دار الكتاب العربي).
❖ مفيد القمي، شرح توحيد الصدوق. طهران: مؤسسة الطباعة والنشر، ط١، ١٤١٥ه.
❖ الشيخ المفيد. أوائل المقالات. بيروت: دار المفيد للطباعة والنشر، ط٢، ١٤١٤هـ.
❖ ابن حجر العسقلاني. فتح الباري. بيروت: دار المعرفة، ١٣٧٩ه.
❖ الحر العاملي. وسائل الشيعة. مؤسسة آل البيت لإحياء التراث.
❖ السيد إبراهيم الموسوي الزنجاني. عقائد الإمامية الإثني عشرية. بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.
❖ سيد نفيس الحسيني. الإمام محمد قاسم النانوتوي كما يراه معاصروه. لاهور: سيد أحمد شهيد اكيدمي، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
❖ النانوتوي، محمد قاسم، تقرير دل بذير. الهند: مطبع مجتبائي، دلهي، ١٩١٥م.
❖ النانوتوي، محمد قاسم، الدليل المحكم على قراءة الفاتحة للمؤتم. الهند: مطبع قاسمي ديوبند، د.ت، د. ط.
❖ محمد شمس تبريز خان. الامام النانوتوي، حيات أفكار و خدمات. الهند: تنظيم ابناء قديم دار العلوم ديوبند، ط١، ٢٠٠٥م.
❖ سيد محبوب رضوي، تاريخ دار العلوم ديوبند .
❖ النانوتوي، محمد قاسم. هدية الشيعة. الهند: مطبع أحمدي، د.ت. د.ط.

❖ علي بن عيسي الأربيلي، كشف الغمة في معرفة الأئمة. بيروت: المجمع العالمي لأهل البيت، د.ط، ٢٠١٢.
❖ الإمام النانوتوي. الأجوبة الأربعون. الهند: المطبع الهاشمي، ميروت، د.ط، د.ت.
❖ عاشق إلهي الميرتهي، تذكرة الرشيد. الهند: كتب خانه اشاعت العلوم سهارنفور.
❖ الإمام أحمد بن حنبل. مسند أحمد. بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٢٠ه/ ١٩٩٩م.
❖ الإمام البخاري. صحيح البخاري. بيروت: دارق طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢ه.
❖ ابن حجر العسقلاني، فتح الباري. بيروت: دار المعرفة، د.ط، ١٣٧٩هـ.
❖ أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري. صحيح مسلم. بيروت: دار الجبل.
❖ أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، سنن الترمذي. بيروت: دار الغرب الإسلامي، د.ط، ١٩٩٨م.
❖ أبو حامد عز الدين بن هبة الله بن محمد بن محمد بن أبي الحديد المدائني شرح نهج البلاغة. بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٨م.
❖ ابن أبي الحديد. شرح نهج البلاغة. تحقيق: عبد الكريم النمري. بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٨م.

المحتويات

عن الكتاب

وبما أن الغرض الأصيل من الكتاب (هدية الشيعة) هو إصلاح حال الشيعة، فأول ما يميز الكتاب ويدركه الناظر بسهولة هو لوعةُ الإمام وحُرْقَتُه القلبية بجانب أسلوبٍ محبَّب، فهو يكتب المباحثَ وقلبُه يتفطّر كَمَدًا على أن ما الذي يمنع إخواننا الشيعة عن قبول هذا الحق الأبلج؟ وما الذي يدفعهم إلى التورط في الباطل؟ فكلُّ حرف من حروف الكتاب يشِفُّ عن وجعه ولوعته، وحرصه الشديد على نقل الحق الواضح المبين إلى عقول إخواننا الشيعة، فمع تعمقه وعلوِّه في العلوم والفنون قد تنزَّل في كلامه إلى حدٍّ أنه يكتب المسائل الخلافية بأسلوبٍ سهلٍ، يفهمه المثقفون والجمهور على حدٍّ سواءٍ، ويبدو كأن المعانيَ ملهمةٌ من الله في قلب الإمام، ويتنقل من كلامٍ إلى كلامٍ، لا عاطفةَ التعلي ولا فخرَ، كلامٌ كُلّه نصحٌ ومودّةٌ وتواضعٌ وكشفٌ عن الحقائق، ثم هو كلامٌ يفيض حبًّا واحترامًا للصحابة وأهل البيت رضي الله عنهم، ولا ينقطع خيط الاعتدال في خِضَمِّ العواطف الدينية والانطلاق القلمي؛ بل يترك أثرا طيبا في نفس القارئ، ويعطيه من الاعتدال في الفكر ما يحتاج إليه.

(من مقدمة فضيلة الشيخ محمد سفيان القاسمي حفظه الله)

رئيس الجامعة الإسلامية دار العلوم وقف ديوبند، الهند

www.dud.edu.in ₹ 500/-
ISBN 9789384775148
HUJJAT AL-ISLĀM ACADEMY

إحياء تراث السلف
مجمع حجة الإسلام
ـ للبحث والتحقيق ـ

Ḥujjat al-Islām Academy
Al-jamia al-Islamia Darululoom Waqf, Deoband
Eidgah Road, P.O. Deoband-247554, Distt: Saharanpur U.P. India
Tel : + 91-1336-222352, Mob: + 91-9897076726
Website: www.dud.edu.in
Email: hujjatulislamacademy@dud.edu.in, hujjatulislamacademy2013@gmail.com